المشرق
بيروت
السنة الثالثة والثلاثون
نيسان — حزيران ١٩٣٦

توطئة لدرس

الفنّ المسيحي في سورية

في القرنين الخامس والسادس(*)

بقلم جان لاسوس
استاذ في الادب من الجامعة الفرنسوية ، وعضو المعهد الفرنسوي في دمشق

تمهيد

لقد سألت نفسي مرّات عمّا دفع جامعة القديس يوسف ، وقد جعلت « الفن المسيحي في سورية » من دروس « الآداب الشرقية » هذه السنة ، الى ان تهبط دمشق فتفتّش عن رجلٍ علماني يلقي هذه الدروس . لم يكن ذلك لقلة العلماء بين جدرانها ، ولا لعدم تمكنهم من خوض هذه الابحاث . فان حضرة الاب موترد ، مَن قدرتم علومه التاريخية ، قد شاهد وفهم

(*) اولى المحاضرات المُلقاة في « معهد الآداب الشرقية » ، في فرع « الآثار القديمة » .

جميع آثار هذا الفن ، كما ان حضرة الاب مصيريان بدأ دروسه في هذا الموضوع بان كشف دير القديس سمعان العمودي الصغير ، ولقد كان بامكانه ان يحدثكم عن هذا الاكتشاف . وكذلك القول عن حضرة الاب ماترن الذي اظهر مقدرته في فنّ البناء في كتاب شائق نشره مؤخرًا عن « المدن المائتة في سورية » . وقد علّمني هذا الكتاب كثيرًا من الامور .

واذًا فلم تكن الجامعة بحاجة اليّ . ولكن اظنني ادركت بعد التأمل فكرة رؤساء هذه الجامعة . فظهر لي كأنهم خشوا ان يرى الناس طبيعيًا درس الفنّ المسيحي في جامعة كاثوليكية ، وطبيعيًا كذلك ، بل من متطلبات المهنة ، ان يتحسّس الراهب في درس هذا الفنّ . وعليه فان رجلًا علمانيًا ، ملتحقًا بالتعليم الرسمي اي علمانيًا مزدوجًا ، لا يُتّهم في نظر احد اذا ما نادى عاليًا بضرورة درس الآثار المسيحية في العهد المتصل من ملك قسطنطين الكبير حتى الفتح العربي ، مؤكدًا منفعة هذا الدرس بل اهميته العظمى في تاريخ سورية وفي تاريخ الفنّ العام . وهذا ، على ما اعتقد ، ما يولي شهادتي قيمتها العالية .

انتباه العلماء للفنّ المسيحي في سورية — بعض آثاره

ان تكن سورية قد نالت ، في عهدٍ من تاريخها الطويل ، فنًا خاصًا وقوة مبدعة ؛ ان تكن قد ولّدت روائع عجيبة ، فاثّرت في عالَم الاشكال البنائية والزخرفية اثرًا عظيمًا بفضل قوّته واتساع مجاله وطول دوامه ، فلقد كان ذلك عهدًا كانت كلها مسيحية ؛ اي في القرنين الخامس والسادس ، اذ قامت البنايات المتنوّعة في جميع الانحاء السورية بفضل تلك الرفاهية الناشئة عن السلام البيزنطي . وان هذه البنايات لتتّصف بظاهرة نادرة في الزمان والمكان ، وهي ان جميع الكنائس بل جميع البيوت ، انّى قامت ، تمتاز بميزة فنّية . التناسق في النسب والاقسام ، والغنى في الزخرف ، والرشاقة في الصنعة ، كلها صفات تجعل من بنّائي سورية المسيحية ونحّاتيها اساتذة ذوي خبرة ومهارة وقيمة ترتفع عن المستوى العاديّ . ولم تكن المدن الكبرى وحدها لتختص بهم ، بل قد عُرف من فنّاني الفسيفساء ، والنحّاتين ، ومهندسي البناء ، من اقام في المدن الصغيرة

والقرى الحقيرة الضائعة في الجبال الحجرية او المنعزلة على حدود الصحراء . حتى امكن علماء المتأخرين ان يعتبروا ، بدون مبالغة ، ان الفنّ الاصلي في سورية الاسلامية ، ذاك الفنّ الذي ولّد الرائعتين الشهيرتين وهما قبة الصخرة في اورشليم والجامع الاموي في دمشق ، لم يكن الا امتداداً للفنّ المسيحي في سورية .

ومع كلّ هذا فقد جهل العلماء مدّة طويلة وجود هذا الفنّ . حتى قام دي ڤوگويه (de Vogüé) برحلته الدراسية سنة ١٨٦٠ ، فارتاد انحاء سورية ونشر نتائج دروسه مزدانةً برسوم المهندس دوتوى (Duthoit) ، فلفتت نظر علماء الغرب فادركوا انه ، الى جنب الفن البيزنطي المعروف ، كان في سورية وفي العهد نفسه فنٌّ سوري مسيحي ممتاز باساليبه الخاصة ، وبتقاليده ، وبروائعه . ولقد اثارت هذه الاكتشافات همم الروّاد فقاموا بالابحاث المتنوّعة . واني اكتفي من ذلك بذكر الجهود الاميركية القيّمة التي بُذلت من السنة ١٨٩٥ الى السنة ١٩١٠ ، في خمس بعثات تفقّدت مناطق البلاد تحت ادارة الاستاذ بتلر(Butler) وقد جُمعت ابحاثها في عدة مجلّدات واصفةً اكثر من ١٥٠ كنيسة ، ناشرة كثيراً من الرُّقُم . ولكن هذا العمل ظلّ ناقصاً على سعته . ولا نزال حتى اليوم نسمع كل سنة باكتشاف كنيسة ، او دير ، او مدينة كاملة في منطقة حوران ، او في جوار حلب .

لدينا عدد كبير من آثار هذا الفنّ المسيحي السوري . وليست غايتي ان اصفها كلها ولا ان اعدّد اسماءها . انما اودّ ان ينتبه دارسوها لكل ما فيها من ابتكار واستقلال كما ينتبهون لاصلها وتطوّرها . وافضل طريقة لهذا تقوم بان ندرس بعض الامثلة بتدقيق تامّ ، ولاسيما الكنائس منها ، لان بيت الله اوضح مظهر لتطبيق نظرية الفن المسيحي . وهناك مظاهر اخرى هي بيوت الخاصة والبنايات العامّة . وما يلحق بالفنّ العالي من الصناعات او الفنون الثنوية كالتزيل والفسيفساء ، ودور السوريين في ايجاد وتطوّر فن الايقونات المسيحية . وقد اثار هذا الموضوع الاخير مشاكل لم يُفرغ منها بعد .

واني لأُسرّ بنيل غايتي ان تمكنت من بثّ الرغبة في زيارة الآثار الباقية

في سورية الشمالية من ذاك الفن القديم . لا آثار قلعة سمعان فحسب ، وقد اصبحت زيارتها من برنامج السيّاح العادي ، بل ما هو اصعب من ذلك كأن يترك المسافر الطريق المعبّدة فيصعد، من معرّة النعمان او من باب الهوا ، تلك الهضبات في شمالي سورية ، فيسير مقدار ساعة ، واذا به في وسط تلك المدن المائتة ، التي هُجرت على اثر الفتح العربي ، ثم خربتها الزلازل الارضية فظلّت انقاضها ماثلة شهودًا على مدنيّة عريقة تلاشت الّا من زوايا التاريخ.

تاريخ الفن وعمارة سورية في القرنين الخامس والسادس

ليس الفنّ الهاماً فحسب . فان الفنّان ، والبنّاء ، والمزخرف خاصة ، اذا باشر عملًا ما ، لا يأتيه من لا شيء . فهناك علم خاص او مجموعة قواعد تظهر نتيجةً للجهد الفني السابق ويلزم الفنان ان يعرفها . يلزم البنّاء ان يعرف ماهية السطح مثلًا ، كما يلزمه ان يعرف نوعية المواد التي يستعملها وطريقة استعمالها . كذلك يلزم النحات ان يُحسن استعمال المقطع والازميل . ولا يخفى ان هذه المبادئ الاولية يتلقنها الطالب في مدرسة رجل يكون قد اشتهر ببنائه او بنحته ، فيستفيد منه طريقته العملية كما يستفيد اسلوبه النظري وفكرته الخاصة في الفن والامثلة الفنية. فليست مخيّلة الفنان اذًا مطلقة الحرية تجاه الموضوع المقصود تمثيله . انما هي محدودة مستندة الى فكرة فنية في الجمال يجدها استاذ الفنان المذكور وزمانه وبلاده . ولا يخفى ان المظاهر والاشكال التطبيقية التي يفرضها مذهب فني ، تتسّع بحياة طويلة . لنأخذ فنّ العمارة مثلًا فنتحقّق كم يبدو صعباً على المهندس ، حتى في ايامنا ، ان يضع في رأس احد الاعمدة تاجاً لا يكون دُورياً ، ولا يونياً ، ولا كورنتياً ! فان يكن من مجال لحرية الفنان فانما يكون ذلك ضمن حدود المذهب الفني على الغالب. واذا كان الفنان ضيّق الافق المبدع ، قلّد ، دون اهتمام بما وراء ذلك ، ما عرفه من المظاهر الفنيّة ، فعدّد الى ما لا نهاية له تلك الاشكال التي قيل له انها جميلة. واذا كان على شيء من الرغبة في الابتكار ، حاول التخلّص من ربقة التقليد الى الابداع . على ان ابداعه يتولّد حكماً من معارفه ودروسه . يُبدع الشاعر

في اللغة التي يعرفها ، فهو لا يخلق مفرداته ، وفي الكثير من الاحيان لا يخلق حتى نغماته . وهكذا القول عن الفنان ، فبين يديه مواد ضرورية لفنه ضرورة المفردات والانغام للشعر . فهو يسير مستنداً اليها في ابداعه حتى يمكن القول ان اعظم الروائع الفنية ابتكاراً في الظاهر واشدّها طرافة وابداعاً ، تكون غالباً المظهر الاسمى لشكل من الفنّ معروف سابقاً ، او لمذهب فني ولّد قبلها كثيراً من الآثار المشابهة وان ثنوية غير رائعة ؛ او تكون المرحلة القصوى لتطوّر فني مرّ سابقاً بمراحل استعدادية معروفة.

كل هذا يبرّر وجود تاريخ للفن . وانّ الدارس ليشعر ان الشكل الفني يعيش ويتطوّر بادئاً بالمحاولات ، حتى اذا استقرّت قدمه مدةً برز ظافراً في روائعه الشائقة ، ثم لا يلبث ان يشيخ ، فيتحوّل ، ويضمحل ، وقد يعيش في الاشكال المحرّفة عنه ، او يُبعث فجأة اذا صادف فرصة تعيده الى ذوق العصر .

وللفنان العبقري ، في هذا التطوّر ، ان يأخذ باحدى طريقتين فيمثل دوراً من اثنين : إما ان يكون كرافائيل معبّراً عن كمال الميول الفنيّة في عصره ، فيتسلّط على كل ما حاوله سلفاؤه ويظهر كالرجل المكتمل الرجولة تجاه الولد الصغير . واما ان يكون كميكال انج ، سيّداً مطلقاً لعقدة فنية ، فيتقدم سيرها ، ويسبقها فيسرع في تطوّرها ، وقد يضعضعها ، محوّلاً هدف هذا التطوّر .

بيدَ ان اشباه ميكالانج قليلون . فيكون ان اكثر الفنانين من اشباه رافائيل ، ولاسيما في فنّ العمارة ، حيث لا يبدو التقدم الا بطيئاً على اثر الكثير من المحاولات والتفتيشات حتى لا يُعرف مثلاً في ايّ مكان ولا في اي زمان أُتمّ صنع القبة لاول مرة ؟ ومهما يكن من مظاهر الطرافة في اثر ما ، فانه يظهر على الغالب مهيّناً معدّاً . فيمكن مؤرخ الفنّ مثلاً ان يتتبّع ، قبل بناء كنيسة القديسة صوفية في القسطنطينية ، تاريخ الكنائس ذات القبب . وكذلك فان مهندس كنيسة القديس سمعان العمودي لم يبدأ من لا شيء .

ولهذا قبل ان نبدأ درس الفنّ المسيحي في سورية يجب علينا ان نحاول

فهم مصدره . فنقوم بتحديد الكلمات ، مشيرين الى ما نقصد بلفظة فنّ « مسيحي »، مفتشين عن التأثير الذي من الممكن ان يحدثه في فنّ «مسيحي» كونه نشأ وعاش في « سورية » .

الفن السوري في القرنين الخامس والسادس يتّصل بالفن المسيحي

١ً – بالايمان الحيّ الظاهر فيه

ما المقصود بقولنا : فنّ مسيحي ؟

لهذا التعبير معنيان متميّزان : معنى ديني يكون فيه « الفن المسيحي » التعبيرَ الفني الخاصّ بالمسيحية ، ومعنًى تاريخي يكون فيه « الفن المسيحي » فنَّ بلادٍ تسودها المسيحية .

فان قصدنا المعنى الاول اصبح عملنا في درس الفنّ المسيحي ، قبل انتصار الكنيسة وبعدها ، محدودًا بدرس الآثار المسيحية في الفن : كشكل الكنائس ، وفن الايقونات ، ورموز الزخرف والتصاوير . اما في سورية فاننا مدفوعين الى اتباع المعنى الثاني لان « الفن المسيحي » في سورية هو فن سورية كلها منذ انتصار الكنيسة حتى الفتح العربي ، اي ما بين السنتين ٣١٣ و٦٣٠ . وليس من مظهر فني ، طول هذه المدة ، سواء أكان بيتًا خاصًا ، او قلعة او حمّامًا ، او نقشًا او اثر فسيفساء الا وهو متعلق بالفنّ المسيحي . اما في ما خص الآثار الفنية الراقية الى ما قبل هذه المدة ، او الظاهرة بعدها ، فيستعيد تعبيرنا « الفنّ المسيحي » معناه الديني .

وان هذا المعنى الواسع الذي نوليه التعبير المذكور يبرّره ، من جهة ، حالة الفنّ في ذاك العصر ؛ ومن جهة اخرى نفوذ المسيحية الشامل . اما حالة الفنّ فلا تسمح لنا في تلك الحقبة ان نفرّق بين المظاهر الفنية المتعددة . واما النفوذ المسيحي فهو ظاهر في كل شيء . اذا بنى احد الناس منزلًا له كتب على الباب : « Εἷς θεός, βοήθει, اله واحد ! احفظنا . » واذا اقيمت قلعة حربية نُقش عليها : « كن لي ، ايها الربّ ، الهًا حافظًا وحصنًا حصينًا يخلصني . ايها المسيح

ابن مريم ! يحفظ الرب دخولك وخروجك ، يخلّصك الرب من كل شرّ . وضع هذا الحجر مكانه بمعونة الله في شهر پنيموس من السنة الثالثة لسنّ الخراج الموافقة للسنة ٨٨١ يونانية » (تموز ٥٧٠ م.)

ومن هذه العبارات، المأخوذ بعضها من آيات المزامير، عددٌ وافر جدًا منقوش على عتبات الابنية في جميع انحاء سورية حتى ان الدارس لفنّ ذاك العصر لا يرى رُقم الكنائس اقرب الى العبادة والتقوى من رقم البيوت الخاصة او البنايات العامة. وهاكم ترجمة حرفية لرقيم حمّام اندرين: « هذا الختام ، انا ، توماء مجددًا كرمي نحو الجمهور ، وهبته لجميع السكان حتى يذكروني. . . » اوَ لا تدلّ هذه التقدمة على ادّعاء المحسن وتبجّحه . انما مقصودنا ما يلي ، لقد سمى الباني حمّامه حمّام « الصحة » وتابع النقش : « من هذا الباب هو المسيح الذي فتح لنا حمّام الشفاء. . » وهكذا نجد في كل الرقم ان المسيحية تصبغ جميع مظاهر الحياة .

ولم يكتفِ المسيحيون بذكر المسيح وتقديسه باسمائهم في آثارهم الفنية ، بل عدّدوا الاشارات التقوية في تزيين بيوتهم تعديدًا عجيبًا: بلاطات الافاريز ، الابواب المتخذة من الحجارة البركانية (البازالت) ، عتبات الابواب ، كلها مزدانة برسم الصليب منقوشًا ضمن دائرة او ضمن مربّع، يبدو احيانًا بسيطًا ، واحيانًا محافظًا على شيء من الرمز القديم ، كذاك الطابع المسيحي ☧ الذي كان يتألف بجمع الحرفين الاولين من اسم المسيح باليونانية X وP . واذا اضيف اليها اشارة الصليب توصّل الفنّان الى ايجاد كثير من الرسوم والاشكال ، انما تظلّ جميعها محتفظة بالصفة الدينية . ونحن نجد كثيرًا من هذه الرسوم حتى وسط المطاحن ، وفوق النوافذ ، وعلى الابواب الداخلية ، بل على الخزائن ، وفي وسط الاقواس المزينة طُنف البنايات .

وبالتالي فان فنّ سورية ، في القرنين الخامس والسادس ، يظهر بجمله فعلَ إيمان حي . فالدين لا يؤثر في وقتٍ معين من الحياة ، ولا يحتفظ بنصف ساعة كل نهار احد مثلًا ، ولا يظهر طقسًا يتّبعه الانسان في بناء معروف . انما هو همّ الانسان الدائم ، ماثلًا لدى الفلاح مثوله لدى المدني في جميع مظاهر الحياة .

أو يُستنتج من هذا ان مسيحي سورية في ذاك العهد كانوا كلهم قديسين ؟ اننا لا نعتقد ذلك ، ولا يمكن ان نعتقده الا اذا فرضنا ان انقلاباً شاملاً في الاخلاق حصل على اثر مواعظ القديس يوحنا فم الذهب... على ان ما يستطيع علم الآثار القديمة تأكيده هو ان جميع مظاهر الحياة في هذا الشعب المسيحي كانت محاطة بالعبارات المسيحية ، وان الدين كان صفة رسمية عامة شاملة كاكثر ما يمكن ان تكون ؛ وان المسيحيين لم يكن بامكانهم ان يعيشوا الا في حماية الصليب : « اذا كان الله معنا فمن علينا ؟ » وهناك الكنائس العديدة ، التي قد تبلغ الثلاث والاربع في القرية الحقيرة ، والمبنية على الغالب وفاء لنذر ، تأتي بشهادة جديدة فوق الشهادة الحاسمة الناطقة بالرقم والرسوم الرمزية : « انا يوحنا قد صليت فأجبت ، فأقمت هذه الكنيسة شكراً لله ورجاء لمغفرة خطاياي . »

٣ً – بالعناصر الفنية الخاصة

هل هناك ، عدا هذه الشهادات المتتابعة ، من صفة تميز الفن المسيحي ؟ وبكلمة اخرى هل اثر الايمان المسيحي في نظريات الفنّ واساليب تطبيقها ؟

عندما انتشرت المسيحية في حوض البحر المتوسط صادفت مدنيةً كانت في قمة ازدهارها ، هي المدنية الرومانية ، ولا يهمنا منها اليوم الا المظهر الفني. وقد طالما اعتبر العلماء الفنّ الروماني نوعاً من تعميم الفنّ اليوناني. ولا يخفى ان كلمة تعميم (*vulgarisation*) لها معنيان : فيها معنى نشر الاثر المعتم في مناطق اوسع من منطقته الاصلية ، ولكن فيها ايضاً معنى الانحطاط بقيمة الآثار ، اذ ان الكمية تؤثر في الكيفية دون شك. وليس هنا مجال الخوض في هذه النظرية . انما علينا ان نذكر مريدي هذه الابحاث ان الفن الروماني لم يكن واحداً في مختلف انحاء الامبراطورية . وانه في البلاد اليونانية والبلاد المتأثرة باليونانية ، ومنها سورية بمقدار لا يستهان به ، كان تأثير العاصمة الرومانية في الفنّ اضعف من ان يلاشي التأثيرات القديمة. فكانت التقاليد اليونانية تُحفظ فيها على خلوص لا تصادفه في رومة حيث سادت الروح الرومانية مظاهر الفنّ . وبعد ان سارت به من الاصل اليوناني ، ادخلت فيه نزعتها التحقيقية ورغبتها في

مظهر الفخامة والعظمة ، فامتلكت علم المهندس وسيّرت اسلوب البناء ، فولّدت شيئاً جديداً .

على ان الفاتح الروماني الخبير ، كما انه توفق في السياسة بفضل دهائه في اختراع التعابير والصيغ الاكثر موافقة لحكم المقاطعات السحيقة والاقل مساساً بعقليات الشعوب الغريبة ، متباطئاً في تغيير شكل الحكومات القديم بل تاركاً لبعض المقاطعات حكماً ذاتياً يرضيها، فقد ظهر كذلك على حكمة وبصيرة في ما خص الفنّ فاحترم التقاليد المحلية والنزعات الخاصة. على ان هذا الحكم لا ينطبق على البلاد التي لم يكن فيها فنّ يُذكر قبل الفتح الروماني ، كما هي حالة افريقية الشمالية ، فان الرومان ادخلوا فيها ما يمكن تسميته بالفنّ الروماني المقاطعي اي الخاصّ بالمقاطعات الرومانية . وهنالك اماكن تظهر فيها آثار رومانية محضة حتى كأنها منقولة من ارض ايطاليـة ، كالميدان المكتشف مؤخراً في انطاكية، فانه محدَّد ومبني على اسلوب ميدان مكسيموس في رومية . اما سبب ذلك فهو ان الميـدان المذكور هدية قدَّمها احد كبار الموظفين الرومانيين الذي كان قد أُرسل ليفتش المقاطعة السورية واسمه كنتوس مركوس ركس (Q. Marcus Rex) ولا ينتج من هذا ان الفنّ اليوناني في انطاكية كان قد اضمحلّ .

المظهر الرمزي

كان في هـذا الفنّ اليوناني - الرومـاني ميلٌ عجيب الى نحت الاشكال البارزة وتمثيل الاشخاص . فهو يجسّم الالهة ويصوّرها بالاشكال البشرية . وقد انفق قدماء اليونان حظاً وافراً من عبقريتهم الفنية في هذا السبيل . اما المسيحي فلم يكن الّا ليحتقر هذه الآلهة المجسمة في الرخام او البرونز . فهو يعبد الهه الحقّ بروحه وفكره ، ويرى في هذه الصور الوثنية اباطيل الشيطان ، اعداء عبادته . أوَ لم يكن ارباب الامر ، إبّان الاضطهادات الشديدة ، يجبرونه على التضحية لهذه الصور ؟ أوَ لم يكن يموت شهيداً بغضاً لها وحبّاً لالهه الواحد ؟ ويمكن القول نفسه عن تمثـال الامبراطور الروماني المؤلّه الذي كانت تُفرض عبادته وحده على جميع الوطنيين والرعايا الرومانيين. فلم يكن بامكان المسيحي

الا ان يشمله بالاحتقار والازدراء. هذا ما دفع المسيحية الى ان تبتعد في نشأتها عن تمثيل الاشخاص بالنحت بعداً تاماً شاملاً . ولا نعرف مظهراً واحداً شذّ عن هذه القاعدة الا ما نراه على النواويس المسيحية العديدة.

وان هذا الابتعاد عن نحت التماثيل ، الرامية به المسيحية الى صرف ابنائها عن الاخذ بمظاهر الوثنية ، يشرح نوعاً ما اهتمام الفنانين في اول عصور النصرانية بالفنّ الرمزي . لقد شاء البعض ان يروا في هذه الاشارات الرامزة الى امور لا يعرفها الا المسيحيون ، نتيجةَ الاضطهادات العديدة التي حملت ارباب الدين الجديد على ان يتحاشوا عن الظهور ، وان يجعلوا لمعتقداتهم اشارات رمزية يتعارفون بها . امّا انا فأرى فيها خاصةً نتيجة الرغبة في البساطة ، وعلامة الفقر والضعة ، بل حاجة نفسية الى الرمز والتعبير بمظهر بسيط عادي عن حقيقة سامية تُثير في النفس التأملات الفسيحة . وهكذا اصبحت السمكة رمزاً الى المسيح[1] ؛ وهكذا اصبح من الرموز ما نراه في تصاوير الدياميس : ذاك الرجل الحامل سريره ، هو المخلّع دون شك ، وانما هو ، فوق ذلك ، رمزٌ الى مغفرة الخطايا . فان المسيح قال اولاً : « مغفورةٌ لك خطاياك ! » ولم يأتِ بالاعجوبة الا ليبرهن عن حقه بغفران الخطايا . ذاك الرجل النائم تحت معرّش يتدلى منه الكوسى ! هو يونان وقد طارحه الحوت ، بل هو رمز الى قيامة المسيح . حتى اصبح فنّ الدياميس الرومانية فنّاً مقدساً يرمي الى شرح الآيات ، ولا يفهمه الا المؤمنون.

وهكذا غدا نفوذ النصرانية في الفنّان مزدوجاً : تصرفه من جهة عن المذهب القديم القائم بالنحت المجسّم ، وتنيله من جهة اخرى موضوعات جديدة يعبّر عنها باشارات ورموز.

تصميم البنايات الجديدة

ما عسى ان تكون ، في فن العمارة ، احتياجات العبادة الجديدة ؟ كان

---

١) اسم السمكة باليونانية (ἰχθύς) يتألف من خمسة احرف كل منها يبدأ كلمة من هذه الكلمات الخمس : Ἰησοῦς (يسوع) Χριστός (المسيح) Θεοῦ υἱός (ابن الله) Σωτήρ (المخلّص).

المسيحيون يجتمعون ، في اول عهدهم ، في بيوت خاصة ، فيصلّون ويحتفلون بتذكار العشاء السرّي . ولم يكن لهم مقام معين ، انما كانوا يتنقلون من بيت الواحد الى بيت الاخر . حتى قام احد المسيحيين الاغنياء فافرد لاخوانه محلاً خاصاً من بيته يجتمعون فيه دائماً . وقد فقدنا ، لسوء الحظ ، اكثر الاثار الدالة على هذه المجامع الاولية قبل عهد الكنائس الفخمة . على ان الحفريات الدقيقة التي أُجريت تحت كنائس رومية وخصوصاً في محل سان مَرْتَن أو مون (Saint Martin au Mont) دلّت على كيفية تحويل منزل خاصّ الى مجمع ديني . واشهر الامثلة على ذلك ما اكتُشف منذ سنتين بفضل الحفريات الاميركية في دورا - اوربس او الصالحية على الفرات ، وقد ظهر فيها ان اوسع غرفة من المنزل كانت تقوم مقام الكنيسة ، يشهد على ذلك الحنية الموجودة فيها على شكل المحراب وما على جدرانها من التصاوير ، وهي اقدم التصاوير المسيحية المعروفة في الشرق.

وكان المسيحيون حتى في العهد السابق لانتصار الكنيسة ، اذا ما توفّقوا الى الاستقرار والطمأنينة في مكان ما فحصّلوا المال الكافي ، ونالوا الحرية والراحة ، باشروا بناء الكنائس . ومنذ اول عصور هذا البناء يظهر تصميم الكنيسة المعروفة بالملكية (بازيليك) تاماً واضحاً . لم يكن المعبد المسيحي ليُشبه في شيء المعابد الوثنية . واننا نرى ، في واقع الامر ، ان عدد المعابد الوثنية التي تحوَّلت في ما بعد الى كنائس مسيحية ظلّ قليلاً جداً . لان المعبد القديم كان يُبنى للاله وحده ، فهو منزله على الارض ، وبكلمة أُخرى هو إطار تمثاله . اما المعبد المسيحي فهو بيت المؤمنين ، منزل الجماعة ، المجمع ، وهذا معنى لفظة كنيسة اليونانية الاصلية ἐκκλησία . كان المذبح الوثني يقوم في ساحة غير مسقوفة ، امام المعبد ؛ وكان على الغالب ، صغير الحجم ، كما نراه في اثينا وروما ، وان لم يكن كذلك في الهياكل العظيمة التي شادها السوريون في بعلبك وتدمر . اما عند المسيحيين فالامر على خلاف ذلك . على المسيحيين المجتمعين في الكنيسة ، في المجمع ، ان يشتركوا في الحفلة المقامة في الهيكل . واذاً فان تصميم المعبد سيتحوَّر وفقاً لهذه الغاية . سيرتفع المذبح عن مستوى

ارض الكنيسة ، ويكون لا في الوسط بل في آخر تلك القاعة الفسيحة . وسيكون ، في كل جهة من جهتي ذاك المرتفع القائم عليه المذبح مخادع او غرف صغيرة لاعداد الحفلة . وسيهتم البنا، كذلك بوضع سقف على تلك القاعة الفسيحة . هذا تصميم الكنيسة الملكية كما يبدو لنا كاملاً منذ اقدم العصور ، باسواقه الثلاث ، ومذبحه القائم بين الموفهين (السكرستيّين) . اما ما يلحق بالهيكل من البناء ، ما عدا الموفه ، فاهمه البناء الذي تجري فيه حفلة التنصير او العماد . ولم يكن يقبل العماد ، في غالب الاحيان ، الا البالغون بعد ان يُؤهبوا بالتعليم والارشاد . ولم تكن تجري تلك الحفلة الا في ايام معلومة من السنة كخميس الاسرار مثلاً . وهي تتطلب مرافق لا محل لها في تصميم الهيكل . ونحن نراها خارجاً عنه في بناء صغير خاص غاية في الفن على الغالب وعلى قسط وافر من الطرافة ، لان تصميمه لم يُحدَّد منذ البدء. فأخذت مخيلة الفنّان تعمل فيه ما شاء لها الابتكار.

واقدم مثال معروف اليوم للكنيسة التامة مع مكان العماد هذا (*baptistère*) الملحق بها ، هو ما بقي من آثار كنيسة عمّاوس (المدعوّة اليوم عمواس) التي أُقيمت تذكاراً لظهور المسيح بعد قيامته . ولقد خصّ حضرة الاب ڤنسان مجلداً كبيراً بوصف هذه الكنيسة ، وهو يرى انها ترقى الى اوائل القرن الثالث.

ان الفنّ المسيحي وجد امثلة وافية في تصوير رموزه ، ونحت نواويسه ، وبناء كنائسه . وقد لزمه كذلك ان يجد المصوّرين والفنّانين ومهندسي البناء . ولا شكّ في انه استعان اول الامر بالفنّانين الوثنيين ، ولا شكّ في ان الفنّانين المسيحيين انفسهم استفادوا معلوماتهم الاولية من مذاهب الفنّ الوثني . نرى ذلك في القرابة الظاهرة بين تصاوير الديماس الرومانية وتصاوير پومپي ، كما نراه في الشبه البادي بين رسوم دورا - اوروپس سواء أكانت وثنية ام مسيحية ام يهودية . حتى يمكننا القول ان الفنّ المسيحي يخرج في اصله من الفنّ اليوناني - الروماني او الفنّ اليوناني - السامي ؛ على انه يحوّر في المظاهر الفنية رامياً الى سدّ الاحتياجات الجديدة فيدفع بتلك التقاليد الفنية القديمة في تطور محسوس الى اشكال جديدة لم يكن بالامكان ان تنشأ فجأةً من لا شيء .

وهـذا ما نراه ايضاً في نهاية الفن المسيحي السوري اذ يتطوَّر مظهرُه تطوّراً بطيئاً موافقةً لمعتقدٍ جديد يبدو مثاله في الجامع الاموي.

وكان من نصيب هذا الفن المسيحي ان قسطنطين الكبير فتح امامه العالم المتمدن اجمع، فاطلق له مجال العمل حراً فسيحاً. رأينا في ما تقدَّم، ان العقيدة المسيحية كانت تحرّم على اتباعها القيام بواجبات العبادة نحو الامبراطور. واذاً فقد كانت تؤلف دولة ضمن الدولة. ومهما يكن من خضوع المسيحيين الحقيقي للسلطة النظامية الشرعية، فانه لم يكن بامكان هذه السلطة الا ان تعتبرهم من الخوارج على النظام الروماني. فلم تتراجع عن العمل على اذلالهم بجميع الطرق حتى الاضطهاد الفظيع. على انها لم تنجح. فلم يبقَ للامبراطورية الرومانيـة الا التسليم وطلب حماية هذا الاله الجديد الذي لم تقوَ على مقاومته وغلبتِه آلهتُها القديمة. وكان تاريخ الامبراطورية قد عرف عدداً من الآلهـة تمكنت من الظفر بمكان حسن بين آلهة الدولة الاصلية. فأضيفت اسماؤها الى اللائحـة المقدسة، ووُضعت تماثيلها في الهيكل الاعظم. ولم يكن دين الامبراطرة الآخـذ بمبدأ الاختيار والانتخاب ليتأثر بهذا الامر. على ان اله المسيحيين يختلف عن جميع الالهة. فهو غيور لا يرضى الا بكل شيء.. وقد نال كل شيء. فاصبحت المسيحية دين الدولة منذ السنة ٣١٣.

امـا في مجال الفنّ فكان تأثير مرسوم ميلان، الذي اقرَّ به قسطنطين انتصار الكنيسة، عظيماً جـداً. وقد عبّر عن مبلغ هذا التأثير اوسابيوس القيصري صديق الامبراطور. كان اوسابيوس اسقفاً على شيء من التقلقـل في العقيدة، الا انه مثّـل في الحياة الدينية في عصره دوراً مهماً. فباشر كتابة اول تاريخ للكنيسة، وهيّـأ نصّ قانون الايمان الذي اصلحه اصلاحاً جوهرياً مجمع نيقية. وكان من آثاره انه عبّر عن تلك الحركة الفنيـة التي دفعت المسيحيين اذ ذاك الى تشييـد المعابد فقال: « في جميع المدن تُقام الاحتفالات لتقديس المعابد المبنية حديثاً. فيجتمع الاساقفة، ويأتي الزوّار من الانحاء البعيدة فيشعر الانسان بمظاهر حب الشعوب بعضها لبعض. وما هؤلاء جميعهم الا اعضاء المسيح تجمعهم ألفة واحدة. » على اننا لا نعرف اكثر هذه المعابد

الا بما كُتب عنها : ففي القسطنطينية ، وانطاكية ، وبيت لحم ، واورشليم ، وروما ، قامت الكنائس الملكية ، والكنائس المستديرة ذات القبب . ولم يصل الينا من كل ذلك بحالة صالحة الا كنيسة القديس كونستانس في روما وكنيسة بيت لحم . وهنالك بعض الآثار في قبة كنيسة القبر المقدس تدلّ على تصميمها الاصلي . وكذلك اطلعتنا الحفريات الحديثة على تصميم كنيسة ايليونا (Eleôna) في جبل الزيتون . اما الكنيسة المثمنة التصميم ذات القبة الذهبية التي كانت في انطاكية فلم تكشف الحفريات حتى اليوم على اي اثر منها.

وان هـذه السلسلة من الآثار تدلّ على فنّ متقدّم في الازدهار . يسمو بفخامة التصوّر ، وتنوّع طرق التصميم فيدلّ على عمل استعدادي ادرك قمته في عهد قسطنطين ، وفي سورية وفلسطين خاصة . ومها يكن من الاساطير التي حاكتها العامة ، في ما بعد ، حول زيارة هيلانة للاراضي المقدسة ، فان ما قام في فلسطين من المعابد، على اثر هذه الزيارة ، يراه علم الآثار القديمة على جانب خطير من الاهميـة . والى جنب هذه البنايات الفخمة التي اوجدتها المشيئة الامبراطورية ، والتي تمثل في نظر الناقد الفني والى حدّ ما ، تأثير الفنّ الروماني، نرى ان الحركة تتابعت بسرعة فجاءت ببنايات ذات صبغة محليّة . وقد وصف اوسابيوس مطولًا كنيسة صور في خطاب القاه في حفلة تقديسها . على ان هذه الصبغة لم تكن لتتخلص تمامًا من التأثر بالكنائس الامبراطورية . وسنرى كيف توصل مهندسو سورية الى سنّ طريقة خاصة بهم دون ان يهملوا الاستفادة من هذه الآثار الفنية.

الصبغة المحلية في الفنّ السّوري وعلاقته بالفنّ اليوناني — الروماني

١ – بظهر البنايات

على ان هـذا الفن السوري لم يكن بحاجة الى الاخذ باساليب الفنّ الامبراطوري. فقد كان له في بلاده تقاليد متصلة . وهذا تاريخ الفن السوري ، والاصح ان نقول: الفن اليوناني في سورية ، يتتابع غير منفصم الحلقات مـدة

الاحتلال الروماني . ولكن هذا التأثير اذا بدا واضحاً في بعض الآثار فانه معدوم في غيرها . وهذا ، في ما يلي ، عدد عن الابنية المعروفة في سورية :

في القرن الاول : اعمدة طيباريوس في انطاكية — المسرح — حمّامات ترايانوس — هيكل بعلبك — هياكل تدمر الكبرى — هيرودس يزيد اعمدة انطاكية على مسافة كيلومترين.

في القرن الثاني : ميادين الالعاب الاولمبية في انطاكية — مجلس مسميّه — هيكل صنمين — ابنية فيلبس العربي في شهبا (جبل الدروز).

في القرن الثالث : كنيسة شقّا الملكية — قصر ديوقلسيانوس في انطاكية — الحمّام الكبير في انطاكية — الكنيسة والهيكل اليهودي المصوّرين في دورا — كنيسة عمّاوس — مجلس ديوقلسيانوس في تدمر .

في القرن الرابع : كنيسة قسطنطين المثمنة في انطاكية — ميدان ڤالنس — كنيسة تيودوسيوس الثاني.

هـذا قليل من كثير من تلك الآثار الفخمة الدالة على نشاط في البناء عجيب ابداه مهندسو سورية ، وخصوصاً مهندسو انطاكية ، مدة اربعة قرون متوالية . وقد استفاد الفن المسيحي من تلك الاوساط الفنية الوثنية ، حتى انه ، لولا انطاكية ، لما امكننا ان نفهم اتصال التقاليد اليونانية بفنّاني المسيحية .

٣ً — بظهر الصور او الايقونات

والى هذا العصر نفسه يجب ان ننسب تأليف الحلقات الواسعة من الصور القصصية . رأينا ، في ما تقدم ، ان فن التصوير المسيحي كان في اول امره رمزياً . على انه تحوّل فاتخذ مظهرًا جديدًا منذ اوائل القرن الرابع . ذاك ان الاساقفة فكروا في استعمال الصور في تعليم العامة . وسرعان ما ظهرت الاساليب التصويرية ، وسرعان ما تقرّرت صور المشاهد الدينية المهمة ، فنشأ فنّ الايقونات . فاخذ ارباب الفن يمثلون الحوادث التاريخية الدينية او يشرحون النصوص المقدسة بالتصوير اللوحي ، او بالفسيفساء ، او بالرسم الدقيق على المخطوطات . ولقد ذكر المونسنيور ڤيلپير (Mgr. Wilpert) ان على جدران كنيسة القديسة مريم

الكبرى صورة بعض حوادث العهد القديم ترقى الى السنة ٣٦٠ ، ولا يزال القسم الاكبر منها محفوظاً . وعلى هذه الطريقة كان المصوّرون يشرحون الانجيل ، والكتب التقوية المنحولة . وفي كل ذلك كان اللاهوتي يُعين الفنان ، فيرشده لا الى الموضوع فحسب ، بل الى طريقة عرضه . واننا نجد الموضوعات التصويرية مقررة منذ القدم لا تكاد تختلف على طول تاريخ الفن المسيحي في الشرق . وقد اكتُشف منذ اقل من مائة سنة في جبل اتوس كتاب قديم يرقى الى عدة قرون ، مُثّل فيه تقليد اقدم من ذلك ايضاً . وكان هذا التقليد لا يزال يوحي الموضوعات التصويرية الدينية الى فناني اليونان في القرن التاسع عشر . وانه لمن مفاخر الفنّ البيزنطي ان يكون قد توفّق الى تحقيق هذا الفن التصويري الذي لا يزال منذ القدم يجذب انتباه الناظرين بما فيه من دقة التأليف وضبط التنسيق وروعة الزينة الملوّنة ، وسواء في ذلك التصاوير القديمة في كنيسة القديس ابولينير الجديد في راڤينة ، ورسوم مخطوطات القرن الحادي عشر ، وحلقات التصاوير الفخمة في كنيسة القديس مرقص في البندقية .

ولكن ، لسوء الحظّ ، يصعب علينا جدًّا ان نحدّد الدور الذي مثّلته سورية في هذا الفن التصويري . وليس لنا عدد يذكر من الآثار التي احتفظت بتصاويرها الاصلية . حتى ان الاستاذ بتلر ، مدير البعثات الاميركية ، انتهى الى حلّ المشكل بالسلب ، فانكر وجود التصاوير البشرية في الكنائس السورية . بيدَ ان لدينا ، فضلًا عن شهادات قدماء المؤلفين كشهادة المؤرّخ الغزّي الذي وصف التصاوير المزدانة بها كاتدرائية غزة ، شهادات اخرى تظهر في الاناجيل السريانية المصوّرة الراقية الى القرن السادس ، وفي الآنية الفضية المصدّرة من اورشليم الى ايطالية في العهد نفسه ، وفي الصحاف الفضية كذلك التي نقش فيها تاريخ داود . وكلها تذكارات تشهد لوجود هذا الفنّ التصويري .

ثم اتت حفريات دورا . فكشفت في السنة ١٩٣٢ عن كنيسة مزدانة بصور اشخاص من العهد القديم والعهد الجديد ، وكشفت في السنة الفائتة ،

عن هيكل يهودي مزدان بصور مؤرخة في السنة ٢٤٥ مسيحية تمثل حياة موسى وغيره من الانبيا.. فوضع هذا الاكتشاف اساساً جديدة ثابتة للموضوع ، ومكّن من القول انه وُجد ، منذ القرن الثالث ، فنّ تصويري سوري لا يتأخر ، من حيث العصر ، عن اقدم الحلقات التصويرية الرومانية .

واننا نقف هنا في مشكل اثار كثيراً من المناظرات والمشاحنات ، هو المشكل التقليدي بين « رومة والشرق » الذي لا يزال ماثلاً امام علماء الآثار القديمة . وقد اردت ان اشير الى هذا المظهر منه . وان يكن نصيب سورية من الفنّ الديني لا يبدو جلياً واضحاً فيه ، فلا يعني هـذا انه لا يستحق الاعتبار والتقدير .

***

لو شئنا ان نعدّد العوامل التي ادّت الى ازدهار الفن المسيحي في سوريـة لوجب علينا ان نخصّ بالذكر الحالة السياسية والاقتصادية . فان تكن القرى السورية اصبحت مدناً ، وان تكن البنايات الحجرية قامت وارتفعت ؛ فقد كان ذلك بفضل السلام الذي اقرّه في سورية السلطان البيزنطي على رغم الغزوات الفارسية . كان ذلك بفضل النظام الحربي والاداري السائد في سورية . وان هذه الامور لتستحق اكثر من اشارة سطحية . ثم يجب علينـا ان نشير كذلك الى غنى السكان ، لا في المدن فحسب ، بل في القرى والمزارع . غنى مدين للسلام دون شك . الا ان السلام وحده لا يكفي ليضمن رفاهية العيش فضلاً عن الغنى . انما هناك موارد عديدة كانت تدرّ الاموال على السوريين . منها اتساع الزراعة ، فان سهول حوران الخصبة كانت تغـلّ الحبوب بكثرة ، والمرتفعات الصخرية كانت تغطيها اشجار الكرم والزيتون . ومنها الاتحاد مع آسية الصغرى الذي كان يضمن المنافذ لجميع هذه المحصولات ، فتزدهر المدن بالتجارة كما تغتني القرى بالمنتجات الزراعية .

ولا يسعنا المجال للتبسّط في هذه الاحوال . انما نكتفي بايراد ذاك المثل القديم القائل : ازدهار البناء دليل على ازدهار الاحوال . والبناء كان في سورية على ازدهار باهر كما قدمنا . واذاً فان احوال السوريين المسيحيين كانت على غاية

من النجاح .

الخاتمة

هذا ما رأينا ذكره من الآراء العامة توطئة لدرس الفن المسيحي في سورية . اما هذا الدرس نفسه فيتطلّب التدقيق في الوصف ، والانتباه التام في فحص عناصر الاثر الفني الماثل امامنا . يوصل الدرس الاثري صاحبه الى قلب الاثر الرائع ، فيفهم غايته ، ويتلمّس فكرة مهندسه من خلال جدرانه بل من خلال طلوله المتداعية وحجارته المبعثرة . يقف الشاعر امام هذه الاطلال فتحمله مخيلته الى العصور الزاهية ويتأثر شعوره بتقلّبات الاحوال ، فيقول الشعر المؤثر الجذاب . على ان الاثري يفعل فوق هذا . قد يتأثر الاثري وقد يفيض شعوره . الا انه يشعر بالجمال الباقي في هذه الاطلال من تكوينها الرائع السابق ، لا بما توحيه من جمال شعري ناتج من حالتها الخربة المتداعية . يتأثر المؤرخ والاثري بحالة المدن المائتة . على انهما لا يكتفيان بالرثاء بل ينقّبان عمّا وراء ذلك ، ينقبان عن حياة هذه المدن : كيف نشأت ، وكيف عاشت ، وكيف تلاشت . وان هذا الامتداد في الماضي ، هذا التكوين المجدّد ، هذا البعث لا يمكن ان نستند فيه الى مخيلتنا وحدها ، ولا الى شعورنا فقط . انما يقوم به الفحص الدقيق والدرس الموضوعي الخالص فيشعر الاثري اذ ذاك بانه يقترب شيئاً فشيئاً من الحقيقة الثابتة ، فيطمئن الى عمله والى تأكيده . وان هذه الطمأنينة الرصينة لهي افضل ما يرجو العالم الاثري من العوائد والمكافآت .

شهود العيان

على فتح الصليبيين انطاكية

بقلم انور حاتم (دمشق)
دكتور في الادب من جامعة باريس

ملخص تاريخي

كان فتح انطاكية اول والمع موقعة فاز بها الصليبيون في اراضي الشام. غادروا ديارهم افرنسيين ، والمانيين ، وبلجيكيين ، وايطاليين ، بعد ان رنّ في كليرمون صوت البابا الافرنسي أربان الثاني الذي اعلن الحروب الصليبية بتأثير رهبان (Cluny) [1] حيث نشأ وتعلم. خرجوا من ديارهم ، والصعوبات تعرقل كل خطوة يخطونها في سيرهم نحو القدس ؛ وكان قد سبقهم الراهب بطرس الناسك برفقة شخص الماني يدعى گوتييه Gauthier Sans Avoir يصحبهما جماعات من المان وايطاليين وافرنسيين، وكلهم فقراء صعاليك . وصل بطرس الناسك ورفاقه الى القسطنطينية في ٣٠ تموز عام ١٠٩٦ . وكان سفره بالرغم من ارادة البابا اربان الثاني . فهو اذاً المسؤول ، مع القائدَين الالمانيَين كوتشلك والكونت اميكو ، عن كل ما حدث اثناء تلك الرحلة التاعسة التي انتهت في مرفإٍ على خليج نيكوميديا يدعى كيفوتوس

---

١) لا نستطيع هنا ، لضيق المجال ، ان نبحث عن اصل الحروب الصليبية وكيفية تولدها . وقد كانت غايات البابا أربان الثاني من اعلانها عديدة : منها الدفاع عن مسيحيي الاندلس وايطالية الذين كانوا معرضين دوماً للغزوات العربية بشَغل المسلمين عن تلك الغزوات ، ومنها توحيد الكلمة بين امراء اوربة المسيحية الذين كانوا يتقاتلون ، ومنها انقاذ قبر السيد المسيح من ايدي المسلمين وتأمين حياة من يقصدونه من الشرقيين والغربيين. راجع اقدم واكمل سيرة للبابا أربان الثاني في مجموعة مين: Dom Ruinart : *Vita Urbani* II, (Migne, *Patrologia latina*, t. CLI, col. 160 sqq.)

Civetot يوم ٢٠ ايلول من السنة نفسها ، حيث انكسرت تلك الزمر الثائرة، وتشتت شملها ، بعد ان ذُبح اكثر جنودها.

وفي نصف شهر آب من السنة ١٠٩٦ ، بدأت الجيوش المنظمة تزحف الى الشرق تحت قيادة ادهيار دي مونتي ، ممثل البابا الاعلى ومطران مدينة البوي، Adhémar de Monteil, évêque du Puy فكان الصلة الكبرى بين القوّاد على اختلاف اوطانهم ونزعاتهم . وقد انقسم الصليبيون الى اربع فرق:

فالفرقة الاولى كان يقودها گودفروا دي بويون دوق لورين الجنوبية Godefroy de Bouillon ، واخوه بغدوين Baudouin وهي مؤلفة من الالمان والفرنسيي الشمال والشرق . اتّجهت هذه الفرقة نحو وادي نهر الدانوب ، وبعد ان اجتازت هنغاريا ، إتصلت بالقسطنطينية.

وألفت الفرقة الثانية من جنود هوك شقيق ملك فرنسة ، وجنود روبير كونت الفلاندر ، وروبير دوق نورمنديا ، واتيان كونت بلوا وشارتر . عبروا جميعهم جبال الالب وابحروا من مرافئ ايطالية الجنوبية الى البانية ومنها الى القسطنطينية .

والفرقة الثالثة كانت تضمّ رجال فرنسة الجنوبية ، وقائدهم اغنى رؤساء الصليبيين واكبرهم سنّاً، وهو ريمون دي سان جيل Raymond de Saint Gilles المعروف عند العرب بصنجيل[1] وهو كونت مدينة تولوز، واحد اعداء عرب الاندلس . كان يفهم اللغة العربية ، ومطلعاً على اخلاق العرب وعوائدهم . سار برفقة المطران ادهيار واتصل بالقسطنطينية بعد مواقع عديدة في بلاد اوربة الشرقية . وقد اخذ الكونت دي سان جيل على نفسه ان لا يعود ما بقي حياً الى فرنسة.

اما الفرقة الرابعة فكانت مؤلفة من نرمان صقلية يقودهم بوهيمون

---

١) كانت شهرة ريمون دي سان جيل واسعة عند العرب . وعلى اثر احتلال القدس مدحه بعض شعراء الاسلام بقصائد منها قصيدة مطلعها :

نصرتَ بسيفك دين المسيح فللـه درك من صنجيل!

وقد قُتل الشاعر ناظم تلك القصيدة.

Bohémond ، المعروف عند المسلمين بيمند ، وابن اخته تنكريد.

وفي شهر ايار من عام ١٠٩٧ اجتمعت كل الفرق في نواحي القسطنطينية . وكان على رأس البلاد البيزنطيـة امبراطور (بازيلوس) محتـال حاول بعض المؤرخين عبثاً تبرير اعماله . فكان ، بالاشتراك مع بطرس الناسك ، العامل الاكبر على الخلاف الذي وقع بين الروم واللاتين . وكانت نية هذا البازيلوس المدعو الكسيس كومنين ان يستعمل العاطفة الدينية التي انقاد اليها اللاتين ، في سبيل استرداد البلاد التي اغتصبهـا الاتراك من الروم . فما كان منـه الا ان منع جيوش الصليبيين عن اجتياز البوسفور قبل ان يقسموا له يمين الطاعة ، بعد ان قطع عنهم الزاد واحاطهم بجنوده وجواسيسه ، فاذعنوا لارادته ما عدا الكونت دي سان جيل وتنكريد.

وقد برهن الامبراطور الكسيس كومنين على خيانته باول فرصة سنحت له . وذلك عند احتلال مدينة نيقية ، بعـد حصار دام اكثر من خمسين يوماً (من ٦ ايار الى ٢٦ حزيران) . وكان الامبراطور اثناء هذا الحصار قد تمكن بواسطة جواسيسه ، من الاتفاق مع سكان المدينة ، فسلّموه القلعة . حينئذٍ منع البيزنطيون جنود اللاتين من الدخول الى نيقية التي حيناً وقعت تحت حكم الروم كان يحكمهـا امير تركي توفي في عام ١١٠٧ يدعى قيلج ارسلان ابن سليمان .

ترك الصليبيون نيقية ، واعلام البازيلوس ترفّ فوقهـا ، وتوغلوا في طرق آسية الصغرى ، وفتحوا مـدناً عديدة اهمهـا طرسوس ، وادنة ، ومرعش ، ومامبسترا ، واورفا (او الرها) . وقد احتل اورفا بغدوين ، وتزوج بابنة احد كبار الارمن المدعو تفنوذ ، وأسّس اول مملكة لاتينيـة في الشرق . اخيراً وصل الصليبيون امام انطاكية في العشرين من شهر تشرين الاول عام ١٠٩٧

انطاكية ! وصلوها بعد الكدّ والعناء ، وبعد ان تركوا اكثر من نصف مليون جندي امواتاً على طرق اوربة الشرقية وآسية الصغرى . بلغوا انطاكية بعد ان تاهوا اياماً عديدة في جبال طوروس ، تلك الجبال الجهنمية ، كما دعاها احد المؤرخين ، حيث قاسوا الاهوال من جوع وعطش وتعب . وقد فشت فيهم

الامراض وفتك بهم مناخ تلك النواحي الردي، وهلكت خيولهم، فاضحوا يقطعون الجبال والاودية والصخور حفاة لا يستطيعون النهوض اذا سقطوا. انطاكية! كم تمثلت لهم تلك المدينة في احلامهم، وهي المدينة «الملوكية»، مهد الفن في عهد اليونان والذ مقام شرقي لسلاطين الرومان، مدينة مار بطرس وعاصمة النصرانية قبل رومة!

احتلّ الصليبيون انطاكية بعد مواقع عديدة دامية ما عرف تاريخ القرون الوسطى لها نظيرًا. فكان لانتصارهم صدى عظيم في الشرق والغرب. وقد ايقن الجند من تاريخ هذه المواقع بان اصل تلك الحروب الهام المهي، وان القائد الاكبر للجيوش هو خالق البشر نفسه. فتكاثرت الرؤى والعجائب، وجادت قريحة الشعراء فتغنوا بفوز الصليبيين باللاتينية، وبلغة فرنسة الشمالية *langue d'Oil*، وبلغة الجنوب *langue d'Oc* وانتشرت اناشيدهم في الغرب، وقد ألفت بعد الانتصارات بقليل من الزمن. وتبع الشعراء المؤرخون فاطنبوا بذكر المواقع، وبمدح القوّاد. فغرقت الحقيقة تحت امواج الاشاعات، وغدا من الصعب كثيرًا على المؤرخ النزيه التفريق بين الحقائق والاوهام، ولم يبقَ عليه الا فحص آثار من شاهد عيانًا احتلال انطاكية.

مؤرخو العرب

ليس بين مؤرخي العرب من شاهد عيانًا احتلال انطاكية، وقد فاجأ الافرنج مسلمي الشرق، وهم لاهون بمحاربة بعضهم بعضًا، ودأب كل من الامارات السورية مقاومة جارتها. ولم يكن امراء الاسلام ليتوقعوا زحف الصليبيين الى بلادهم. وهذه علامات الدهشة بيّنة ظاهرة في التواريخ الاسلامية التي كتبت عن الزحفة الصليبية الاولى، حتى ما كتب منها بعد تلك الزحفة بقرن او بقرنين. والتواريخ العربية القديمة التي تتكلم عن هذه الزحفة قليلة الفائدة اتت بعد الحوادث بزمن طويل. على انه يستثنى من المؤرخين ابن الاثير وكمال الدين:

ولد ابو الحسن علي بن محمد عزّ الدين بن الاثير في اليوم الرابع من

جمادى الاولى عام ٥٥٥ هـ (١٢ ايار ١١٦٠) في جزيرة بني عمر على الضفة اليسرى من نهر الدجلة: وتوفي في الموصل عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢). وقد ترك بين مؤلفاته العديدة كتابين لهما اهمية كبيرة في ما يتعلق بالحروب الصليبية وهما «الكامل في التاريخ»[١]، و«تاريخ الدولة الاتابكية»[٢]. وابن الاثير مؤرخ بعيد عن التصنعات الانشائية دأبه اظهار الحقيقة (او ما يعتقده حقيقة). ففي تاريخه تتبيّن لنا الانقسامات القاتلة التي حصلت بين المسلمين، وحالة البلاد الشامية عند وصول الصليبيين، وما حلّ بامراء الشرق تحت حكم الافرنج. وفي «الكامل» بعض اخبار مهمة عن فتح انطاكية، وفوز الافرنج على كربوقا، صاحب الموصل، لا نجدها في سواه.

اما كمال الدين، ابو حفص عمر بن ابي جرادة العقيلي المعروف بابن العديم، فهو حلبي الاصل. وله كتابان مشهوران في تاريخ وطنه حلب، الاول منهما معجم كبير عن مشاهير الشهباء عنوانه «بغية الطلب في تاريخ حلب»[٣]. والثاني معروف بين المستشرقين تحت عنوان «زبدة الحلب من تاريخ حلب»[٤]، وهو مرتب على السنين الى السنة ٦٤١ هـ. توفي كمال الدين في السنة ٦٦٠ هـ اي ١٢٦١ مسيحية. وفي تاريخه حوادث كثيرة كان يستحيل على مؤرخي

---

١) طالما هذا الكتاب في الطبعة الكاملة التي نشرها المستشرق تورنبرغ في مدينة ليدن، وهي تحتوي على اربعة عشر مجلدًا.

٢) نُشر تاريخ الدولة الاتابكية في مجموعة مؤرخي الصليبيين، في القسم الثاني من المجلد الثاني، ص ١–٣٧٥

٣) في المكتبة الوطنية في باريس (غرفة المخطوطات) مخطوط يحتوي على قسم من «بغية الطلب». يبدأ باسم: اسحاق بن منصور، وينتهي باسم: امين بن عبدالله الاموي. وهو موضوع تحت رقم ٢١٣٨. وقد نشرت قطع من هذا المخطوط في مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين، في المجلد الثالث.

٤) يوجد نسخة من «زبدة الحلب» في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ١٦٦٦. وقد عرف هذا الكتاب، او استعمله، او ترجمه، عدد كبير من المستشرقين اولهم الراهب الدومينيكي دوم برترو الذي كان يجمع مواد لتاريخ الصليبيين في القرن الثامن عشر، ثم تبعه سيلفستر دي ساسي، وفيلكن، وريتو، وفريتغ، ودفرمري، ومولّر، وبلوشه، وغيرهم. ونشر قسم من هذا التاريخ في مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين: المجلد الثالث.

الافرنج الاطلاع عليها ، وهو واقف على كل ما جرى في شمالي سورية في عهد المملكة اللاتينية القدسية ·

غير العرب من المؤرخين الشرقيين

وقد تكلم عن الحروب الصليبية ، وعن احتلال انطاكية خاصة ، فضلًا عن مؤرخي العرب ، مؤرخون سريانيون وارمن وبيزنطيون · واشهر من كتب عن ذلك العهد من البيزنطيين الاميرة انَّا كومنينا (١٠٨٣ – ١١٤٨) ابنة الامبراطور الكسيس الذي سبق ذكره · وقد رأت بعينها جيوش الافرنج تحيط باسوار القسطنطينيَّة · وكتبت كتابها الذي دعته «الكسياد»[١] لا للدفاع عن والدها فحسب ، بل لتعظيمه وتمجيده وتخليد اعماله التي جعلته بنظرها بطلًا يضاهي ابطال هوميروس · فلهذا السبب لا يحق لنا ان نستند الى اقوالها ، وهي خالية من تلك النزاهة التي يجب ان يتحلَّى بها المؤرخ قبل كل شيء ، عدا انها كانت صغيرة السن عندما اجتاز الصليبيون القسطنطينية وخانتها حافظتها لما باشرت الكتابة ، ولم ترَ بعينها فتوح انطاكية بل روت ما سمعته في بلاط ابيها ، وقد سمعت كثيرًا من الاشاعات التي لا اصل لها · وكتبت الالكسياد بين السنتين ١١٣٧ و ١١٤٠ اي اربعين عاماً ، على التقريب ، بعد الحوادث التي تكلمت عنها.

يُستنتج من ذلك البحث انه اذا اردنا ان نفتش عن الشهود العيانيين فلا يبقى لنا الا الافرنج · وبين الافرنج ثلاثة مؤرخين معروفين شاهدوا عياناً حروب الزحفة الصليبيَّة الأولى.

مؤرخو الافرنج

اولهم اسمه فوشه دي شارتر (Foucher de Chartres) · ولد في مدينة شارتر ، عام ١٠٥٨ ، وكان كاهناً فيها. رافق الى سورية روبير دوق نورمنديا،

---

١) احسن طبعة لهذا الكتاب هي طبعة رفرشيد (ليبيك عام ١٨٨٤)

واتيان كونت مدينتَي بلوا وشارتر ، وشاهد كل ما جرى بين قواد اللاتين والامبراطور الكسيس ، واشترك في احتلال نيقية وفي اغلب المواقع التي جرت في آسية الصغرى. ولكنه لم يحضر حصار واحتلال انطاكية ، لانه رافق بغدوين اخا گودوفروا دي بويون الى مدينة الرها ، وكان كاهنه الخاص. ولما ملك بغدوين على الرها وتزوج بارمنية بعد وفاة امرأته ، ترك عنده فوشه دي شارتر . وبعد وفاة بغدوين عُيّن فوشه محافظاً لكنيسة القبر المقدس سنة١١١٨ . ويقف تاريخه عند السنة ١١٢٧ ، وعمره اقترب عندئذٍ من السبعين. كان فوشه المؤرخ الرسمي لاول ملوك مملكة القدس اللاتينية ، وخير شاهد على كل ما جرى لبغدوين في الرها ، وعلى مواقعه في آسية الصغرى ، وعلى علاقاته مع الارمن والروم والمسلمين، وعلى الحوادث التي جرت في عهد ملكه في القدس وعهد بغدوين الثاني.[١]

والثاني ريمون داغيلر Raymond d'Aguilers واضع كتاب « تاريخ الافرنج الذين احتلوا القدس » . كان كاهناً قانونياً (chanoine) لكنيسة سيدة اليوي في مدينة يوي دي دوم في منطقة اوفرنية . وعندما ترأس اسقفه ادهمار جنود الصليبيّين رافقه ريمون داغيلر ، والتحق بجنود ريمون دي سان جيل ، كونت تولوز ، واصبح رفيقه ومستشاره وكاهنه الخاص ؛ وكتب تاريخ الزحفة الصليبية الاولى « ليكذّب الاشاعات المشوّهة التي نشرها في الغرب الجنود الجبناء الذين هربوا من ساحة الحرب المقدّسة ورجعوا الى اوطانهم». وقد روى كل ما اتوا به من الاعمال اللامعة ، ووصف جهادهم وذكر العجائب التي انعم بها الله عليهم . وريمون داغيلر اكثر المؤرخين سذاجة ورقة، خفيف الروح ، بسيط القلب ، قوي العقيدة ، يتحدث مراراً عن التوسط الالهي في المواقع وظهور القديسين بين صفوف المقاتلين ، واكتشاف الحربة المقدسة في كنيسة مار بطرس[٢] بانطاكية . وقد شاهد بعينه كل ما وقع من المعارك في

١) راجع تاريخه في مجموعة مؤرخي الصليبيين الغربيين ٣ : ٣٠٦ – ٤٨٥

٢) روى بعض المؤرخين المسلمين اكتشاف الحربة المقدسة ، ومنهم ابن الاثير ، قال : « وكان معهم (اي مع الافرنج) راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال (يقصد بذلك بطرس

سبيل احتلال انطاكية واستملاكها ، واشترك في كل هذه المعارك . فشهادته صادقة ، وقد روى جميع الحوادث باخلاص .

اما المؤرخ الثالث فلم يذكر اسمه وقد ترك كتاباً عنوانه « ملاحم الافرنج والقدسيين الآخرين »[1] وهو اقدم تاريخ كتب عن الزحفة الصليبية الاولى ، ومؤلفه بدأ بانشائه في المعسكر في الوقت الذي كانت تجري به الحوادث ، حتى انه يتكلم احياناً بصيغة الحاضر ، واحياناً بالمستقبل عن المواقع التي يُنتظر انتشابها . وكان هذا الجندي المؤرخ من رجال بيمند القائد الصقلي ، اجتاز البوسفور برفقة تنكريد ابن اخت بيمند ، دون ان يتأخر في القسطنطينية ، واشترك في احتلال نيقية ومواقع انطاكية مع جنود بيمند . وينتهي تاريخه بعد موقعة عسقلان (١٢ آب ١٠٩٩) . ويظهر انه من سكان ايطالية الجنوبية ، ويمثل الطبقة الوسطى من جنود الصليبيين . وقد روى ما شاهده بكل دقة . وفي تاريخه حوادث كثيرة لا نجد لها ذكراً في كتب سائر المؤرخين .

***

الناسك . وهذا خطأ لان مكتشف الحربة قروي مسكين من احدى مقاطع فرنسة الجنوبية عاجز عن ارتكاب الحيلة التي ينسبها له ابن الاثير بدون حق) فقال لهم : ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بانطاكية وهو بناء عظيم . فان وجدتموها فانكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق . وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفى اثرها وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة ايام فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم ابشروا بالظفر . » (راجع مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين ١ : ١٩٥) وذكر البابا پاسكال الثاني اكتشاف الحربة المقدسة في الكتاب الذي هنأ به الصليبيين المرسل في شهر ايار من السنة ١١٠٠ (Mansi, *Concilia*, II, 979)

١) *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum* . كان يطلق في الغرب اسم « القدسي » على الحاج الذي زار القدس . — لهذا التاريخ طبعة جديدة ، غير المنشورة في مجموعة مؤرخي الصليبيين ، نحن مدينون بها للاستاذ برهيه :

Louis Bréhier, *Histoire anonyme de la première Croisade* [*Classiques de l'Histoire de France*. Paris, 1924]

ملحمة انطاكية

اولئك هم المؤرخون الـذين لم يشك احد في اشتراكهم بالزحفة الصليبية الاولى. وقد عثرنا في يوم من السنة ١٩٢٩، على اثر شعري لم نكن نتوقع في بادئ الامر اهميته . وهذا الاثر محفوظ في باريس في ستّ نسخات خطية خمس منها في المكتبة الوطنية (تحت ارقام ٧٨٦ و٧٩٥ و١٦٢١ و١٢٥٥٨ و١٢٥٦٩) وواحدة في مكتبة الأرسنال (تحت رقم ٣١٣٩)، وهو معروف بعنوان «ملحمة انطاكية» : *La Chanson d'Antioche*

لم نكن اول من اهتم بملحمة انطاكية . فقد نشر قسماً منها احد علماء اللغة الافرنسية القديمة في عام ١٨٤٨[1] . ولكن هذه الطبعة مشوّهة مملوءة بالاغلاط ، قديمة الاسلوب ، اكتفى ناشرها بلصق قطع مختلفة من ملحمة انطاكية نقلها عن النسخات الخطية بدون نظام . ثم قام استاذ آخر ونظر في ملحمة انطاكية في اطروحة قدمها لجامعة باريس عام ١٨٧٧[2] . ولكنه لم يتمكن من فحصها الا فحصاً سطحياً اكتفى فيه بنقد آراء من تقدّمه ، على كونه لم يتوفق لفهم اهمية ملحمة انطاكية التاريخية حتى ولا لقراءتها قراءة كاملة في المخطوطات . فجاءت الصحائف القليلة التي خصصها لدرس ملحمة انطاكية ضعيفة الاساس ، مخالفة للحقيقة الواقعة ، متناقضة الاجزاء . فلا عجب اذا لم تنل ثقة المهتمين بدراسة الآداب الافرنسية في القرون الوسطى.

ولما اتيح لنا ان نفحص ملاحم الصليبيين وصلنا الى نتائج تختلف عمّا اتى به الاستاذان المذكوران اللذان اهتما بملحمة انطاكية. وتبيّن لنا بعد ان فحصنا المخطوطات ان ملحمة انطاكية الاصلية اختفت ولا يُعرف لها اثر ، وقد جدّدها في اواخر القرن الثاني عشر شاعر من سكان فرنسة الشمالية اسمه غراندور

(1) Paulin Paris, *Roman des douze pairs, la Chanson d'Antioche* - 2 vol. in-8°. Paris, 1848, (chez Techener)

(2) Pigeonneau, *le Cycle de la Croisade et de la famille de Bouillon*, in-8°. S' Cloud, 1877.

دي دوي Graindor de Douai ومزجها مع غيرها من الملاحم التي ألفت في سورية لتمجد افرنج الشام ، وتخلد اعمالهم كملحمة القدس La Chanson de Jérusalem وملحمة الاسارى La Chanson des Chétifs . والآن لا نعرف ملحمة انطاكية الا بقالبها الجديد ، اي غير مستقلة ، بل محفوظة في النسخات الخطية كقطعة صغيرة من الملاحم الصليبية التي سبكها الشاعر المجدد غراندور دي دوي في كتاب واحد لا يقل عدد ابياته عن الخمسين الفاً .

حللنا ملحمة انطاكية وقابلناها بمذكرات مؤرخي الزحفة الصليبية الاولى من مسلمين وافرنج ، فرأينا ان هذا الاثر الشعري الحماسي هو بالحقيقة خير وثيقة تاريخية لاحتلال انطاكية ، ومؤلفه الاصلي يدعى ريشار الحاج[1] Richard le Pélerin ، ولم يحفظ لنا التاريخ سوى اسمه . ويظهر من ملحمته أنه بلجيكي الاصل ، او من سكان فرنسة الشمالية ، وقد تجند تحت راية الكونت روبير دي فلاندر وبلغ القسطنطينية عن طريق ايطالية الجنوبية ، ورافق القائد تنكريد في غزواته باراضي آسية الصغرى . وكان ريشار ممتزجاً مع الشعب حين جرت الحملات الشديدة حول انطاكية . فاتت اشعاره صدى لعواطف الشعب وتضحياته وآماله وايمانه . والمجدد حفظ لنا عدة ابيات تشهد بوجود ريشار بين المقاتلين حينما اشتعلت المواقع واشتد القتال . وعدا هذه الدلائل ، فقد عثرنا على شواهد اخرى تثبت اشتراك ريشار في الزحفة الصليبية الاولى اهمها شهادة وردت في المجموعة الاسبانية المعروفة تحت عنوان[2] *La Gran Conquista de Ultramar* التي رُوي فيها اعمال الامبراطور شارلمان واعمال الصليبيين واساطير كثيرة تتعلق بتاريخ فرنسة واسبانية في القرون الوسطى . وتقف الحوادث التي ترويها هذه المجموعة في السنة ١٢٧١ ، وقد عرف مؤلفوها ملحمة انطاكية الاصلية وذكروا اسم ريشار الحاج عندما تحدثوا

١) اطلق المؤرخون المعاصرون للزحفة الصليبية الاولى لقب الحاج (pélerin) على كل من تجند ليحارب في سبيل القبر المقدس .

٢) راجع هذه المجموعة ، ص ٢٦٩ من العمود الاول في طبعة گايَنگوس :
La Gran Conquista de Ultramar., édit. Gayangos. Madrid, 1858

عن احتلال مدينة انطاكية ، وشهدوا بوجود ريشار بين صفوف المقاتلين.

وعثرنا على شهادة اخرى تعدّ من اوضح الدلائل على بعض العادات التي انتشرت في الحروب الصليبية ، وهي اهتمام القواد بشهرتهم الشخصية وتعلقهم بسمعتهم بين ابناء اوطانهم. فمنهم من كان يدفع للشعراء او للمؤرخين اموالا طائلة حتى يذكروا اعماله في اراضي الشام ، ويخبروا عنها ابناء الغرب. ونحن مدينون بالشهادة المذكورة الى احد صغار مؤرخي القرن الثالث عشر المدعو لامبر من سكان مدينة اردر[1] Lambert d'Ardres ، واردر مدينة صغيرة في شمالي فرنسة كتب لامبر تاريخ حكامها ، ومنهم حاكم يدعى ارنول الشيخ رافق روبير دي فلاندر وجاهد الى جانبه في مواقع نيقية وانطاكية واورشليم. ولم يذكر ريشار الحاج اسمه بين القواد ، وحتى ولا بين الجنود. هذا ما دعا المؤرخ لامبر الى ان يحمل على ريشار حملة عنيفة ويتهمه بالبخل والسفالة وحب المال والملق، ويذكر السبب الذي منع ريشار، في نظره ، عن ذكر ارنول وتمجيد اعماله. وهذا السبب يستحق الذكر على قول لامبر[2]: لما حاصر الافرنج انطاكية نقصت الذخائر واشتد الغلاء وساد الفقر ، حتى ان الجند غدوا حفاة ومنهم شاعرنا ريشار الحاج. فما كان منه الا الذهاب الى مواطنه ارنول الشيخ طالباً منه ان يقدم له هدية « زوج احذية قرمزية لامعة » رآها معه[3]. فابى ارنول تقديم هذه التحفة السنية الى مغنٍّ ذليل. فحينئذٍ انتقم ريشار وامتنع عن ذكر ارنول في ملحمته ، محاولا ان يمدّ بساط النسيان على اعماله اللامعة.

معلومات ملحمة انطاكية

واذا اردنا ان نورد المعلومات الجديدة التي حفظتها لنا ملحمة انطاكية

---

١) Lambert d'Ardres : *Chronicon Ghisnense et Ardense* Edit. Grodefroy-Ménilglaise. Paris, 1855

٢) راجع القطعة التي ذكرناها باصلها اللاتيني في كتابنا : *Les poèmes épiques des Croisades* Paris, 1932, p. 336

٣) يقول الاصل اللاتيني : *duas caligas scarlatinas*

(والتي لا نراها في كتب المؤرخين الآخرين) عن الزحفة الصليبية الاولى، فيمكننا ان نقسم الملحمة الى ثلاثة اقسام :

١ً من خروج الصليبيين من بلادهم الى وصولهم لانطاكية

اضعنا افتتاح ملحمة انطاكية كما كتبها ريشار الحاج، ولم يبقَ لنا الا ما زاده المجدِّد غراندور . وقد وضع مقدمة جديدة ليسبك ملحمة انطاكية مع ملاحم اخرى، وليحثّ شبان الغرب على التجنّد للدفاع عن الاراضي المقدسة. ومقدمة غراندور تبتدئ بوصف المسيح مصلوباً بين اللصّين، وتقول: لما استنجد اللص الصالح بالسيد المسيح اجابه : « اعلم يا بنيّ ان ايام نصري لم تأتِ بعد . وعندما يمضي الف عام على يومنا هــذا، سيسير شعب قوي تقي من بلاده، ويحتلّ هذه الديار بسيفه، وينتقم من الامم التي كانت سبب آلامي . وهذا الشعب المبارك هو الشعب الافرنسي.»

وبعد هذه المقدمة الشعرية المختلَقة، يقصّ الشاعر غراندور على سامعيه سفر بطرس الناسك الى القدس، وزيارته القبر المقدس، ومقابلته بطريرك القدس، وظهور المسيح امامه عندما رقد في كنيسة القبر المقدس، وقد طلب منه يسوع المسيح ان يذهب الى الغرب ويقابل ملوك النصارى ويبلّغهم دنوّ الساعة التي لاجلها ضحّى بنفسه في سبيل البشر، فالكفر سائد في البلاد التي ولد وترعرع وعاش وصُلب ودُفن فيها . وهذه البلاد بلاده . فنهض حالًا بطرس الناسك، ورجع الى فرنسة، وجمع جيوشاً عظيمة وزحف الى الشرق.

طبعاً كل هذه الاخبار حماسية، لا تاريخية . والحقيقة ان بطرس الناسك ما وصل الى القبر المقدس، ولا الى فلسطين، قبل الزحفة الصليبية الاولى . ولم يكن القائد المطاع الذي صوّره بعض المؤرخين، وما برح طول الرحلة رفيقَ عامة الشعب، وصديق الفقراء.

تفتتح ملحمة انطاكية الاصلية عند وصول الصليبيين امام القسطنطينية . وهنا تبتدئ اهميتها التاريخية، وقد بيّن لنا ريشار خيانات امبراطور الروم الكبير، واحتياله على قواد الصليبيين، وقطعه عنهم الطعام . وريشار المؤرّخ الوحيد الذي حفظ لنا الموقف الشريف الذي وقفه احد اقرباء الامبراطور،

المدعو تاتيكيوس، تجاه اللاتينيين، فهو الذي قدّم لهم الذخائر والقوت اليومي، على الرغم من ارادة الكسيس، الى ان عبروا البوسفور. وقد سار برفقتهم على رأس فرقة مؤلفة من جنود الروم. وهذا الدور الذي مثّله تاتيكيوس مهم جداً. اذ لولاه لمات عدد كبير من الجنود جوعاً. وريشار الحاج اكثر جرأة من بقية المؤرخين. فهو الوحيد الذي روى خيانة الكونت اتيان دي بلوا في ضواحي نيقية، حيث هرب امام الترك ورمى علمه على الارض. وفي طرق آسية الصغرى، دوّن ريشار في ملحمته ذكر الخصام الذي وقع بين بغدوين وتنكريد، وذكر اشتراك النساء الافرنجيات في المواقع، وتضحياتهنّ في سبيل ايمانهنّ، والقتال العنيف الذي اشتعل في جسر الحديد بالقرب من انطاكية (بين انطاكية وحارم).

٢ً حصار الصليبيين انطاكية

تتعدّد الادلة على وجود ريشار بين صفوف المقاتلين منذ وصول الجنود الى اسوار انطاكية. وقد وصف لنا المجاعة التي انتشرت في معسكر اللاتينيين بصور وعبارات بليغة، وذكر لنا اسعار الاطعمة التي كان يقتات بها الافرنج، وبين هذه الاطعمة فخذ الحمار وسعره خمسة دنانير. وقصّ علينا الاعمال الباهرة التي قام بها فرسان فرنسة الشمالية، ومنهم الفارس انكران دي سان پول Enguerrand de Saint-Pol، ورنبو كروتن Raimbaut Creton، ورينو پركه Renaud Porquet، وهم من ابناء مقاطعة ريشار. فلولاه لما كنا استطعنا ان نعرف ونقدّر شجاعتهم واقدامهم في الحرب، كما ان ريشار تجرأ وروى بعض الفظائع التي ارتكبها المقاتلون ومنها اكل اللحوم البشرية.

ولكن في ملحمة انطاكية، كما في كتب بقيّة المؤرخين، نقصٌ مهم جداً وهو ان جميعهم سكتوا عن كل ما يتعلق بصاحب انطاكية، واكتفوا بذكر اسمه واسم ولديه اللذين ذهبا لطلب النجدة من ملوك المسلمين وقد فتّشنا لدى مؤرخي الاسلام وجمعنا كل ما حفظوه لنا عن صاحب انطاكية، فاذا هو باغي سيان التركماني. وما استطعنا ان نعثر على تاريخ ولادته، ولا على المحل الذي ولد فيه. واول مرة رأينا له ذكراً في التاريخ هو في السنة ١٠٦٦ اذ كان

يهيّئ الخطبة في قزوين (في فارس) باسم السلطان السلجوقي الب ارسلان ، وقد ساعده تتش بن الب ارسلان على الاستيلاء على انطاكية . ولما مات تتش التحق برضوان ابن تتش وزوّجه بابنته ، وغزا برفقته مدينة الرها وحضنها . وحاول بالاتفاق مع رضوان احتلال دمشق التي كان يملكها دقاق شقيق تتش . ولكن وصول الافرنج حال دون هذه المساعي . ولما حاصر الافرنج انطاكية خاف ياغي سيان من النصارى الذين بها ، فابتدأ باخراج المسلمين وحدهم من انطاكية ، وامرهم بحفر خندق في خارج المدينة . ثم اخرج في اليوم التالي نصارى المدينة لاكمال حفر الخندق ، وما كان معهم مسلم ، فاشتغلوا في الخندق الى العصر ، ولما ارادوا دخول المدينة منعهم وقال لهم : « انطاكية لكم فهبوها لي حتى انظر ما يكون منّا ومن الافرنج .» فقالوا له : « ومن يحفظ اولادنا ونساءنا .» فقال : « انا اخلفكم فيهم .» فرجع النصارى واقاموا في معسكر الافرنج[١] . ولما احتل الصليبيون انطاكية هرب ياغي سيان مع جماعة من اصحابه . وعند وصوله بالقرب من ارمناز ، ومعه خادم من غلمانه ، وقع عن ظهر فرسه . فحمله الخادم واركبه على ظهر الفرس ، فلم يثبت ، وعاد فسقط مرة ثانية . وادركه حينئذٍ الارمن . فهرب الخادم وقتل الارمن ياغي سيان ، وحملوا رأسه الى الافرنج[٢] .

بقيت الظروف التي احاطت احتلال انطاكية سرية . وقد جرى بين بعض قواد الافرنج وحراس اسوار انطاكية تدابير ما عرف احد غايتها . وعقد قواد النصارى اجتماعات ما استطاع المؤرخون ولا الجنود ان يعلموا بها ، وقد قال مؤرخ شاهد الوقائع عياناً : « لا يمكنني ان اقص كل ما فعلناه قبل استيلائنا على انطاكية ولا يستطيع احد، اكليريكياً كان او علمانياً ، ان يكتب او يروي كيف جرت الامور »[٣] . ومع هذا لم تزل رواية ريشار الحاج عن احتلال انطاكية اكمل الروايات وادقها واقربها الى العقل . وسنأتي بما رواه مؤرخ حلب

١) راجع ابن الاثير (طبعة تورنبرغ) ١٠ : ١٨٧
٢) راجع كتابنا عن ملاحم الصليبيين ، ص ١٩٧ و١٩٨
٣) راجع طبعة برجيه ، ص ١٠١

كمال الدين بن العديم، قبل ان نشرع بتحليل رواية ملحمة انطاكية.

قال ابن العديم :« فلما كانت ليلة الخميس اول ليلة من رجب (٣ حزيران ١٠٩٨) واطأ رجل يعرف بالزرّاد من اهل انطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولون حفظه وذلك ان ياغي سيان قد كان صادر هذا الزراد واخذ ماله وغلته فحمله الحنق على ان كاتب بيمند قال : انا في البرج الفلاني وانا اسلم اليك انطاكية ان أمنتني واعطيتني كذا وكذا . فبذل له ما طلب وكتم امره عن باقي الافرنج ... وجمع بيمند القوامص (Comtes) المقدمين عليهم وقال لهم : هذه انطاكية ان فتحناها لمن تكون ؟ فاختلفوا وكل طلبها لنفسه . فقال : الصواب ان يحاصرها كل رجل منا جمعة فمن فتحت في جمعته فهي له فرضوا بذلك . ولما كانت نوبته دلّى لهم الزراد، لعنه الله ، حبلاً فطلعوا من السور وتكاثروا ورفع بعضهم بعضاً وجاوزوا الى الحراس فقتلوهم وتسلم بيمند ابن الاسكرت (Guiscart) وطلع الفرنج في سحرة هذه الليلة الى البلد وصاح الصايح من ناحية الجبل فتوهم ياغي سيان ان القلعة قد اخذت وخرج من البلد . »[1]

هذا ما قاله ابن العديم . وقد صدق في قوله ، عدا ما يتعلق باقتراح بيمند على ان يحاصر انطاكية كل قائد اسبوعاً كاملاً ومن يحتلها باسبوعه تكون له . والحقيقة ان القواد تركوا انطاكية لبيمند خوفاً من ذهاب الوقت سدى، ومن قدوم صاحب الموصل كربوقا الذي كان يهيّئ جنوده لنجدة ياغي سيان. وانما نستخلص من رواية ابن العديم حادثين مهمين : اولهما ان الافرنج استطاعوا ان يفتحوا انطاكية بمساعدة احد المسلمين الذي كان يتولى حراسة برج من ابراج المدينة. والثاني ان هذا « الخائن » كان زراداً وقد خابر الافرنج بواسطة بيمند .

ولكن علاقات الزراد (واسمه فيروز) ببيمند بقيت سرّية الى آخر ساعة. حتى ان اتيان دي بلوا هجر المعسكر ورجع الى بلاده قبل سقوط المدينة بيوم واحد . ولو علم اقتراب النصر لما هرب . وما عرف المؤرخون تاريخ ابتداء

١) مجموعة مؤرخي الصليبيين ، ص : ٥٨١

هذه الملاقات ولا سيما . فمنهم من زعم ان بيمند اسر في احدى غزواته ولدًا صغيرًا كان ابن الزراد فاعاده الى والده . فاراد الوالد ان يثبت معرفته الجميل فساعد الافرنج . ومنهم من زعم بان الزراد رأى في منامه المسيح ، او قديساً من القديسين ، ولما استفاق من غفلته تنصر حالًا والتحق بالافرنج بعد ان سلّمهم البرج . والحقيقة ان الزراد اراد ان ينتقم من ياغي سيان لانه صادر امواله ، كما روى كمال الدين ، وذلك وقت الحصار حيث وقعت مجاعة عظيمة في انطاكية واكره ياغي سيان كل من جمع عنده حبوباً على ان يضعها تحت تصرفه ...

تكلم المؤرخون عن سقوط انطاكية . ولكنهم كتموا من الحوادث اهمها . والفضل لريشار الحاج ان كنا نحفظ الآن بياناً كاملًا عن كل ما جرى في ليلة ٣ حزيران من عام ١٠٩٨ ، حول اسوار هذه المدينة العظيمة[1] : لما الحّ بيمند على الزرّاد طالباً ان يسرع في العمل بموجب وعده ، بلّغ الزراد بيمند ان يجمع عساكره ويفعل كانه سيقودهم الى غزو الاراضي الاسلامية البعيدة عن انطاكية . ويمكنه هكذا ان يخفي نيته الحقيقيّة ، وفي الليل يزحف على انطاكية بغتة . وعيّن له ساعة يكون قد تهيّأ فيها لتسليمهم البلدة . ولما اتى الليل واقترب وقت الميعاد استحضر الزرّاد سلّماً طويلًا وانزله من اعلى البرج الى اسفله ، وحمل بيده مصباحاً ساطعاً ووجّهه نحو الافرنج لكي يروا السلّم جيّدًا . وكان الزرّاد قد سلّمهم احد اولاده وديعةً ...

الا ان الافرنج لم يسرعوا في تسلّق السلم بجرأة ، كما زعم المؤرّخون . في ذلك الظلام الحالك ، وامام ذلك الرجل الذي خان دينه وبلاده ، وتجاه ذاك البرج العالي ، وذلك السلم الذي لم يكفل متانته احد ، ارتجف اشجع قواد الافرنج . فاراد روبير دي فلاندر ان يحوّل الى بيمند شرف الطلوع على السلّم في مقدمة الجيش فاجاب بيمند : « يا اخي ، لا تتعب نفسك ولا تطل شرحك . فانا لا اتسلق السلم ، ولو كان البرج كله من ذهب لاني لا احب ان اعرّض نفسي للهلاك . » وفي الوقت ذاته كان الزرّاد يناديهم قلقاً طالباً منهم

١) يبتدئ ذكر سقوط انطاكية في المخطوط عدد ١٢٥٥٨ ، في الصفحات ٩٠-٩١-٩٢-٩٣

الاقدام على عملهم ، او ارجاع ولده . ولما رأى روبير دي فلاندر الحالة التي وصلوا اليها ، يئس وبكى حزناً . . .

ولم يزل الافرنج مضطربين حائرين ، والوقت يمضي ، ولا يمكن لفرصة كهذه ان تُعاد الى ان وصل گودفروا دي بريون ، فناداه روبير دي فلاندر قائلاً : «افلا ترى ، يا ابن عماه ، الرعب الذي وقع في قلوبنا . وما احد منا يقترب من البرج ؟ » فاجابه : « ما كنت اتوقع ذلك من الابطال . » ثم تضرّع الى الله وطلب عونه واقترب من السلم . ولكن روبير دي فلاندر سبقه وقبض بيده على السلّم وكاد يتسلقه ، لو لم يوقفه صعلوك من سكان مقاطعة الفلاندر اسمه فوشه اليتيم . ولا بأس هنا ان نعرّب قطعة من الشعر الافرنسي القديم كتبها ريشار الحاج في انطاكية بعد سقوط المدينة بايام قليلة ، قال :

ثم ادرك روبير دي فلاندر السلّم وقبض عليه بيديه الاثنتين . . .
حينئذ هجم عليه فوشه اليتيم ، ولفّ ذراعيه حول جوانبه .
— ولد فوشه في الفلاندر حيث يوجد فرسان شجعان ، —
وقال فوشه للكونت روبير : « سيدي اسمع كلامي :
انت ابن القديس جرجس ، وهكذا يدعوك الناس ،
فاذا اضعناك سنخسر خسارةً عظيمة .
اما انا فاذا متّ فلا احد يبكيني ، لانني يتيم ؛
ساطلع على السلم ، سيدي النبيل ، ويسوع يساعدني . »
سمع الكونت روبير كلامه ، ورفع يده عالياً ،
ودمور فوشه على الارض ، ورسم اشارة الصليب ،
وقطع اول درجات السلم .
كان الكونت روبير قد اخذ منه الغضب ،
وطلع فوق درجتين من السلم بسهولة .
ولكن فوشه اليتيم هجم ، وقبض عليه من جانبيه ،
وقال له : « سيدي روبير دي فلاندر ، انت لم تزل باسلًا
ولا يوجد بين القواد البسلاء من هو اكثر شجاعة منك .
وان كان يجب عليك ان تموت ، فسيحصل لنا ضررٌ عظيم .
وعندك ، يا سيدي النبيل ، اراضٍ واسعة يجب عليك ان تتولى حفظها ،
ولك زوجة واولاد حماك الله جميعهم .

اما انا فلا املك الا روحي التي سابذلها ، وليس لي في الدنيا مطامع .
فدعني انسلق قبلك ، باسم روح القدس .
فاذا متّ انا فموتي لا يضرّ احداً وسيكون موتي في خدمة الله .
في الجيش كثيرون افضل مني ، ويستحقون الكرامة اكثر مني . »[1]

وسمح روبير لفوشه ان يتسلق البرج امامه . فاستنجد فوشه بالله ، وبدأ بالطلوع ، ولحقه بقية القواد . وبعد ان بلغ بعضهم البرج ، انقطع السلم ووقع من عليه على الارض فقُتل فارسان . ولكن فوشه ورفاقه قتلوا حرّاس الاسوار وفتحوا ابواب المدينة التي سقطت بعدة وجيزة بايدي الافرنج .

تلك هي رواية ملحمة انطاكية . ولا يمكن لمؤرخ ، من الآن فصاعداً ، ان يقصّ الزحفة الصليبية الاولى بدون ان يستعين بها . لان ريشار الحاج هو الكاتب الوحيد الذي مثل لنا قواد ذلك الجيش العظيم رجالاً مثلنا يتألمون مثلنا ، ويخافون احياناً ، ويحاربون ويبكون ، ويمرضون . واورد لنا الاخبار التي تتعلق باحتلال انطاكية بكاملها ، وبدون تصنع ، وباخلاص لا يمكن لاي رجل كان ان يشكّ به .

٣ حصار كربوقا انطاكية

احتلّ الافرنج انطاكية ووجدوا فيها من الاموال والاقوات ما شفى غليلهم . ولكنهم ما استطاعوا ان يهنأوا بفوزهم . ففي اليوم الخامس من شهر حزيران هاجمهم عدوٌ جديد بشخص صاحب الموصل قوام الدولة كربوقا[2] . عرف كربوقا بوصول الافرنج الى اراضي الشام فجمع عساكره وقطع بهم الفرات ، وسار الى مرج دابق ، وقد اجتمع اليه هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق ، والاتابك طغتكين ، وجناح الدولة صاحب حمص ، وارسلان تاش صاحب سنجار ، وسقمان بن ارتق الذي ملك القدس وخسرها ، ووثاب

---

١) المخطوط ١٢٥٥٨ : الورقة ٩١ ، الصفحة ٢ ، العمود الاول .

٢) رأينا في المخطوطات : كربوغا ، وكربوقا ، وكربقا ، وقربنا . ولا نعلم اي لفظ اصح . راجع ، بخصوص كل ما تركه لنا المؤرخون عن كربوقا ، كتابنا عن ملاحم الصليبيين ص . ٢٠٢-٢٠٤

ابن محمود ومعه جماعة من البدو . ولما بلغهم سقوط انطاكية بيد الافرنج رحلوا جميعهم الى انطاكية وحاصروها.

كان كربوقا من ابطال ملاحم الصليبيين . وقد روت عنه ملحمة انطاكية عدة اخبار لا اصل لها في التاريخ منها محاورته مع امه الساحرة ، وكتابه الى السلطان السلجوقي برقيارق الذي يتعهد فيه ان يكسر الافرنج. ويوجد ملحمة خصوصية محفوظة في المخطوط عدد ١٢٥٦٩ موضوعها اعتناق كربوقا النصرانية.

احدث حصار كربوقا انطاكية تأثيرًا عظيماً في عقلية الصليبيين. واصل سمعة كربوقا بين الافرنج تلك الآلام التي قاسوها مدة حصار انطاكية ، والمجاعة التي فتكت بهم ، وكان ريشار ابلغ معبّر عنها . اشتد الحصار فعادوا يقاسون الاهوال التي قاسوها عندما حاصروا المدينة . ووقع يأس عظيم في جيش النصارى حتى ان عددًا كبيرًا منهم بدأوا يهربون من انطاكية بواسطة حبال كانوا ينصبونها من فوق الاسوار فيفرّون قاصدين البحر حيث يمكنهم ان يعودوا الى بلادهم. وقد اطلق الصليبيون على هؤلاء الجبناء لقب البهالين (جمع بهلوان) *les funambules*

وان ريشار الحاج يقص علينا ، كسائر المؤرخين ، رؤيا الكاهن التقي ، واكتشاف الحربة المقدسة في كنيسة مار بطرس ، وسقوط صاعقة بين صفوف المسلمين ، وبناء الصليبيين سورًا بين المدينة ومعسكر كربوقا ، والحريق الذي اشعله بيمند في انطاكية ، وقد هدم هذا الحريق اكثر من الفي بيت . ولما اشتد الحصار ، واشتدت المجاعة ، اراد الافرنج ان يفاوضوا كربوقا فارسلوا اليه بطرس الناسك مع جندي افرنسي يتكلم العربيّة . وقد اختلف المؤرّخون في ذكر غاية هذه المفاوضة . قال ابن الاثير : « واقام الافرنج بانطاكية بعد ان ملكوها اثني عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه وتقوت الاقويا، بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر . فلما رأوا ذلك ارسلوا الى كربوقا يطلبون منه الامان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم ما طلبوا وقال لا تخرجون الا بالسيف. » ولكن المؤرخين اللاتينيّين زعموا بان غاية بطرس الناسك ورفيقه هي ان يطلب من كربوقا ان يقلع خيامه ويهرب لان انطاكية مدينة نصرانية . واذا لم

يفعل فليقبل موقعة فردية او مبارزة تنحصر في بعض الاشخاص، فالمنتصر منهم يمنح النصر لامته . ويصعب علينا الآن ان نعرف حقيقة مهمة بطرس الناسك. ومما لا شك فيه هو ان كربوقا ظهر امام رسل الافرنج بسفاهة لا تطاق. وقد سببت هذه السفاهة استياء بقيّة امراء الاسلام حتى انهم اتفقوا على تسليمه للافرنج، واضمروا في انفسهم الغدر.

وروى ريشار الحاج وصول بطرس الناسك ورفيقه الى معسكر الاسلام . وذكر مقابلتهما لكربوقا ، ووصف لباسه. ونقل اقواله التي تدل على كبريائه ، وخطاب بطرس الناسك الذي لا يقل عجرفة عن جواب صاحب الموصل . ولما تأكد بطرس فشل مهمته ، رجع الى معسكر الافرنج واطلعهم على جواب كربوقا الذي يريد ان يقاتلهم باسرع حين. وطلب منهم ان يتهيأوا للخروج من المدينة ، وللهجوم النهائي . واراد كربوقا ان يعرف اهميّة جيش الافرنج فارسل اليهم جاسوساً استطاع ان يطّلع على سلاحهم وعددهم . ولما عرف كربوقا استعدادهم ندم على رفضه اقتراح بطرس الناسك ، وحاول سدًى ان يفتح سبيلاً لمفاوضات جديدة . وفي هذه الملحمة يمكنا ان نقتبس من ريشار الحاج معلومات جديدة ما حفظها سواه ، واهمها استشارة بيمند الشعب :

عرفنا ان بيمند غدا صاحب انطاكية . ولما مرض صنجيل اصبح رئيس قواد الجيش . وقبل خروجه من انطاكية اراد ان يأخذ رأي الجند ، فسألهم هل يرغبون حالاً في محاربة كربوقا . فكان جوابهم بالاجماع انهم يفضلون ان يموتوا في القتال على ان يموتوا جوعاً ، والموت جوعاً لا مناص منه ان طالت بهم الحالة التي هم فيها.

ومن المشاهد التي رآها ريشار بعينه وحفظها في كتابه قصة بيير بستير وايفرڤين دي كرايل Pierre Postiaus et Evervins de Creil وهما فارسان من شمالي فرنسة ، قال : لما حصل الضيق العظيم الذي ذكرناه في انطاكية افتقر بيير ولم يبق عند ايفرڤن سوى حماره . فيوماً من الايام بينا كان ايفرڤن في احدى الكنائس منقطعاً للصلاة ، اتى رجال بيير الى سيّدهم وقالوا له : سيدي نحن على وشك ان نموت جوعاً، وها قد مضى علينا سبعة ايام ولم نذق طعم الخبز.

فاجابهم بيير: «اذهبوا، يا اصحابي، واقبضوا على حمار ايفرفن واشووه، فلحمه فاخر جداً وبركة الله عليكم.» فذهبوا وذبحوا الحمار وطبخوا منه غذاء لذيذاً. وشمّ رائحته ايفرفن عندما رجع فالتذ بها، وطلب حصته ليأكلها حالاً، بعد ان هنأ رفاقه بعثورهم على طعام طيب كهذا. ولكنه لما علم بان حماره قُتل وطُبخ وأُكل، اخذه الغضب، فاجابه بيير: «يا اخي، اشتد ضعفنا من الجوع. وغداً سنقاتل الاعداء. فان انتصرنا سنصبح اغنياء. وان انكسرنا فسنُقتل في سبيل الله. وفي الحالتين لا لزوم لحمارك. فعوضاً عن ان نتشاجر، تعالَ نتضرّع ونطلب من الله ان يحفظنا ويحفظ جيشنا ويحقق امانينا.» فتعانق الفارسان واكلا من لحم الحمار. ثم باشرا الصلاة...

وامر القائد الروحي لجيش الصليبيين، وهو الاسقف ادهمار، جيوشه ان يصلّوا ويصوموا ويعترفوا ويتناولوا القربان المقدس، ويتصدقوا على الفقراء مدة ثلاثة ايام. وفي الثامن والعشرين من شهر حزيران شرعوا بالخروج من انطاكية، وقد حمل المطران ادهمار الحربة المقدسة، وقاد بنفسه جيوش صنجيل لان صنجيل بقي في انطاكية ليحافظ على المدينة. وكان خروج الجيوش من احد ابواب المدينة المسمى باب البحر، لانه اقرب الابواب لمرفأ السويدية، وقد خرجوا من انطاكية متفرقين شرذمة وراء شرذمة كما وصفهم ويشار والمؤرخون المسلمون. فلو هاجمهم كربوقا في هذا الوقت لانتصر عليهم، فان انتظاره اياهم ليتكامل عددهم، بالرغم من رأي بقيّة الامراء المسلمين، سبّب انكساره. ولما اجتمع الافرنج خارج المدينة ولى المسلمون هاربين لما كان قد عاملهم به كربوقا من الاهانات والاحتقار، ثم انهزم كربوقا خوفاً. وظن الافرنج ان هربهم حيلة، لما لاحظوا انّ قسماً منهم ظلّ في محله لمقاومتهم، فاعتقدوا ان القسم الآخر سار من جهة البحر لكي يعود ويلتفّ حولهم. فلحقوا بالهاربين وفتكوا بهم، ولم يتركوا منهم في قيد الحياة الا القليل. واخيراً أحرق جنود كربوقا خيامهم وما استطاعوا حرقه من اموالهم واختفوا بين الجبال. فتمّ النصر للافرنج واكتسبوا اموالاً وخياماً وآلات حربيّة لا تحصى. وكانت قلعة انطاكية قد بقيت بين يدي المسلمين، وكان المتولي عليها اسمه احمد بن مروان. فلما عاد

الافرنج الى انطاكية منحوه الامان ومن معه . فسلمهم القلعة يوم الاحد في ٥ تموز من عام ١٠٩٨ م وخرج منها وعامله الصليبيون بلطف وانسانية وانزلوه في قصر من قصور انطاكية ، ثم ارسلوه الى حلب مع شرذمة من رجالهم ليحموه .

هكذا تم النصر للصليبيين وكانت المواقع التي جرت في سبيل انطاكية اعظم مواقع الزحفة الصليبية الاولى ، كما قلنا في اول مقالنا هذا . وقد انتجت آثاراً شعرية عديدة . ومما يستحق الذكر ان هذه الآثار الشعرية تولدت وانتشرت في اراضي سورية ولبنان وفلسطين ، قبل ان تُعرف في الغرب . وقد كان لافرنسيي مملكة القدس اللاتينية ادب يمتاز عن ادب افرنسيي فرنسة . وملحمة انطاكية التي كتبها جندي صليبي في سورية ، تحت غبار الغزوات والحروب ، بين رفاقه الذين كانوا يقاسون الاهوال نظيره ، لهي اول ملحمة بل اول اثر خالد لادب افرنسيي الشرق الذي ازدهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما هي اثر من اصدق واكمل الآثار التاريخية التي حفظت لنا احتلال انطاكية .

حول «القوانين الفردية»

عند الطائفة المارونية في زمن الامراء الشهابيين(*)

نظرة نقدية

بقلم وجيه خوري
مستشار في محكمة الاستئناف والتمييز المختلطة

لا ريب في ان كتاب الاستاذ ابراهيم عواد يعدّ حدثاً في تاريخ التأليف التضائي في لبنان . ومما يزيد في قيمته ان المشتغلين في القانون عندنا اهملوا هذه الناحية من التأليف ، رغم تأثيرها في مقدّرات الشعوب وسياسة الدول ، فضلاً عن الفائدة العلمية التي تنتج منها . وليس من ينكر ان الامة اللبنانية ، وهي في بدء نهضتها ، احوج ما تكون الى الوقوف على تاريخ شرائعها . لان الامم لا تستطيع حكم نفسها بقوانين ارتجلت ارتجالاً . واذا كان من المبادئ المسلّم بها أنّ الاحكام تتغيّر بتغيّر الازمان فذلك لا يمنع ان يكون الوقوف على تطوّر التشريع ضرورياً لجعل القوانين المحدثة اوفق لحاجة الذين وضعت لاجلهم . فالقانون هو عادات وتقاليد اوجب الشارع التقيّد بها . ومما يزيد في اهمية مؤلّف الاستاذ عواد ان جمية الامم تنبهت في المدة الاخيرة الى القوانين التي يخضع لها ، في احوالهم الشخصية ، المسيحيون المقيمون في الدول الواقعة تحت الانتداب ، واخذت في درسها الدرس الكافي . شاء المؤلف ان يحصر تدقيقاته في القوانين الفردية التي كان يعمل بها عند

*) Ibrahim Aouad, Le droit privé des Maronites au temps des Emirs Chihab (1697-1841). Préfaces par Edouard Lambert et Paul Roubier. [*Travaux du Séminaire Oriental d'Etudes Juridiques et Sociales*, t. 6] In-8°, XXVII+309 pp. Paris, Geuthner, 1933.

الطائفة المارونية ، على عهد الامراء الشهابيين ، اي ما بين سنة ١٦٩٧ وسنة ١٨٤١ . فاستهلّ كتابه بوصف الهيكل الاجتماعي اللبناني ، او بالاحرى الجبلي، في ذلك العهد . فوصف اولاً حالة الاكليروس الذي مثّل دوراً مهماً في تاريخ لبنان ، منذ عهد مؤسس الطائفة المارونية ، وهو راهب هرب مع اتباعه في القرن الخامس من الاضطهاد فنزلوا على ضفاف العاصي . فتألفت منهم اول نواة للطائفة المارونية . ومن ذلك التاريخ كان لخلفائه البطاركة القدح المعلّى ، سواء في الامور الروحية او الزمنية .

وقد اراد الاستاذ عواد ان يظهر الحالة الخصوصية التي كان يتمتع بها البطريرك الماروني الذي كانت طائفته تعتبره لا كرئيسها الروحي فحسب بل « كملكها الزمني ، وقائد جيوشها ، وحاكمها الاعلى » فكان يستمد سلطته من التقاليد القديمة ، ومن رضى الشعب ، وليس من سلطة اخرى مدنية . فلهذا السبب اخذ الاتراك في القرن التاسع عشر يعملون للقضاء على هذه السلطة ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

وكان يعاون البطريرك المطارنة ، وقد اختلف عددهم باختلاف الظروف . ثم يجيء بعد المطارنة الكهنة من علمانيين وقانونيين .

ولا شك ان للرهبانيات المارونية اليد الطولى في المحافظة على المعتقدات الدينية ، وعلى انتشار الموارنة حتى خارج حدودهم ، بعد ان كانوا محصورين في لبنان الشمالي . لانه كثيراً ما كان الامراء والمشايخ ، الذين كانوا يتمتعون في ذلك العهد بثروات طائلة ، يهبون الاراضي للرهبانيات لكي تبني الاديرة . وكانوا يرمون من وراء ذلك الى تعزيز الزراعة ، والزيادة في الضرائب والمداخيل . وهكذا نشأت القرى وسارت في طريق الازدهار شوطاً بعيداً . فيرى القارئ لو بقيت هذه السياسة متبعة في عهدنا ، ايّ مجال قد يكون فسح امام اللبنانيين للتوسع والانتشار ، بعد ان انضمت الى لبنان اراضٍ واسعة مخصبة يمكن ان تدر عليهم الخيرات . وقد بلغ نفوذ رجال الدين اقصاه حتى اصبحوا يناوئون الامراء والمشايخ في اعمالهم الاستبدادية ، ويقفون في وجه الاعداء الغرباء .

والى جانب الاكليروس ، نرى في ادارة شؤون البلاد ، الزعماء الاقطاعيين .

وقد تحدث الاستاذ عواد عن تدرجهم فذكر شيئاً عن سطوة الامراء والمقدمين ، وعن تطوّر الحياة الاقطاعية تطوّراً جعلها كثيرة الشبه بالاقطاعية الغربية . وقد يكون السبب في هذا التشابه احتكاك اللبنانيين بالحملات الصليبية واقتباسهم تلك الانظمة . ولكن لا بد ان يكون اللبنانيون قد اخذوا قسماً من عاداتهم عن القبائل العربية التي يتزعم الشيوخ فيها ويستقلّون بالسلطة والنفوذ . ولكن الاستاذ عواد لم يتعرض لهذا الافتراض الاخير.

وقد كانت الاسر اللبنانية القوية تجمع حولها رهطاً من الانصار مؤلفاً من القرويين الذين كانوا يعيشون مما تجود به تلك العائلات عليهم . فاصبح زعيم العائلة سيداً مطلقاً في المقاطعة التي يملكها . واخذ الامير الكبير فيما بعد يوزّع الرتب والالقاب على مستحقيها ، وخصوصاً على الذين كانوا يقومون له بخدمة ما . وقد درس المؤلف حالة هؤلاء النبلاء وامتيازاتهم درساً وافياً.

عمل رجال الدين والاشراف يداً واحدة على خدمة لبنان واسعاده. فكانوا منذ ابتداء تاريخ المارونية يجتمعون معاً لانتخاب البطريرك ، كما ان المطارنة كانوا يشتركون بانتخاب الامير . وبالنتيجة يعتقد الاستاذ عواد ان الاكليروس والاقطاعية كانا الاساس الذي قام عليه استقلال لبنان . ولم يستطع الاجانب بسط نفوذهم على هذه البلاد الا بعد ان ضعفت شوكة رجال الدين والاقطاعيين ، وتلهّوا بمصالحهم الخاصة عن الانصراف الى خدمة البلاد والاهتمام بالشؤون الوطنية العامة.

ويأتي ، بعد طبقة النبلاء ورجال الدين ، الشعب ، وهو ينقسم الى ثلاث فئات: الملاكين ، والشركاء ، والارقاء .

اما الفئة الاولى فلم يكن لها ، على عهد الامراء الشهابيين ، الا اثر ضئيل في الجبل اللبناني ولم تبدأ بالظهور الا في اواخر العهد الاقطاعي . فتألفت من القرويين الذين ابتاعوا الاراضي من المشايخ والامراء ، من اللبنانيين الذين اثروا في المهجر والشبان الذين تلقوا علومهم في المعاهد الاجنبية . ولكن هذه الطبقة التي ورثت ثروة الاقطاعيين ، لم ترث منهم الغيرة على الوطن ولم تحسن تنظيم الدفاع عن مصالح البلاد.

اما طبقة الشركاء فهي لا تزال موجودة حتى اليوم . كانت مؤلفة من القرويين الذين انصرفوا الى العناية بالارض وحراثتها . وكان المشايخ والامراء يعهدون اليهم بالسهر على املاكهم ، ويعطونهم جزءاً من الربع متفقاً عليه . وقد استطاع هؤلاء الشركاء بفضل صبرهم وسهرهم على المهمة الموكولة اليهم ، وبفضل الانظمة التي كان يتمتع بها لبنان ، ان يستدرّوا الخيرات من تلك الاراضي الجبلية القاحلة .

اما طبقة الارقاء فلم يعرفها لبنان في عهد من عهوده . ولم يمكن للبحاثة ان يعثر على واحد منهم الا بين خدم الامراء ، وقد جلبوا من الخارج .

هذه صورة ملخصة عن الهيكل الاجتماعي ، كما رسمتها ريشة الاستاذ عواد في عهد الامراء الشهابيين .

***

وقد تطرق المؤلف اثناء تحدثه عن امتيازات رجال الدين الى البحث عن النظم التشريعية والقضائية في ذلك العهد .

كانت الاديان في لبنان ، كما كانت في بلاد العالم عامة في مستهل تكوينها ، مستقى الشرائع . وكانت القوانين على عهد الامراء الشهابيين متعددة بتعدد الطوائف ، اذ كانت كل ملة تسنّ شرائعها وتطبقها . وكان للطوائف المسيحية قضاة مستقلون هم المطارنة .

يعتقد الاستاذ عواد ان هذا الامتياز في الاصل هو منحة من الفاتح محمد الثاني الذي عين ، حين احتلال القسطنطينية سنة ١٤٠٣ ، البطريرك جناديوس قاضياً اعلى يفصل في جميع القضايا المدنية والدينية بين افراد الطائفة اليونانية الشرقية . ثم اعطيت الصلاحية نفسها للبطاركة الارمن الثلاثة ، ثم لرؤساء الطوائف المسيحية جميعها .

وبالواقع ان البطريرك الماروني لم يستمد سلطته يوماً من الباب العالي . فانه كان يحكم مع المطارنة حسب العرف والعادة الموروثة من اقدم الازمان . ان الكنيسة المسيحية في بدء نشأتها كانت تحتم على المسيحيين ان يحكموا في قضاياهم الزمنية المطارنة . ثم على اثر ظهور مرسوم ميلان ، سنة ٣١٣ ،

اعترف امبراطرة الرومان بصلاحية المطارنة لفصل الخلافات ، على ان تنفذ السلطة الزمنية احكامهم ، وقد استمرت هذه العادة في لبنان اذ كان المتقاضون ينتخبون قضاتهم بين الكهنة ، ويقوم الامراء بتنفيذ المقررات التي يتخذها هؤلاء الاخيرون . وفي المؤلفات عن القوانين الرومانية السورية ذكر لهذه العادة القديمة . والشريعة التي كانت متبعة في لبنان مستقاة اكثرها من المؤلف المدعو الكتاب السوري - الروماني (*Livre Syro-Romain*) كما سنبين ذلك فيما بعد[1] .

وبين الشهود العديدين على هذه المسألة اورد الاستاذ عواد شاهدين زارا لبنان : الاول اوجين روجه في السنة ١٦٤٦ ، والثاني دومنيكو لافي بولونياز في السنة ١٦٧٨ ، وهما يؤكدان ان المارونيين كانوا يحتكمون الى الاكليروس في قضاياهم الزمنية . ثم ان هنالك احكاماً عديدة اصدرتها السلطات الكنائسية . فوجود قسم منها حتى اليوم ، ما خلا الوثائق التاريخية العديدة المثبتة بكتاب الاستاذ عواد ، ينطق بصحة ما ذهبنا اليه .

ومما يجب الانتباه اليه ان هنالك تبايناً بين القضاء الكنائسي في لبنان وبين القضاء نفسه في اوربة اثناء القرون الوسطى . فالمحاكم الكنائسية في اوربة كانت موجودة مع المحاكم المدنية . وصلاحيتها كانت منحصرة خصوصاً في القضايا التي لها علاقة بالدين ، والقوانين التي كانت تطبقها هي القوانين الكنائسية . واحكامها كانت تستأنف الى رومة . اما في لبنان فقد كان المطارنة يطبقون تارة التقاليد المحلية ، وطوراً الشرع الاسلامي ، وحيناً

---

١) ولكن الاستاذ اسد رستم لا يرى هذا الرأي . فانه علق على درس نشرناه في هذه المجلة (٣١ [١٩٣٣] ٨١-٩١، ٢٦٢-٢٧٠ : ٢٥٧-٢٦٦) عن القضاء في العهد الاقطاعي ملاحظة يشتم منها انه يشك بان للكهنة سلطة قضائية ما . وهو يورد اسماء بعض قضاة المسلمين في بيروت ، ويذكر احكاماً لهم اصدروها بين متقاضين مسيحيين . ولكن هذا القول لا ينافي ما ذهبنا اليه ، فقد كان يحق للمتقاضين المسيحيين ان ينتخبوا قضاتهم . فكان بوسعهم اذاً ان يحتكموا الى القاضي المسلم . وقد اشار الاب زيادة في كتابه « القانون الماروني » الى حكم اصدره القاصد الرسولي ، وهو من تبعة اجنبية ، وامر الامير بشير بتنفيذه .

القانون الروماني .

***

ما هي القوانين التي كانت تطبق في لبنان ؟

ان الاستاذ عواد بحث هذا الامر واورد شواهد هي دون ريب اهم ما جاء في مؤلفه . ولكن المؤلف لم يشر الى امر له اهميته وهو انه لم يكن في لبنان قوانين مكتوبة وصادرة عن السلطة التشريعية . فكتب القانون لم تكن الا عبارة عن تقاليد مكتوبة .

كان الموارنة في اوائل القرن الثامن عشر يطبقون الشريعة المسيحية والتقاليد المحلية ، ويلجأون احياناً الى الشريعة الاسلامية . وكانت القوانين المسيحية مجموعة في كتاب « مختصر القوانين » وكتاب « الفتاوي » لمؤلفهما المطران عبدالله قرألي وهما اللذان اتفق الاكليروس الماروني ، في السنة ١٧٤٤ ، على الاستناد اليهما في احكامه .

اما المآخذ التي استقى منها هذا الحبر مؤلفيه فهي اولاً كتاب « الهدى » الذي عرّبه عن السريانية الاسقف داود الماروني في السنة ١٠٥٩ ، وقد وقف المؤلف اكثر كتابه على درس الامور الدينية . ويتألف آخر فصوله من المراسيم التي اصدرها الاباطرة قسطنطين وتيودور وليون . فمن هذه المراسيم يتألف كتاب الشريعة السورية الرومانية (*Livre Syro-Romain*) وفي عهد المماليك ، اي بعد ذلك بقرنين ، اراد الموارنة ان يملأوا الفراغ في قوانينهم فاخذوا شيئاً عن مؤلف ابن العسّال ، وهو مشترع قبطي عاش في القرن الثالث عشر بعد المسيح .

والاستاذ عواد يرى ان المبادئ التي يرتكز عليها هؤلاء المؤلفون مستقاة من التوراة والاناجيل واعمال الرسل والقانون الروماني .

ومن الثابت ان المارونيين ، قبل عهد الامير بشير الثاني ، اي قبل اواخر القرن الثامن عشر ، كانوا يطبقون شرائعهم الخاصة الا في بعض الحالات الاستثنائية . حتى اتى الامير بشير فكان اول من اصدر امره الى القضاة بان يطبقوا الشريعة الاسلامية في المواضع التي لا تخالف المعتقدات المسيحية والتقاليد

المحلية . فمن الخطاء اذن ، والحالة هذه ، ان يقال انه لا يمكن تحوير قوانين الاحوال الشخصية المعمول بها الآن عند المسيحيين خوفاً من ان يكون في ذلك التعديل تجاوز على تقاليد وعوائد عريقة في القدم .

***

هذه لمحة موجزة عما جاء في القسم الاول من كتاب الاستاذ عواد . وقد صوّر فيه المجتمع الماروني في ذلك العهد . وانتقل في القسم الثاني الى البحث عن القوانين العائلية وكل ما يتعلق بالاحوال الشخصية عند الموارنة .

يبدأ المؤلف درسه بالتحدث عن العائلة ، فيقول ان عقد الزواج وما يتبعه كان مبنياً على التعاليم الكاثوليكية . فقد كان على الزوج ، وهو راس العائلة ، ان يحافظ على امرأته ، وكان على هذه الاخيرة ان تقدم له الطاعة . وهذا العقد هو ابدي لا يمكن حله ، الى ما هنالك من القواعد الدينية .

ويشير الاستاذ عواد الى عادة كانت شائعة لدى الموارنة ، كما كانت شائعة لدى الشعوب الشرقية جميعها ، وهي الزواج بالشراء . وهذه العادة نظمت قواعدها لا التقاليد المحلية فحسب بل القوانين المكتوبة ايضاً . وقد جعل احد البطاركة ثمن المرأة ثلاثة وثلاثين غرشاً . كما ان الزواج بالمهر ، وهو الهدية التي كان يقدمها الزوج قبل العقد ، كان كثير الشيوع عند الموارنة .

اما قانون الميراث ففيه ميزة على باقي القوانين اذ ان المورث كان يستطيع ان يهب كل تركته لواحد من ورثته . للاب مثلاً ان يخصص احد اولاده بجميع امواله او ان يحرمه . وكان التمثيل في مسائل الارث مقبولاً ، يعني ان وارث الميت يقوم مقامه في الارث . اما البنات فلم يكن لهن الحق في ان يرثن والديهن في حال وجود اخوة لهن .

واذاً ، فان الموارنة كانوا يطبقون ، في مسائل الارث ، شرائع خاصة بهم . ويذكر المؤلف ، تأييداً لنظريته ، مستندات ذات اهمية كبيرة استطاع بفضل درسه وتنقيبه ان يعثر عليها ويجلي رموزها .

اما الوصية فقد افرد لها فصلاً خاصاً . فان القانون الماروني ، خلافاً للشريعة الاسلامية ، يأذن للموصي بان يتصرف بجزء كبير من تركته ، وكثيراً ما

يعطيه الحق بان يتصرف بكل امواله على الصورة التي يراها ، كما بينا ذلك آنفاً . ولكن كان عليه ان يخصص في وصيته مبالغ لاقامة الصلوات عن نفسه فان خلت الوصية من هذا التخصيص لا تصبح لذلك ملغاة ، ولكن يحق للكاهن ان يأخذ مبلغاً من التركة في السبيل المذكور.

فيمكن القول اذن ان القانون الصادر في ١٧ اذار سنة ١٩٢٩ الذي اعطى ابناء الطوائف المسيحية الحق بان يتصرفوا بوصيتهم بجزء كبير من ثروتهم ، قد اعاد لهم الحقوق التي تمتعوا بها طويلاً.

وقد بحث الاستاذ عواد مطولاً في القوانين التي اكتفينا بالاشارة اليها لان هذا القسم الفني من كتابه لا يفيد الا رجال القانون.

***

وبعد ان يفرغ المؤلف من القسم الثاني ينتقل الى القسم الاخير المتعلق بالاراضي.

كانت حقوق الملكية في جميع العهود مقدسة لدى اللبنانيين عموماً . وظلوا مدة طويلة لا مورد لهم غير منتوجات ارضهم التي كانوا متعلقين بها تعلقهم بكنائسهم واستقلالهم . واللبناني فلاح بطبيعته . لذلك رأيناه بقي بمعزل عن التطور الذي حدث في المدن بين المثال ، واستطاع بذلك ان يحافظ ، في جميع الادوار ، على قوميته وايمانه واخلاقه . ان اللبنانيين تمكنوا ، بالصبر والمثابرة ، من ان يبعثوا الخصب في جبالهم الوعرة واراضيهم القاحلة حتى ان جهودهم لفتت انظار الغرباء الذين زاروا هذه البلاد فاظهروا التقدير والاعجاب.

فالفلاح اذن هو الذي كوّن لبنان . واذا كانت الزراعة لم تجلب له الثروة فقد سهّلت له سبل الحياة فعاش براحة ، وابعدت عنه البؤس والفاقة التي تتألم منها الآن الشعوب التي تمتعت بثروة كبيرة بفضل صناعاتها . ولعل اصدق دليل على النعمة التي توافرت للبنانيين بانصرافهم الى الزراعة هذه القرى العديدة المنتشرة على سفوح الجبال والمنازل الجميلة التي تزينها . والفضل بذلك يعود الى النظام الحرّ الذي تمتع به لبنان ، وقد حاولنا ان نعطي فكرة صحيحة عن الاحكام العادلة التي كان يصدرها الزعماء الاقطاعيون ورؤساء الدين الذين لم

يكونوا قضاة وحكاماً فقط بل حراساً على راحة الرعية ، وهم بحاجة اليهما لاستغلال ارضهم وللدفاع عنها.

ثم ان القوانين العقارية كانت غاية في العدل والمساواة اذ انها اعطت اللبناني الحق المطلق بان يتمتع بممتلكاته. فكانت قوانين الملكية في لبنان مثلها عند الرومانيين وهي المعمول بها حتى الآن في اقدم الدول رقياً . فهكذا ترى القواعد واحدة فيما يتعلق باكتساب الحقوق العينية كالعقود ومرور الزمن الخ . اما الضرائب فلم يكن اللبناني يدفع منها الا الضريبة المسماة « الميري » نسبة الى « المير » او الامير ، لان هذا كان يجبيها ثم يرسلها الى الامير الاكبر في دير القمر ، بعد ان يحتفظ بجزء منها . ولم تكن هذه الضريبة شديدة الا في ظروف نادرة . وبالاجمال فقد كانت الحالة في لبنان غير ما هي عليه في سورية وسواها من مقاطعات تركية.

لقد اصبحنا في عهد انتهجت فيه الامم سياسة شديدة للمحافظة على كيانها، اذ اخذت تسعى لانماء اقتصادياتها والاستغناء عن كل ما هو اجنبي ، فاوجدت العراقيل الجمركية في سبيل المصنوعات الاجنبية ، ومنعت تسربها اليها ، واوصدت ابوابها بوجه المهاجرين . اما اللبنانيون الذين كانوا قد اوجدوا لهم في الزمان الاخير باباً للارتزاق من المهاجرة واصابوا فيها كثيراً من النجاح ، فلم يعد باستطاعتهم الا ان يعتمدوا على الزراعة كاسلافهم . وذلك نظراً لطبيعة ارضهم الخالية من المناجم ، ولمركز البلاد الجغرافي والسياسي . ومن ذلك يتضح اهمية قانون الاراضي في هذه البلاد . لقد اوضحنا الفرق الذي كان موجوداً بين لبنان والبلاد المجاورة بفضل النظام الحر الذي كان يتمتع به لبنان ، وبفضل تقدم قوانين الاراضي فيه . اما الآن فقد اصبح لدينا قانون للملكية من احدث القوانين ، فعسى ان نرى التقدم ظاهراً ، من الجهة الاقتصادية ، لان الزراعة بحاجة الى التشجيع.

يشير الاستاذ عواد في فصل اخير ، تحت عنوان « نظرة عامة الى الموجبات في القانون الماروني » الى ان الموارنة كانوا يطبقون القانون البيزنطي فيما يتعلق بالعقود والموجبات . اما المطران قرألي فيبحث هذا الموضوع بثلاثة عشر فصلاً

من كتابه.

***

هذه لمحة سريعة في كتاب الاستاذ عواد الذي تترك مطالعته في النفس اثرًا حيًا اشار اليه الاستاذ روبيه كاتب المقدّمة فقال :

« انه لعميق الاثر مشهد التاريخ اللبناني ، وتتابع الحياة في الشعب الماروني المستند الى ايمانه والى عاداته ، وسط الاجتياحات المتتابعة . »

ولا يخفى ان الاستاذ عواد لا يكتب مؤرّخاً وحقوقياً فحسب ، بل يكتب مؤمناً ووطنياً مخلصاً ، وهو شديد الاعتقاد بتفوّق التقاليد التي نظّمت، مدّةً طويلةً ، علاقات اللبنانيين بعضهم ببعض . فاعانتهم على مجابهة العواصف التي هبّت مرّات عديدة على هذه البلاد . وكان الفضل في هذه المقاومة لذاك التنظيم الذي كان يتمتّع به لبنان . هو تنظيم قليل التشعّبات ، بسيط المظهر ، الا انه تنظيم قومي كامل . فقد كان للبنانيين ادارتهم الخاصة ، وجيشهم الصغير ، وشرائعهم ، وقضاتهم . وكان لهم فوق كل ذلك غاية سامية ومثل اعلى : ان يحافظوا بكل قواهم على استقلالهم الذاتي ، وعلى ايمانهم الحيّ المتوارث .

على ان المؤرخ المخلص لا يسعه الا ان يتحقق تضعضع هذا التنظيم بل اضطراب هذا المثل الاعلى نفسه على اثر ملاشاة الامارة اللبنانية واخضاع اللبنانيين لنظام السنة ١٨٦٤ الواضع هذه البلاد تحت حماية الدول السبع . فكان ان اللبنانيين اخذوا ينصرفون شيئاً فشيئاً عن الاهتمام بشؤونهم العامة . ومما ساعد هذا الاهمال، فعجّل في انحطاط البلاد ، أنه لم يقم شيء من المؤسسات او التنظيمات فيحلّ محلّ النظام الاقطاعي في الدفاع عن المصالح اللبنانية . فلم نرَ من ثمّ في هذا المجال الا جهودًا فردية متفرقة كانت اضعف من ان تحدث تأثيرًا عامًا .

وان من مزايا كتاب الاستاذ عواد ان يذكّر الكثيرين من مواطنينا اللبنانيين بهذه العاطفة القومية التي نراها تتضاءل شيئاً فشيئاً في اذهان الكثيرين محجوبةً بغيوم الماضي . فقد توفّق ، بالاستناد الى تلك الوثائق الوافرة الغنيّة التي

جمعها ، الى احياء هذا الماضي . وهي صفات جديرة بالذكر تنبي المطالع بعض النقائص البسيطة . من ذلك ان الاستاذ عواد لا يهتمّ كثيراً باظهار اصول تلك المؤسسات والعادات ، وكذلك يكاد يُهمل بعض الاحيان ذكر تأثيرها في الحياة الاجتماعية والشعبية . ومع اننا نقر بحقّه في حصر موضوعه بدرس القوانين المارونية الخاصة ، فقد كان يودّنا ان نرى مشهداً عاماً للحالة السياسية والاجتماعية في لبنان . وهي البيئة التي عاش فيها الموارنة . وليس من يشكّ في ان قوانين سائر الطوائف العائشة في لبنان وعاداتها تأثرت بالقوانين المارونية وأثرت فيها . ولقد كان من المفيد ان نرى مظاهر هذا التأثير المتبادل.

ثم ان الاستاذ عوّاد تبسّط في درس القوانين الفردية المتعلّقة بالاحوال الشخصية ، فاوجز في ذكر الموجبات.

على ان كل هذه الملاحظات تتناول الكتاب في ما لو كان موضوعه اوسع ومجاله افسح ، وهو ما لم يقصده الاستاذ عواد في درسه الحاضر . الا اننا اوردناها مؤملين ان المؤلف يهتم بها في درس اوسع يشمل به كل مظاهر الحق الماروني فيتمّ ما بدأ به احسن تمام.

هذا ، واسلوب الكتاب السهل واضح بسيط ، لا يُمعن فيه المطالع حتى يشعر بعاطفة حلّلها الاستاذ ادوار لامبر في مقدمته فنسبها الى « تلك الانشودة السامية في حب الدين والمدنية ، بل في حب جميع المظاهر المأثورة عن الجدود ، البادية في حياة وتفكير المجتمع القومي الذي ينتسب اليه المؤلف ، انشودة حب تتجايل في جميع تضاعيف الكتاب من اوله الى آخره . »

ارتفاع الصليب

ميمر منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم
٣١٣-٣٨٧م

نشره لاول مرّة ، وعلّق عليه
الخوري بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

٦

البحث الثالث

دلائل نسبته (تابع)

٣ – أسلوبه

وان قارنّا بين أسلوب صاحب هذا الميمر وآرائه ومعلوماته عن الصليب المقدس واسلوب القديس كيرلس الاورشليمي وافكاره ومعلوماته ، وجدناها مطابقة متوافقة.

لهذا القديس اربع وعشرون عظة مشهورة باسمه لا ينكرها عليه أحد[1] ، القاها في بدء اسقفيته في سنة ٣٤٨ . منها ثماني عشرة عُرفت باسم كتكيزيس *Catecheses* , Κατηχήσεις اي عظات الموعوظين ، استهلّها بمقدمة *Procatechesis* القاها في كنيسة القيامة ، في صوم سنة ٣٤٨ ، على الاحداث المقدّمين لاقتبال اسرار العماد والتثبيت والمناولة في فصح تلك السنة . وفي الاسبوع الذي جاء بعد هذا العيد ، شرح لهم الاسرار في خمس عظات أخرى دُعيت مستاجوجيكا *mystagogica* اي شرح الاسرار القاها في معبد القبر المقدس . فلننظر اولاً في اسلوبه .

في المثل الفرنسوي: « الانشاء هو الانسان » ، اعني ان الانشاء ينبئك عن

---

١) راجع معجم اللاهوت لفاكان مج ٣ ، ع ٢٥٢٣ ، ٢٥٢٤

صاحبه مثلاً لك طريقته وعقليته ومزاجه . فمن راجع هذه العظات وطالع الميمر عرف فيه القديس كيرلس بطريقته وميزاته وعيوبه .

في المقالة التي نشرها الاب لباشله اليسوعي في معجم اللاهوت الكاثوليكي[١] في ترجمة القديس كيرلس الاورشليمي لخص فيها تعاليم هذا القديس في عظاته ، وقال في صدرها[٢] ، ان انشاءه ملائم لسامعيه الاحداث ، بسيط واضح ، مهما سمت افكاره ، خالٍ من الاصطلاحات اللاهوتية ، ذو لهجة ودّية ابوية ممتزجة بنبرة حماسية تساعد على الاقتناع . وفي جانب هذه المزايا بعض العيوب . فانك تعثر بعبارات غير كاملة المعنى ، وبفقرات طويلة خارجة عن الموضوع الاصلي . ناهيك عن مراجعات مملّة ونصوص من الكتاب المقدس مشوّهة أو مختلفة عن الاصل . والسبب في ذلك ان القديس لم يكتب عظاته بنفسه بل كان يلقيها بداهةً كيفما اتفق له . وجاء بعده من التقطها واختصرها وكتبها لنا كما علقت بذهنه وعلى قدر معرفته وقوّة ادراكه .

هذا الوصف يطابق تماماً انشاء الميمر واسلوبه . وان فات بعض تعابيره الوضوح ، الذي يشير اليه صاحب المقالة ، فالذنب على المترجم الغشيم او على النصّ الذي وقع في يده . وقد اشرنا سابقاً الى الحكايات الطويلة التي تتخلل الميمر وتشغل القسم الاكبر منه . وسنعود اليها في كلامنا عن نظامه .

ومن خصائص القديس كيرلس انه يشيّد عظاته وبراهينه على نصوص الكتاب المقدس . ولعله اول من ابتدع استهلال الخطاب بآية كتابية وتعليقه برمته بها ، وتقسيمه على حسب معانيها . لانه « كان يعتبر الكتاب المقدس اساس كل التعليم الكنسي »[٣] وكان يفنّد به اقوال المراطقة واليهود والسامريين[٤] .

وسترى ان الميمر كله قائم على آيتي المزامير « ملك الرب فلتتهلّل الامم . ملك الرب فلتغضب الامم . »[٥] وهما تمثلان قسمي العظة يشرحهما ويدعم كل

---

١) فاكان مج ٣ ، ع ٢٥٢٢-٢٥٧٧ ٢) ع ٢٥٢٤

٣) ع ٢٥٤٣ ٤) ع ٢٥٢٨

٥) ص ١٨٧، ١٨٨، ١٩٤

اقواله بآيات ونصوص الكتاب المقدس وببعض البراهين العقلية والتقليدية.

٤ – افكاره

ان اخبار عجائب الصليب واخفائه واكتشافه تستغرق تقريباً الميمر كله، ولا تترك فيه مجالًا للارشاد، اي الوعظ بحصر المعنى، سوى القليل، مما لا يتجاوز خمس صفحات. فالآراء اللاهوتية فيه نادرة. ومن جهة اخرى لم يتسنَّ لنا مقابلتها مع عظات القديس كيرلس المذكورة، تاركين لغيرنا هذه المهمة، التي تجرنا الى ابعد مما نقصد من هذه التوطئة. فاكتفينا بمقابلتها مع الخلاصة التي نشرها الاب لباشله المذكور آنفاً. فوجدنا بين المصدرين شبهاً كبيرًا، وعثرنا في بعضهما على الفكر نفسه مكررًا حرفياً. واليك بعض ما لاحظناه من هذا التوارد :

الروح القدس – استهلّ صاحب الميمر كلامه بقوله، في صفحة ١٨٨: «نحن نسأل الفارقليط روح الحق الواحد مع الاب والابن. والأب والابن واحد معه. الثالوث المقدس. وثالوثاً من اجل ان فيه ثلاثة اسماء الاب والابن والروح القدس.»

وجاء في عظة القديس كيرلس السادسة عشرة رقم ٤، ع ٩٢١ ضد المرقيانيين[١]: «نعلق رجاءنا على الاب والابن والروح القدس. نحن لا نقول ثلاثة الهة بل الهًا واحدًا مع الابن والروح القدس». وفي العظة ١٧ رقم ٥ ع ٩٧٣ يقول[٢]: «ان الروح القدس واحد مع الاب والابن في كل شيء، في الاعمال الخارجية وفي الحياة الداخلية.» ويلاحظ الاب لباشله ان القديس قال هذا القول قبل ظهور بدعة المكدونيين وقبل ان يكتب القديس اثناسيوس الاسكندري رسالته الشهيرة الى سرابيون.

الكاهن والقربان – تتردد في الميمر مرارًا فكرة «المسيح الكاهن والقربان. وكبش اسحاق الذي هو اله بالحقيقة. والخروف الذي بلا عيب

١) معجم ڤاكان مج ٣، ع ٢٥٤٦

٢) ڤاكان ع ٢٥٤٧

المذبوح على صليب الجلجلة ، ودمه ملطخ على ابواب قلوبنا وشفاهنا .» الصفحات ٢١٣ و٢١٤ و٢٤٨ و٢٤٩ و٢٥٠ .

وهي نفس فكرة القديس كيرلس يوردها في العظات العاشرة رقم ٤ و١٤ والحادية عشرة رقم ١ و٤ ع ٦٦٤ و٦٨٠ و٦٩٢. وخاصة في الرابعة والعشرين رقم ٩ ، التي يشرح فيها نظام القداس ومعانيه ، فيسمي المسيح «الضحية المذبوحة على الجلجلة» و«الكاهن والذبيحة» وما الى ذلك من التعابير الحائمة حول المعنى ذاته[1] .

في ولادتي المسيح — في صفحة ٢١٩ من الميمر يقول عن السيد المسيح : «ولدته مريم العذراء من الروح القدس». وفي صفحة ١٩٢ :« ولدته من غير زرعة بشر» وفي صفحة ١٨٧ :«هو ابن داود بالجسد» وفي صفحة ٢٥٠ يورد هكذا فقرة قانون الايمان الخاصة بالتجسد :«تجسد من مريم العذراء وولد في العالم» ليميز هذا التجسد عن ولادته الاولى الازلية من الاب.

وفي العظتين الحادية عشرة رقم ٥ والثانية عشرة رقم ٤ ع ٦٩٦ و٧٢٩ نقرأ «هو ابن الله وابن داوود. وُلِد المرة الاولى من الاب والثانية من العذراء.» وخلاف ذلك مما يقرب من هذا التعبير ويرجع الى المعنى نفسه[2].

الاله المنظور — في صفحة ١٩٣ من الميمر يقول عن السيد المخاص :« انه لبس الجسد واتحد به لاهوته ليخلص عبيده . وعمل الاشياء كلها مثلنا ما عدا الخطيئة . . . والاله متحد به داخله وخارجه اما القول داخل الجسد من اجل انه ليس يعاين احدٌ مجده وهو لابس اللاهوت فيحيا . واما القول خارج الجسد فمن اجل انهم كانوا ينظرونه يصنع الشفاء.»

هذا القول وارد بمعناه في عدة فقرات من عظات القديس كيرلس ، لاسيما في عظته عن المخلع رقم ٦ حيث يقول :«الكلمة اتخذ جسماً معرضاً مثلنا للانفعالات . ولكن ليس هنا مسيحان بل مسيح واحد بطبيعتين.» وفي العظة ٤ رقم ٩ ع ٤٦٦ يقول :«هو انسان من الجهة المنظورة واله من الجهة الغير المنظورة . انسان يأكل مثلنا وينام . واله يسير على المياه ويشبع خمسة آلاف

١) فاكان ع ٢٥٢٩، ٢٥٤٨، ٢٥٧٥ ٢) ع فاكان ٢٥٥٠

رجل بخمس خبزات »[1] . ولاحظ ان القديس كيرلس لفظ هذه العظات في اواسط القرن الرابع،قبل ظهور بدعة اليعاقبة في القرن السادس.

عبودية الخطية وأسر الجحيم – يقول القديس كيرلس في عظته الثالثة رقم ١ ع ٧٧٢ : « ان يسوع المسيح قد اعتنق كل الذين كانوا مأسورين تحت نير الخطية[2] » . وفي العظة الرابعة رقم ١١ و١٤ والرابع عشرة رقم ١٩ و٢٤ ع ٤٦٩ و٨٤٩ و٨٥٧ يتكلم عن نزوله الى الجحيم وعتقه الابرار الذين كانوا مسجونين فيه واصطحابهم معه في صعوده منتصرًا الى السماء.[2]

هذه الفكرة قد توسع فيها صاحب الميمر في الصفحات ١٨٩–١٩٢ ، حيث مثّل الشيطان بالخارجي الذي سطا على كورة الملك واسر غلمانه وحاشيته . فخرج اليه الملك وغلبه ونزل الى الجحيم واسترد خواصه المأسورين فيه وأتى بهم الى محل ملكه . . .هذا كان في الزمان الذي تملكت فيه الخطيئة في العالم. . . وكان الناس تحت رق عبوديتها »

سلاح الجسد – واظهر من ذلك ما قاله القديس كيرلس في عظته الثانية عشرة رقم ١٣– ١٥ ع ٧٤٠ « ان المسيح قد استعمل لخلاصنا نفس الاسلحة التي استخدمها الشيطان ليغلبنا.»[4]

هذه الفكرة واردة تقريباً حرفياً في الميمر في صفحة ١٩٢ منه حيث يقول عن السيد المسيح: « انه لبس السلاح الذي حارب به ذلك الخارجي ، اعني به هذا الجسد الذي اتحد به مع اللاهوت. »

٥ – معلوماته عن الصليب

ان تخصيص القديس كيرلس ميمرًا بكامله لاكتشاف القبر والصليب ليس بالامر المستغرب ، بل المستغرب ان لا يكون له في هذا الموضوع اكثر من هذا الميمر . فهو اسقف اورشليم المدينة التي تدسها الفادي الالهي بموته على الصليب فيها ودفنه وقيامته وعجائبه .

١) فاكان ع ٢٥٥٠
٢) فاكان ع ٢٥٥٤
٣) فاكان ع ٢٥٥٦
٤) فاكان ع ٢٥٥٠

وقد كانت حفلة ارتفاع الصليب بلغت في عهد القديس أوج عزها واصبحت مظهراً لاكبر عيد في النصرانية ، تتقاطر الجماهير الغفيرة لحضورهـا في كرسي هذا الاسقف وتنحني عشرات الالوف من الرؤوس تحت يديه الرافعتين الذخيرة الثمينة ، هاتفين لدى رؤيته بكل حماستهم : كيرياليسون ! فكيف لا يتحمس القديس لهذا المظهر الكبير من مظاهر النصرانية في مدينته وامام عينيه وتحت رئاسته ! وهل يصحّ في ذلك اليوم العظيم ان لا يكلم الجموع عن الصليب الذي جمعهم من اقطار المسكونة لتكريمه فيخبرهم عن امجاده وآياته وظهوره وبناء كنيسته !

فلا غرو اذا قدّم لنا هذا القديس اقدم شهادة عن وجود الصليب وهي الواردة في رسالته الى قسطنطس الملك حيث يصرّح ان الصليب وُجد في عهد والده قسطنطين ، اي قبل وفاته سنة ٣٣٧.

وفي عظاته الملقاة على الموعوظين في صوم سنة ٣٤٧ معلومات اخرى عن الصليب وعبادته استنتج منها الاب لكلير وغيره ان هذه العبادة قديمة [١]. ففي العظة الرابعة يقول عن المسيح « انه صُلب حقيقة لاجل خطايانا . وان عنّ لك ان تنكر ذلك فهذا المكان الشهير يكذّبك.» [٢] وفي العظة عينها يقول [٣] « ان ذخائر الصليب قد توزعت الآن في كل اقطار العالم » . وفي العاشرة يصرح [٤]: « للمسيح شهادات كثيرة ... منها هذا الصليب المقدس الذي نراه بيننا حتى اليوم ، والذي يتهافت المؤمنون على اقتسام ذخائره وقد ملأوا منها الارض كلها.»

---

١) كابرول مج ٣ ع ٢١٢٢ حاشية ١٠

٢) كابرول مج ٣ ع ٢١٢٥. راجع النص في مجموعة مين للآباء اليونان مج ٣٣ عظة ٤ رقم ٦ و ١٠ ع ٤٦٧ حيث ينبهنا ان القديس يقصد المانويين القائلين بان القيرواني صلب بدلاً من المسيح .

٣) مين ع ٤٧٠

٤) رقم ١٩

١٥ – نظام الميمر ونصر بحاز وعصره

١ – النظام

ان نظام الميمر، او بالاحرى عدم نظامه، دليل على انه غير مصطنع. هب ان الملفق شطّ عن البرنامج الذي اختطه نفسه، فما الداعي لاعتذاره وابقاء العيب الذي اعتذر عنه في الميمر. فقد كان احرى به ان يحذفه او يصلحه، قبل ان ينشر ميمره.

وقد سبق لنا القول ان القديس كيرلس كثيرًا ما ينسى نفسه وموضوعه، فيتوغل في حكايات جاء بها عرضًا على سبيل المثل فتصبح اصلًا. واليك برنامج الميمر واستدراكاته.

اولًا: البرنامج – قلنا ان الميمر معلّق حكمه على آيتي المزامير «ملك الرب فلتتهلل الامم. وملك الرب فلتغضب الامم.» غضب اليهود من حسنات المسيح: في سيرته الصالحة وعجائبه مدة حياته وبعد موته، فاضطهدوه وقتلوه وردموا قبره. وغضبت الوثنية من حسنات النصرانية ونجاحها فاعلن الاباطرة عليها الاضطهاد من اول نشأتها حتى قسطنطين. وعاد يوليانوس فجدّده.

ومن جهة اخرى ملك المسيح وانتصر على الشيطان وخلص اتباعه من اسر الخطية وعاقب اليهود بخراب اورشليم وهيكلهم وتشتيت شملهم واذلالهم. واهلك ايضًا اعداءه الملوك: كديوقلسيانوس معلن الاضطهاد العام على المسيحية، ومكسيميانوس دازا، ذابح الفرقة المسيحية من الجيش ومواصل الاضطهاد، ويوليانوس، الذي جحد المسيح وحاول قتل ديانته، فاماته شرّ ميتة. بيد انه نصر قسطنطين محبه بعلامة صليبه، فبحث عن خشبته، واجبر اليهود على رفع الردم عنها وبنى لها كنيسة القيامة الفخمة واغلق هياكل الاصنام وحوّل بعضها الى كنائس أغدق عليها الاموال.

ثانيًا: الاستدراكات – هذا برنامج الميمر العام، يظهر لنا منظمًا بخطوطه العامة متماسكًا باجزائه، لولا الفقرات والحكايات الطويلة التي تصبح جوهرًا في

الميمر مع انها عرض . وترى الواعظ ينتبه كل مرة لشطط فيعتذر للسامعين ويعود الى الموضوع ليخرج منه في اول فرصة منقاداً لمخيّلته القوية. ثم لا يلبث ان يفطن لخطإه فيصلحه برجوعه الى البرنامج الاصلي.

ففي صفحة ٢٠٨ بعد ان أسهب في قصة اسحق السامري وعادات تطهير اليهود، وهو يقصد في الحقيقة سرد اعجوبة تحلية ماء البئر في حقل يندوم بصليب رماه فيه الانبا واكس، نسمعه يقول للحاضرين: «هوذا قد صرنا كمن نسي القول.» ثم يعود ليخبر عن اعتماد اسحق السامري فيحكي كيف انه دخل كنيسة القيامة وطلب مقابلته ويشغل بقصته الصفحتين ٢٠٩ و٢١٠ ثم يستدرك بقوله: «والآن نكمل تأويل الكلام من اجل المكتوب في المزامير.» ويخوض في الشرح عن تجسد المسيح وفوائد صلبه وصليبه الروحية. وفيما هو في ذلك يلاحظ تكاثر الجموع في الكنيسة وذهاب الوقت فيستدرك قائلًا صفحة ٢١٢: «ولكن، يا احبابي، انا ارى الوقت قد اقترب والجمع الذي اتوا الى العيد يريدوا يسمعوا تمام القول الذي قاله الرب لموسى ان يعيدوا ثلاث دفعات في السنة.» فيشبه حينئذ عيد ارتفاع الصليب بعيد اليهود ويفسّر لسامعيه ان الدم الملطخ على اعتاب منازل اليهود هو رمز لدم المسيح الذبيحة والكاهن (صفحة ٢١٢-٢١٦) الذي قام من الموت «ولما صعد الى ابيه صرخوا الملائكة قايلين: ملك الرب على جميع الامم. الله القدوس جلس على كرسيه».

وهكذا يرجع الى الآية ويشرح كيفية انتصار المسيح بظهوره لقسطنطين، الذي انهى الاضطهاد وبحث عن الصليب فوجده وبنى له كنيسة عظيمة. حتى اذا جاء على آخر القصة وجد ان الميمر قد استغرق الوقت المعدّ لحفلتي العماد والمناولة، اللتين كانتا تسبقان حفلة ارتفاع الصليب، فلا يرى بدًّا من اختصارهما وادماجهما الواحدة بالاخرى. فيختم عظته قائلًا في صفحة ٢٤٨: «والآن فلنكفّ ها هنا عن القول ولنقرب الى الاهتمام بالمعمودية المقدسة والقربان دفعة واحدة لان الوقت اقترب. وايضاً من اجل تعب الذين اتوا الينا اليوم الى هذا الموضع المقدس.»

فهل يعقل ان تكون مصطنعة ملفقة كل هذه الاستدراكات البديهية

والمواقف الطبيعية والخاطبات الموجهة الى السامعين والملاحظات على تكاثر الجمع رويدًا رويدًا وازدحامه فضلًا عن الاشارات المتكررة الى حفلة المپوزيس وكنيسة القيامة والقبر المقدس ؟ هــذا غير معقول وغير مقبول . لان التصنع يوجب التفكر والتروي ويؤذن لصاحبه في تنظيم ما يلفقه كما يشاء ، لاتساع الوقت معه ، وليس ما يحوجه الى ابقاء شطحاته على عيبها والاعتذار عنها ، بدلًا من اصلاحها قبل تقديم خطابه الى الجمهور .

٢ — عصره

حان لنا ان نتساءل في اي عصر وُضع هذا الميمر ، او بعبارة اخرى هل عصر القديس كيرلس ملائم له ؟

لقد اجبنا على نصف هذا السؤال حين سردنا النصوص الدالة على انه أُلقي في كنيسة القيامة باورشليم بجانب القبر المقدس على جمهور مسيحي فلسطيني مجتمع للاحتفال بعيد ارتفاع الصليب وتدشين الكنائس . واذا التقطنا بقية نصوص الميمر المشيرة الى العصر والحقبة واليوم الذي أُلقي فيه ، عرفنا انه قد أُلقي قبل الفتح الاسلامي ، في عهد اشتداد بدعة آريوس وانخفاض شأن بدعة مركلوس الانقيري ، قبل ظهور بدعتي النساطرة واليعاقبة ، بعد مصرع يوليانوس الجاحد ، في الحقبة التي اخذت فيها حفلات الصليب التقدم على عيد التدشين ، والتي شاعت فيها رواية علاقة القديسة هيلانة باكتشاف القبر والصليب ، في عيد ارتفاع الصليب ، قبيل حفلة تكريمه .

اولًا : قبل الفتح الاسلامي . تدل نصوص الميمر على انه أُلقي في اورشليم قبل وقوعها في ايدي الاسلام : فقد ورد في صفحة ٢٢٥ ما نصه : « الصليب مقوي الملوك يحيي الله ويجعلوه لهم تاج . وهو على القضيب الذي في ايديهم . والصليب مصوّر في بيوت الملوك ويجعلوه في الطريق على العُمد وزوايا البيوت ليكون لهم قوة ولجميع العابرين . والصليب مكتوب على السفن ينجيهم من الرياح والعواصف الردية [٢٢٦] وهو مكتوب على تاجات الملوك ليعطيهم النعمة .

الصليب المقدس هو قدام كل كتابة تكتب[1] . يا لهذه القوة والفخر الذي للنصارى . لانهم ليس يصنعون شي من امور العالم الا بالصليب ... الصليب هو على موايد المومنين ويبارك طعامهم هو في ولائمهم.» كل هذا الكلام لا ينطبق على بلد يحكمه الاسلام .

ثانياً: البدع — رأيت الحملة التي حملها صاحب الميمر على الاريوسيين الدالة على استفحال امرهم. ولا يخفى ان قسطنطين مال اليها وتنصر في آخر حياته من اوسابيوس اسقف نيقوميدية الاريوسي . واخذ ابنه قسطنس يناصرها[1] ونفى القديس كيرلس واساقفة كثيرين غيره لمقاومتهم لها. ولما عاد القديس بعد وفاة قسطنس سنة ٣٦٢ استصدر الاريوسيون سنة ٣٦٧ امراً من والنتينيانوس باعادته الى المنفى، كما سبق القول. ولا يخفى ان هذه البدعة قد تلاشى شأنها او ضعف كثيراً في اواسط القرن الخامس . ولم يبعد محل لخوف الواعظ منها ولا داعٍ لحملته الشعواء المذكورة.

ومعلوم ان بدعة نسطور قامت ضدها في اوائل القرن الخامس واشتد ساعدها طول هذا القرن فقاومتها بدعة ديوسقوروس، التي انتشرت بين السريان في القرن السادس وحاربها تلاميذ مار مارون واتباعه الموارنة . فان تمعّنا في كلام صاحب الميمر نراه يعني بالهراطقة الاريوسيين فقط. ففي صفحة ٢٤٩ بعد ان تكلم عن الوحش الذي ظاهره كالحمل وهو بالحقيقة فهد هائل قال : « هكذا الهراطقة الغير المؤمنين ... ان كان المسيح انسان وليس هو الله يا ايها الهرطيقي ... فلا تذكروا يا احباي كلام الهراطقة ولا تدخلوا كنايسهم لان ليس لهم كنايس.» وقد اثبتنا في ما سبق انه يقصد بالهراطقة هؤلاء الاريوسيين . فالميمر قد القي قبل اواسط القرن الخامس.

ومما يزيد رأينا رجوحاً اهمال صاحب الميمر ذكر بدعتي نسطور وديوسقوروس

---

١) لا بد انه يعني الكتابات الرسمية لان العصر لم يكن فيه تقريباً سوى هذه الكتابات او الرسائل ذات الاهمية الاولى.

١) فاكان مج ٣ ع ٢٥٢٦

مع ان كلامه يثبت انه ليس من القائلين بها ، كما بيّنا سابقاً ، وهذا ايضاً من دلائل القاء الميمر قبل اوائل القرن الخامس.

وفي الميمر ، خاصة في صدره ، نصوص تتكرر تكرراً مدهشاً لاثبات ملكوت المسيح سردناها اعلاه واستنتجنا منها ان الواعظ يقصد بدعة مركلوس الانقيري وتلاميذه . انما ليس هناك تحمس ضدهم ولا تحذير المؤمنين منهم ، كما كان شأنه ضد الاريوسيين ، مما يدل على ان البدعة قاربت التلاشي او تلاشت من عهد قريب ، انما بقي ذكرها في ذهنه وذهن السامعين.

وقد سبق القول ان مركلوس حُرم في مجمع صور سنة ٣٣٥ وتوفي في سنة ٣٧٤ . ولم تعش بدعته بعده كثيراً ، مما يوصلنا الى الربع الاخير من القرن الرابع.

ثالثاً : بعد مصرع يوليانس سنة ٣٦٣ -- من البراهين التي يقدمها صاحب الميمر على عظمة الصليب وألوهية المصلوب قوله في صفحة ٢٢٦ انه أهلك الملوك اعداءه ونصر محبيه . وهو يقتصر في ذلك على ذكر الامبراطرة الاربعة الاخيرين : ذيوقليسيانس (٢٨٤-٣٠٥) ومكسيميانوس دازا (٣٠٧-٣١٤) وقسطنطين الملك (٣٠٦-٣٣٧) وابن اخته يوليانوس الجاحد. (٣٦١-٣٦٣)

والواعظ يصف مصرع هذا الاخير وصفاً رائعاً مقروناً بتفاصيل ونعوت تدلّ على تأثير هذا المصرع في مخيلته وعلى رغبته في التأثير على سامعيه بقوله في صفحتي ٢٢٦ و٢٢٧: «واهلك يوليانس الكافر لانه لم يتبعه وخلّاه خلفه . وذلك المنافق الكافر صار قرن الهلاك امام الرجال ورذل الانبياء الاطهار . وكان يثلبهم دفوع كثيرة . ويعترف فيهم الذي لا يجب فتحه فيه[1] ولسانه المقطوع ويقول اني قرأتهم وفهمتهم . بالحقيقة يا احباي انه لم يقرأهم ولم يفهمهم . ولو انه عرف معناهم ومجد فخر النصارى فلم يكن يموت موت شرير . لانه صار عدو الصليب في حياته فلاجل هذا الماء الذي كانت الخنازير تشبع منه مات ذلك المنافق وهو عطشان منه[2] . وشرب من بول الخيل ومن بوله هو

١) العبارة مضطربة ، كما ترى ، وغامضة.
٢) لاحظ ان الانشاء بعيد جداً عن العربية وقريب جداً من اسلوب اللغة اليونانية .

ايضاً . ولم يكن جسده يستحق ان يجعل في قبر ولا كفن لجسده من اجل انه صار عدوًّا للصليب » . فالميمر اذًا القي بعد سنة ٣٦٣ وبمدة لا تزيد عن ٢٥ سنة من هذا التاريخ .

اما اهماله ذكر قسطنس خافه المتوفى سنة ٣٦٢ ، واهمال الثناء عليه فيسهل تفسيره بان المذكور نفى القديس كيرلس مرتين من اورشليم .

وانك لا تجد في الميمر كله اشارة الى اسم او حادثة وقعت بعد هذا التاريخ بكثير .

رابعاً : حفلات الصليب — اذا جمعنا اقوال الخطيب في العيد الذي يلقي فيه ميمره رأيناه يسميه عيد الصليب ويفضله على كل الاعياد ، حتى عيد الفصح ، مع اشارته الى عيد تدشين الكنيسة الذي حلّ محله وما زال له بعض الاهمية انما ثانوية بالنسبة اليه . ولا يخفى ان قسطنطين جعل لعيد تدشين الكنائس سنة ٣٣٥ المقام الاول بين الاعياد ، وعيّن له ثمانية ايام وعممه بصفة رسمية على كل الامبراطورية . ولم تكن حفلة اعطاء البركة بالصليب سوى مظهر من مظاهر عيد التدشين فأصبحت في الربع الاخير من القرن الرابع في المقام الاول حتى اضطر الآباء ، كما تشهد اثيريا ، ان يضموا العيدين معاً « ليزيدوا في بهجة العيد » وفي الحقيقة انهم خافوا من ذهاب شأن العيد الاصلي . وسنورد عناوين الميمر الدالة على ان القديس كيرلس « قاله لعيد الصليب » ، فضلًا عما جاء في صدره صفحة ١٨٧ « وهذا المجمع الذي اجتمع اليوم في هذا الموضع من كل كورة لكي يعاينوا مجده ويقبلوه اعني الصليب المخلص » . وغير ذلك من النصوص التي سنلتقي بها عند مطالعة هذا الميمر ، والتي تؤيد قولنا .

أضف الى ذلك ان العصر الذي وُضع فيه الميمر كان لا يزال عصر التقاليد ، سابقاً لعصر المؤلفات التاريخية المنتشرة . فصاحب الميمر لا يستند الى مؤرخي اوائل القرن الخامس ، وهم كثر ، بل الى التقاليد في ما يرجع الى القرون الثلاثة الاولى ، والى معلوماته الشخصية في حوادث القرن الرابع . وهذا يدل على ان الميمر وضع قبل اوائل القرن الخامس ، وان صاحبه شهد عياناً كثيراً من الحوادث التاريخية التي يوردها .

ففي صفحة ٢١٨ ، في صدد اعجوبة شفاء اكلاوبا واقامة ابنه ، التي جرت في اواسط او اواخر القرن الاول ، يقول : « حدثنا بها ساداتنا الاولين » . وفي صفحة ٢١٧ لما روى حكاية اخفاء الصلبان الثلاثة في مغارة القبر ، قال : « هوذا أبيّن لكم القول كما عرّفنا نيقوديموس ويوسف الرامي » . وفي صفحة ٢٢٧ يستند ايضاً الى يوسف الرامي وبرنياس في حكاية ردم اليهود لقبر المسيح بزبالاتهم . وفي صفحة ٢٢٧ يعود الى القول : « ان اليهود ارادوا ان يحرقوا[1] خشبة الصليب ، كما عرّفنا يوسف وبرنباوس العبرانيين . »

نعم ان هذه التقاليد قديمة من القرن الاول ، انما يدلّ الكلام عنها على ان راويها من العصور القريبة منها . بينما نراه لا يستند مطلقاً الى تاريخ مكتوب ، كتاريخ اوسابيوس ، في رواية حوادث القرن الرابع : كرؤيا قسطنطين واكتشاف القبر والصليب وبناء الكنائس والملكة هيلانة ويهوذا واساقفة اورشليم واسماء علماء اليهود ، والملوك ديوقليانس ومكسيميانوس وقسطنطين ويوليانوس . وحفلات ارتفاع الصليب وتدشين الكنائس وهرطقتي الاريوسيين ومركاوس الانقيري ، وبقية الحوادث التي جرت في هذا القرن ووصفها او ذكرها او اشار اليها عرضاً او ضمناً . الا ترى في كل ذلك دليلاً على انه كان معاصراً لها او قريباً جداً من عهدها ؟

خامساً — لقد مرّ بك ان رواية علاقة القديسة هيلانة والاسقف يهوذا باكتشاف القبر والصليب قد نشأت في اواسط القرن الرابع وشاعت في اواخره في العالم المسيحي شرقاً وغرباً . فرددها القديسان امبروسيوس في رثائه لتودوسيوس الملك سنة ٣٩٥ ، والقديس يوحنا فم الذهب في عظته الخامسة والثمانين ، التي القاها بين سنتي ٣٩٠ و٣٩٥ . وقد صرّح هاذان القديسان ان الملكة هيلانة عرفت الصليب الحقيقي بين الصلبان الثلاثة من الكتابة الباقية عليه[2] . خلافاً للاساطير السريانيّة والمؤرخين الذين جاؤوا بعدهما في اوائل القرن الخامس .

---

١) في الاصل : يخفوا

٢) كابرول مج ٣ ق ٢ ع ٣١٣٥

فروفينوس المؤرخ (سنة ٤٠٢)، وعنه اخذ المؤرخ سقراط، يصرح ان الصليب الحقيقي عُرف من وضعه على امرأة مشرفة على الموت استجلبها القديس مكاريوس اسقف اورشليم، فبنت له الملكة كنيسة. وعلى قول القديس بولينوس من نولي (سنة ٤٠٢) وعنه اخذ سولبيس ساويرس، ان الملكة هي التي عرفت مكان الصليب من اجوبة اليهود والمسيحيين فامرت بالحفر في الجلجلة. ولما ظهرت الصلبان الثلاثة استجلبت، هي لا مكاريوس، جثة مائت ووضعت عليها الصلبان الثلاثة فقام من لمس الصليب الحقيقي.[1]

ولما كانت رواية الميمر، المنسوب الى القديس كيرلس، توافق من جهة رأي القديسين امبروسيوس ويوحنا فم الذهب (٣٩٠–٣٩٥)، ومؤداه ان الصليب عرف من الكتابة الباقية عليه، وتخالف من جهة اخرى آراء مؤرخي اوائل القرن الخامس المذكورين اعلاه، فتنسب التحري عن مكان الصليب الى الملك قسطنطين لا الى والدته، وتصرح انه عُرف من الكتابة الباقية عليه لا من اعجوبة شفاء مُدنفة او اقامة ميت، فالميمر اذاً أُلقي قبل اوائل القرن الخامس. ولعله سبق بقليل السنين العشر الاخيرة من القرن الرابع.

ولما كان الميمر قد ذكر مصرع يوليانس سنة ٣٦٣، والقديس كيرلس قد عاد من النفي الى كرسيه اورشليم سنة ٣٦٢ ومكث فيها حتى سنة ٣٦٧، التي نفي فيها للمرة الثانية، فقد لفظ هذا الميمر بين سنتي ٣٦٣ و٣٦٧، او بين سنة ٣٧٨، التي رجع فيها من منفاه للمرة الاخيرة، وسنة ٣٨٧ التي توفي فيها.

اما اليوم الذي القاه فيه فمعروف من العبارات التي اثبتناها آنفاً، والتي تصرح انه لفظه في عيد ارتفاع الصليب الواقع في الرابع عشر من شهر ايلول، قبيل حفلتي العماد والمناولة السابقتين لحفلة تكريم الصليب، اي الهيوزيس، كما شرحنا سابقاً.

٣ – تصريحاته

كل ما سبق يحملنا على تصديق ما صرّح به الميمر، تصريحاً لا يدع

١) كابرول ع ٢١٢٥ و٢١٢٦

مجالًا للشك ، بان قائله هو القديس كيرلس الاورشليمي.

واليك اولًا عناوين المخطوطات الثلاث.

جاء في مخطوطة بكركي في صفحة ١٨٧ :

« نبتدى نكتب ميامر من قول القديس كيريللوس ريس اساقفة اورشليم قاله لعيد الصليب الكريم بركة صلاته تحفظنا امين »

وهاك نص عنوان مخطوطة حلب :

« نبتدى بعون الله وحسن توفيقه نقرأ ميمر للقديس كيرللوس رييس اساقفة اورشليم قاله ايضًا لعيد الصليب الناير المقدس . ايضًا من اجل الكلام الذي قاله الله لموسى اصنع لي العيد ثلث دفعات في السنة . وايضًا منجل (من اجل) الصليب النور الذي ظهر في مقبرة سيدنا يسوع المسيح . وايضًا من اجل اسحاق الساري الذي هم‍ده . قال هذا الميمر في كنيسة القيامة في سبع عشر من شهر ايلول (١ المبارك وكان شعب الارثذوكسين مجتمعين ليسجدوا الصليب المقدس بسلام الرب امين »

واليك ايضًا عنوان ميمر المتحف القبطي :

« ظهور الصليب »

« ميمر قاله الاب القديس كيرلص اسقف مدينة اورشليم من اجل كرامة الصليب المجيد وظهوره على يد الملك البار قسطنطين وامه هيلانه : — يقرى ذلك في اليوم السابع عشر من شهر توت المبارك بسلامة من الرب آمين »

ثانياً ان القديس كيرلس يخطب في الميمر بصيغة المتكلم ويشير الى نفسه مرارًا : ففي صفحة ٢٠٨ يخبرنا ان المؤمنين بنوا كنيسة على جب حقل يندوم ويردف قائلًا :« ودعوا اسمها كنيسة الصليب وعرَّفوا مسكنتي انا الحقير كيرللوس فكرّزتها ونظرتُ انا ايضًا بعيني تلك الآية التي ظهرت اسفل الجب»

وفي صفحة ٢٠٥ عندما يخبر عن الانبا واكس صانع اعجوبة تحلية الماء ، لا يُلقب نفسه بانبا ولا بقديس ولا باسقف ، بل يكتفي بلقب « الاب كيرلس » ، بينا نراه ينفح الاب واكس بهذه الالقاب الثلاثة . واليك النص : « وقال الانبا واكس الى اسحاق:« قوم وامضي الى اورشليم واسأل عن كنيسة

١) نظن ان الاصل ١٧ توت الموافق للرابع عشر من ايلول . راجع فنان وايل : مج ٢ صفحة ٢٠٤ . ويظهر ان الناسخ ترجم شهر توت بايلول تاركًا تاريخ اليوم على ما كان .

القيامة فادخل اليها فانك تجد الاب كيرلس هو هناك . وهو يعرّفك عن طريق الخلاص.» ويتابع القديس كيرلس حكايته قائلاً: «انا دخل (اسحاق السامري) اورشليم سأل عن مسكنتي انا كيرلوس . فعرّفه رجل شماس اني في كنيسة الصليب اصنع العيد ... وللوقت جاء ذلك الشماس وعرّفني وامرته ان يأتي به اليّ ، ثم قلت له : امضي وأتِ بهذا الحروف الضال الذي وجدته ليسمع كلام الله . واذا ما ظهرت توبته لكل احد نحن نعمده. والآن نكمّل تأويل الكلام ...»

وفي صفحة ٢٤٠ يذكر ايضاً نفسه بتواضع بين اساقفة اورشليم فيقول : «الانبا يوسف رييس اساقفة اورشليم الذي هو الرابع عشر الذي جلس بعد التلاميذ في الختان. وانا ايضاً كيرلس انا واحد منهم لان المسيح رحمني ودخل بي الى البيعة وبشرت باسمه القدوس.»

١٦ — خلاصة الردود والبراهين

ان الاعتراضات التي قد تقوم ضد صحة نسبة الميمر الى القديس كيرلس ، اسقف اورشليم ، لمخالفته مؤرخي عصره في رواية رؤيا قسطنطين وعلاقة والدته هيلانة باكتشاف القبر والصليب ، لا تنفي حتماً هذه النسبة . اولاً لان هذه الاعتراضات غير قائمة على أساس راهن . ثانياً لان القديس كيرلس لم يكن معاصراً لهذه الحوادث . ثالثاً لاننا نجد في الميمر دلائل ترجح نسبته اليه رجوعاً يقرب من اليقين.

١ً رؤيا قسطنطين

يستند المعارضون الى روايتي لاكتنس واوسابيوس اللذين يتفقان على ان الرؤيا حصلت في اثناء زحف قسطنطين على مكسنس ، عاهل رومية ، لا على الفرس ، كما جاء في الميمر . انما لاكتنس ينفرد بتعيين جسر ميلفيوس بضواحي رومية ، مكاناً للرؤيا ، والميمر يعينه في تل رامح شمال سورية . بيد ان لاكتنس لا يذكر مستنده ، فيحملنا على الشك في روايته ؛ لان الاشاعات

عن ظهور آلة لقسطنطين قبيل كل معركة كانت في عصره كثيرة متناقضة.

اما اوسابيوس فلم يعيّن للرؤيا مكاناً وناقض نفسه اولاً بزعمه ان الرؤيا ظهرت للملك وللجيش كله، وانها بقيت سرّاً افضى به اليه قسطنطين في آخر حياته. ثانياً يخلط بين هذه الرؤيا وبين حلم ظهر فيه السيد المسيح ليلاً للملك مع علامة الصليب. ثالثاً يخلط ايضاً بين هذه العلامة والشارة التي اتخذها قسطنطين من حرفي اسم يسوع المسيح الاولين.

فهل يجوز نقض وثيقتنا برواية مضطربة متناقضة؟

فضلاً عن ان رواية ميمرنا غير متناقضة، لا بل هي موفّقة بين تناقض المؤرخين. لانها تذكر ان قسطنطين ليلة المعركة رأى، وهو يتفرّس مفكراً في السماء، صليباً لامعاً مع كتابة «بهذه العلامة تنتصر». وفي الغد شاهد، وهو يطارد الاعداء، ملائكة يلاحقونهم بسيوف مسلولة.

واذا استثنينا تعيين المكان فالميمر يتفق وروايات المؤرخين في ان الرؤيا ظهرت لقسطنطين في اول عهده بالملك قبل ان يتنصر. ويوافقهم ايضاً في كلامه عن اصل هذا الملك واولاده وسلفائه وخلفائه وبقية حوادث عصره. وهو لا يذكر حادثة جرت بعد عهد القديس كيرلس الاورشليمي.

وهب ان الميمر اخطأ في هذه الرواية، فخطأه لا ينفي نسبته الى هذا القديس، لانه لم يكن معاصراً للرؤيا. فقد ولد في سنة ٣١٣، وعلى الارجح في سنة ٣١٥، والرؤيا ظهرت في سنة ٣١٢.

٢ً الملكة هيلانة

كذلك الاعتراضات القائمة حول علاقة الملكة هيلانة باكتشاف القبر والصليب وبناء كنيسة القيامة، والموجهة ضد الاساطير السريانية، لا تنفي نسبة الميمر الى القديس كيرلس الاورشليمي. اولاً لان هذه الاعتراضات تستند فقط الى سكوت أوسابيوس وقسطنطين الملك. ثانياً لانها متناقضة. ثالثاً لان رواية الميمر تختلف عن رواية الاساطير المذكورة. رابعاً لان ظهور القبر والصليب كان في عهد حداثة هذا القديس او في غيابه عن اورشليم. خامساً

لان هذه الرواية تتفق مع اشاعات عصره.

١ً – السكوت

لا يصح اتخاذ السكوت عن امر قاعدة لنفيه . فسكوت قسطنطين الملك في رسالته الى مكاريوس اسقف اورشليم ، وسكوت اوسابيوس في ترجمته لقسطنطين عن علاقة والدته بهذا الاكتشاف لا ينفيها ، الا اذا أثبت الاب لكلير ، لسان حال المعارضين ، ان الرسالة ذكرت كل ما له علاقة بالقبر والصليب والآثار المقدسة ؛ وان تاريخ اوسابيوس ذكر كل ما له علاقة بالملك ووالدته ومعاصريه ، وانه وصل الينا صحيحاً كاملاً . والاب لكلير واغلب جهابذة النقد يعترفون بان ترجمة اوسابيوس عبارة عن قصيدة نظمها في مديحه فاغرق في الاطراء كمعاصريه . فلا غروَ اذا اهمل ما ليس للملك فضل فيه ، او نسبه اليه بغير حق.

فضلاً عن ان قسطنطين يتكلم في رسالته عن اكتشاف « علامة الآلام » وهذا التعبير لا يصح اطلاقه على قبر المسيح بل على « اداة الآلام » ، اي على صليبه والمسامير . لان السيد المسيح لم يتألم في القبر . ثم زد على ذلك ان قسطنطين يقول ان هذا الاكتشاف العجيب حدث على اثر انتصاره على ليشينيوس عدوّ المسيحيين اي بعد سنة ٣٢٤ . ولما كان اوسابيوس يذكر مجيءَ القديسة هيلانة الى اورشليم سنة ٣٢٦ فما المانع من ان تكون حضرت اكتشاف مغارة القبر ، حيث خُبئت الصلبان والمسامير ، واشرفت ايضاً على بناء كنيسة القيامة ، كما روى الميمر ؟

٢ً – التناقض

يحدد الاب لكلير اكتشاف الصليب بين السنة ٣٣٥ ، التي جاء فيها اوسابيوس الى اورشليم ، والسنة ٣٤٧ ، التي وصف فيها القديس كيرلس الاورشليمي تهافت المؤمنين على ذخائر عود الصليب ، ويقول ان ذلك دليل على ان عبادة الصليب قديمة . ويعود فيورد ما يقوله القديس نفسه ، في رسالته الى الملك قسطنس ، عن الصليب انه وُجد في عهد ابيه قسطنطين ، اي قبل سنة ٣٣٧ . ومن جهة اخرى نرى الاب لكلير يستند الى قول اوسابيوس عن

مكاريوس اسقف اورشليم انه باشر ، حال عودته من مجمع نيقية المنتهي في ٢٥ آب سنة ٣٢٥ ، حفر أساسات كنيسة القيامة فظهرت مغارة القبر . ويضيف الى ذلك شهادة اوسابيوس المذكور بان الملكة هيلانة زارت اورشليم سنة ٣٢٦ وبقيت فيها حتى قبيل وفاتها سنة ٣٢٩ ؛ وانها في هذه الاثناء بنت كنيستي جبل الزيتون وبيت لحم . فهي اذاً كانت حاضرة عمليـة رفع الردم وحفر أساسات كنيسة القيامة ، حيث وُجد القبر ، وحيث يرجح الكثيرون وجود الصليب ايضاً . كما انها حضرت بدء الاعمال في بناء هـذه الكنيسة ، ان لم تكن قد شاهدت بناءهـا بكامله . والاب لكلير يشهد لها بعبـادة حارّة نشيطة حملت المؤمنين على ان يقرنوا اسمها بذكرى بناء هذه الاماكن المقدسة ويقول ، نقلاً عن اوسابيوس ، ان قسطنطين ولدها وضع تحت تصرفها خزينة المملكة فانفقت مالاً كبيراً على بناء الكنائس . فكيف ينكر بعد ذلـك علاقتها بهذه الحوادث ؟

٣ – اختلاف الميمر عن الاساطير

ولنفرض خطأ الاساطير السريانية في هذه الرواية فميمرنا لم يستق منهـا ، ويظهر انه اقدم منها عهداً . لانه يخالفها في كثير من التفـاصيل وينسب الى الملك قسطنطين فضـل البحث عن القبر ، وفتح التحقيق مع اليهود ، وتأمين اعمال الحفر ، والاهتمام ببناء كنيستي القيامة والجلجلة ؛ ويكتفي بقولـه انه كلّف والدته في غيابه الاشراف ، مع اسقف المدينة ، على هذه الاعمال ووضع تحت تصرفها اموالاً كبيرة أنفقتها على بناء الكنائس وأعمـال البرّ . والميمر يهمل ذكرها في كلامه عن تدشين الكنائس سنة ٣٣٥ ، لانهـا توفيت سنة ٣٢٩ ، كما قلنا .

٤ – الخطأ

هَب ان الميمر أخطأ في روايته ، فخطأه لا ينفي نسبته الى القديس كيرلس . اولاً لان هذه الحوادث جرت في سنة ٣٢٦ ، وهو في الحادية عشرة من سنه ولعلّه كان غائباً عن اورشليم . فليس لدينا ما يثبت ولادته او اقامته فيها في عهد الحداثة . ثانياً الخطأ في رواية لا ينفي حتماً نسبتها الى راويها ، كما ان

غلط اوسابيوس في رواية الحوادث المعاصر لها لم يحمل احداً على انكار تاريخه عليه. وفي يومنا تروي الجرائد حادثة وقعت في المدينة التي تصدر عنها وتختلف في رواياتها مع سهولة المواصلات والاستعلامات.

٥ً – ان رواية الميمر لا تنفي نسبته الى القديس كيرلس بل تعززها. لانها توافق رواية معاصريه القديسين يوحنا فم الذهب وامبروسيوس (٣٩٠–٣٩٥) القائلين بان الصليب اكتشف تحت اشراف القديسة هيلانة، وانه عُرف بين الصلبان الثلاثة من الكتابة الباقية عليه. وتخالف رواية روفينوس وبولينوس من نولي (٤٠٢) واتباعهما من مؤرخي اوائل القرن الخامس، القائلين بان الصليب الحقيقي عُرف من شفاء مدنفة او من اقامة ميت. وسندلي بذلك بما يرجح ان القديس كيرلس لفظ هذا الميمر في آخر حياته.

٣ً دلائل نسبته

للوصول الى معرفة مؤلف الميمر رأينا ان نبحث بين نصوصه عن دلائل لغته الاصلية وطريقة انتقاله الى اللغة العربية، وعن الجمهور الذي أُلقي عليه؛ ومذهب صاحبه وجنسيته وأسلوبه وافكاره وعن نظام عظته وعصرها.

١ً – لغة الميمر

عربية ركيكة مضطربة مشحونة اغلاطاً نحوية وصرفية، من عصر الانحطاط. ويستدل من تعابير الميمر ان التعريب لاحد السريان الارثوذكس القاطنين في القطر المصري، نقله عن نص سرياني منقول بدوره عن اليونانية لغة الميمر الاصلية، التي وصلت لنا بها بقية تآليف القديس كيرلس. فضعف المعرّب في اللغتين العربية والسريانية، وضعف المترجم في اللغتين السريانية واليونانية وتوخيهما الترجمة الحرفية حفظ لنا في الانشاء الصبغة الاصلية اليونانية، وفي التعابير آثاراً واضحة للغتين السريانية واليونانية ولتعريبه وترجمته في وادي النيل.

٢ً – الجمهور

تصرّح نصوص الميمر انه أُلقي على جمهور مسيحي فلسطيني انضمّ اليه بعض الحجاج الغرباء الوافدين الى اورشليم لحضور حفلة ارتفاع الصليب في كنيسة

القيامة ؛ وأن هذا الجمهور محاط بعنصر وثني ضعيف الشأن ، وعنصرين يهودي واريوسي شديدَي الوطأة ، يخاف الواعظ من تأثيرهما على المؤمنين فيحمل عليهما، وخاصة على الاول ، حملات متواصلة عنيفة . كل هذا يوافق عصر القديس كيرلس وحالة المسيحيين في المدينة المقدسة في اواخر القرن الرابع .

٣ – مذهب المؤلف وجنسيته

المؤلف فلسطيني كاثوليكي ، اذ ليس في ميمره مـا يشتم منه رائحـة المرطقات الشرقية ، بل بالعكس نجد في اقواله ما ينافيهـا . وهو لا يتعرَّض رأساً ألّا للاريوسية ولبدعة مركلوس الانقيري ، اللتين استفحل امرهمـا في عصر القـديس كيرلس اي في اواسط واواخر القرن الرابع . فهو اذاً غير يوناني ولا سرياني منشق . وهو ايضاً ليس بقبطي ، وان تُرجم ميمره وعُرِّب في القطر المصري ؛ لان الاقباط يعاقبة ويجهلون السريانية . فضـلًا عن انك تجد في الميمر دلائل تنفي تآليفه في القطر المصري . كقوله عن الزرع الذي ينمو بماء المطر ، والمطر نادر بمصر ، ولا يعتمدون عليه في الزراعة بل على ماء النيل .

اما الميامر القبطية الموضوعة على ارتفاع الصليب والمنسوبة زوراً الى القديس كيرلس فهي تختلف عن ميمرنا بالتفاصيل ، وأحدها ، الذي يقرب منه ، يأخذ عنه بعض المعلومات وعن الاساطير البعض الآخر ، وينفرد بشيء منها لا تجده في هذا ولا في تلك . فان لم تكن غاية المزوّر بثّ رأي فاسد باسم القديس كيرلس فما غرضه من نسبته اليه ؟

٤ – الاسلوب

أسلوب الميمر وانشاؤه مطابقان لاسلوب القديس كيرلس وطريقة انشائه . فهو مثله بسيط واضح خالٍ من الاصطلاحات اللاهوتية ، وَدود ، حماسي ، مستند الى الآيات الكتابية ؛ ويجانب ذلك مراجعات مملّة ، وعبـارات مبتورة ، وحكايات طويلة خارجة عن الموضوع ، ونصوص من الكتاب المقدس مشوَّهة .

٥ – الافكار

الآراء اللاهوتية النادرة الواردة في الميمر مشابهة لما ورد في عظات القديس كيرلس ، عن الروح القدس وولادة المسيح الاولى الازلية والثانية الجسدية .

وعن ملكوته الازلي وكهنوته وتضحيته ، ولاهوته المتحد اتحادًا تامًا والمحتجب بالناسوت ، فلا يُرى الا بالعجائب ؛ وعن عتقه اصحابَه من عبودية الخطيئة وأسر الجحيم . ومن هذه الافكار ما هو مكرر تقريباً حرفياً ، كقوله عن المسيح انه اتخذ لفدائنا سلاح الجسد الذي حاربنا به عدوُّنا .

٦ – نظام الميمر

الميمر قائم على آيتَي المزامير عن مُلك الرب وتهليل الامم او غضبها . انما لا نظام راهن فيه ، مما يدل على انه أُلقي عفوًا بعد قليل من الاستعداد . والحكايات التي يسردها تستغرق اكثر الميمر ، فيعتذر عن الاطالة فيها ويعود بعد قليل الى ارتكاب الشطط نفسه والى نفس الاعتذار . فهذه الاستدراكات تدل على ان الميمر غير ملفَّق لان الوقت متسع للملفِّق ليرفع او يصحح او يختصر ما يراه عيباً في عظته فيستغني عن الاعتذار . ناهيك عن اشاراته الى القبر وتوارد الحجاج وازدحامهم لسماع العظة وحضور حفلة ارتفاع الصليب، والى تعبهم من الطريق، وتململهم من طول العظة، ومطالبتهم اياه بالسير على البرنامج الذي اعلنه في صدر العظة . وضيق الوقت عن القيام بحفلة المعمودية والمناولة والميسوزيس ودفن الاولين، ما لاكتساب الوقت، وغير ذلك مما لا يعقل ان يشير اليه مصطنع الميمر او ملفقه .

٧ – عصره

تصرّح نصوص الميمر ان القديس كيرلس اسقف اورشليم ألقاه في كنيسة القيامة في حفلة ارتفاع الصليب وتدل على انه قاله في آخر حياته .

فكلامه عن اكرام الصليب يدل على انه ألقي في بلد مسيحي ، اي قبل فتح الاسلام لاورشليم سنة ٦٣٦ . ووصفه مصرع يوليانوس الجاحد يدل على القائه بعد سنة ٣٦٣ . واهماله ذكر بدعتي نسطور وديوسقوروس دليل على انه أُلقي قبل القرن الخامس . وحمله على الاريوسية وعلى بدعة مركلوس توجب علينا تعيينه في ابان استفحالها اي بين اواسط القرن الرابع واوائل الخامس . ناهيك عن اعتماده على معلوماته الشخصية في اغلب حوادث القرن الرابع، وعلى التقاليد في ما سبقه ، واهماله تماماً كل ما تجاوز هذا القرن .

أضف الى ذلك موافقته لرأي معاصريه القديسَين فم الذهب وامبروسيوس (٣٩٠-٣٩٥) في ان الصليب الحقيقي عُرف بين الصلبان الثلاثة من الكتابة الباقية عليه ، ومخالفته لروفينوس وپولينوس من نولي (٤٠٢) وأتباعهما في انه عُرف من شفاء مدنفة او اقامة ميت.

فالميمر ألقي اذاً اما بين سنة٣٦٣ التي عاد فيها القديس كيرلس من المنفى ، او ، على الارجح ، بين سنة ٣٧٨ التي رجع فيها القديس كيرلس نهائياً من هذا المنفى الى كرسيه اورشليم ، وسنة ٣٨٧ ، التي جاور فيها ربه . قاله ، كما يصرح الميمر نفسه ، في كنيسة القيامة في الرابع عشر من شهر ايلول قبيل حفلة الهيسوزيس .

***

هذا لا يعني اننا نجرأ على البتّ في ذلك ، بل نحن ندلي بدلونا بين الدلاء لعله يغترف الحقيقة او بعضها . وعسى أن نجد بين العلماء المتضلعين من تاريخ الكنيسة والواقفين على آراء القديس كيرلس الاورشليمي مَن يأخذ بناصر هذا الرأي ويدعمه بما خفي علينا ، أو حال الوقت وخوف الاطالة بيننا وبينه . وان ظهر من يفنده فقد افادنا الهداية الى الحقيقة ، التي ننشدها من صميم القلب.

واليك الآن نصّ الميمر ننقله حرفياً عن مخطوطة بكركي ، مع الاشارة الى ما يخالفه في النصّ الحلبي ، والمقابلة بينه وبين رواية الميمر القبطي والاساطير السريانية ، معلقين على بعض نصوصه بشرح وجيز او اشارة سريعة . وقد قسمناه الى اجزاء حسب موضوعاته ، وقسمنا هذه الاجزاء الى فقرات . ووضعنا لكل منها عنواناً ورقماً تسهيلاً على القارئ . وعلى المولى الاعتماد اولاً وآخراً .

اصطلاحات

ب نصّ بكركي	ق الميمر القبطي
ح النصّ الحلبي	س الاساطير السريانية

بكاء ، وشعر ، ونقد

نظرة في ناحية من « الادب » الحاضر

بقلم ادوار ابراهيم حنين

حمل امين الريحاني ، في يوم من حزيران الفائت ، حملةً شديدة على ابيات عاطفية لبشاره الخوري (١ يردّدها الناس والفونغراف في بلادنا وما جاورها ، بحجة انها تغرق بالدموع وتنمّ عن الضعف . فكانت تلك الحملة مبدأ مناظرات ومناقشات ومهاترات تتابعت اسابيع طويلة على صفحات الجرائد البيروتية دفع اصحابها الى الكلام على الادب ، والبكاء ، والشعر ، والقوة ، والنقد ، والتجديد ، والتقليد وما شاكل من مفردات اضطرب في تحديدها اكثر المتناظرين وقد ادّى كل ذلك الى كتيبين : « انتم الشعراء ! » و « اجل نحن الشعراء ! » يستويان مظهرًا وقيمة ، وقد لا يستحقان هذا النقد الطويل ، الا اننا نشرناه كي لا يتوهّم الاديب الغريب انهما — وقد ظهرا ختامًا لتلك المناقشات — يمثّلان الحالة الحاضرة من ادبنا المصري ، فيبخس هذا الادب حقه .

توطئة

يجتاز الادب العربي اليوم في لبنان مرحلة يُخاف عليه من مخاطرها . فمن زاعمٍ انه المجدّد المُصلح ، فيثور على « الادب الباكي » طالبًا دكَّ ما شيّدته القرون والاجيال ؛ ومن نافخ في البوق « ان الادب الحديث تضرّع اليه لينصره على الادب القديم ويريحه من ايادي الكذّابين المنافقين » ؛ الى مغرور ينظر نفسه بعين مكبّرة فيخال انه نبيّ ملهم بعث به الله الى عباده في هذا القرن العشرين ليخلّصهم من سخافات انبيائه الاقدمين ؟ الى معلن « تمزيق » هذا وذاك من الادباء الذين احيوا في عصرهم اللغة والادب والبحث العلمي الصحيح ورفعوا لها منارًا عاليًا في سماء الشهرة .

ومن ميزات الادب في هذه المرحلة التي نجتازها اليوم ان هؤلاء المجدّدين ،

---

١) هي الابيات :

الهوى ، والشبابُ ، والاملُ المنشودُ توحي فتبعث الشعر حيًّا ،
والهوى ، والشبابُ ، والاملُ المنشودُ ضاعت جميعها من يديًّا .
يشرب الكأس ذو الحجى ، ويبقي لغدٍ في قرارة الكأس شيًّا ؛
لم يكن لي غدٌ ؛ فافرغت كأسي ، ثم حطّمتها على شفتيًّا !...

المصلحين ، المناصرين ، المنزّقين ، الذين جمعتهم غـاية واحدة — على علم او على غير علم منهم — يتناوشون ويتشاغبون كأنّ الله قد سلّط بعضهم على بعض ليأكل بعضهم بعضاً ويذهبوا من حيث اتوا.

وليس من الصعوبة في شيء تأريخ هذه الحركة الفكرية القريبـة النشأة الحديثة الميلاد. لقد غرس بذورها الاستاذ امين الريحاني في يوم من ايام حزيران الملتهبة، فاخذت تنمو وتكبر الى ان شجرت وازهرت وعقدت واثمرت، ومما يجدر بالذكر ان النموّ كان سريعاً جداً . فرأينا من هذه الاثمار اشكالاً والواناً وقد كثرت ما بينها الاثمار الرجعيّة. وكان منها كتيبان سنتناولها بالدرس تباعاً.

١ – انتم الشعراء

كان يقرأ الرائح والجائي ، في شوارع العاصمة اللبنانية وقرى الاصطياف ، لبضعة اشهر خلت ، خبر كتاب جديد للاستاذ الريحاني كان مزمعاً ان يحـدث ثورة في الادب ، بل كان مقدراً له ان يقوم بحملة شديدة على الادباء . وان في اسمه «انتم الشعراء !» اعلاناً لهذه الحملة. اما المسمى فمؤلف صغير يناهز ٢٠ سنتيمتراً طولاً ، و١٤ سنتيمتراً عرضاً ، طبع في مطبعة «الكشاف» البيروتية ، على ورق صقيل ، باحرف جلية وقع في ٩٢ صفحة ، وغُلف بورق ملوّن يختلف عن ورق الكتاب بقليل من السماكة والخشونة.

هذا هو انتم الشعراء مادياً اما مضمونه فسنحلّله تدريجاً . واليك ابتداء عناوين المقالات التي يحتويها هذا الكتيّب كما جاءت في الفهرست :

قلوب تذوب — داء البكاء — عشر وصايا الشعراء — ربّة الشعر — الشاعر والوطن — الشاعر والفيلسوف — الالم الشخصي والقومي — الدموع — دموع الشاعر — ندب وانتداب — خمس عشرة وصية اخرى للشعراء.

يتضح من هذه العناوين ان «انتم الشعراء» حلقة جديدة من سلسلة مقالات الريحـاني ومؤلفاته التي يهاجم بهـا الشعراء اذ يقبح دموعهم وينكر عليهم بكاءهم ؛ فهو اذاً سهم ، ربما كان آخر مـا في جعبته من الاسهم ، يطلقه

من كنانته رامياً به وجوه شعرائنا الافاضل . فهل اصاب ام ارتدّ خائباً ؟ هذا ما سنحاول درسه في النقد الحاضر .

حجر زاوية هذا النقد، بل محور الخلاف بين الريحاني والشعراء، تحديد الشعر . ولهذا ترانا مبتدئين به فنقول، متّبعين جمهور الشعراء والنقّاد، بل متّبعين الطبيعة نفسها : ان الشعر هو التعبير باسلوب انيق عمّا يجول في النفس من العواطف الشخصية رقّت او غلظت، لانت او اشتدّت غير مستثنين واحدة منها . والعاطفة تكون شخصية اما لانها للشاعر ومنه، واما لان الشاعر يشاطر من يتكلم عنهم عاطفة مشتركة .

وقد عبّر عنه الاستاذ فؤاد افرام البستاني في «روائعه» اذ قال: «الشعر هو مجمل عواطف النفس ونزواتها، يبدو تارة زفرات حرّى يصعدها صدر هائج، وطورًا ابتسامات عذبة تعلو ثغرًا جميلًا . وقد تتّسع دائرته بعض الاحيان فيعبّر عن عواطف اكثر من نفس بل ربّما عبّر عن عواطف أمّة بأسرها»

والشاعر يكون القائم بهذه المهمة اي «هو الذي يشعر ويحسّ بعواطفه الشخصية او بعواطف غيره من حبّ وبغض، وفرح وحزن، فيراها منعكسة على مرآة نفسه، فيبرزها الى الخارج بطريقة تجعلنا شاعرين بكل تلك العواطف.»[1]

اذا ما وقفنا على بيّنة من ذلك ففهمنا الشعر كما يجب ان يفهمه كل اديب، اصبح من النافل ان نخطو خطوة اخرى لهدم كل ما بناه الريحاني في ٩٠ صفحة كاملة، اذ انه يقول ان البكاء ليس من الشعر في شيء . ونحن نقول ان البكاء يصدر عن الالم، والالم عاطفة، وكل عاطفة، مهما قيل ويقال، ينبوع للشعر .

فان كان الامر على ما قلنا، وان كان هذا النذر القليل يكفي لهدم نظرية الريحاني، فلمَ لا نكتفي بما بلغنا اليه ونسكت عمّا بقي، مريحين نفسنا والقرّاء من الم البحث والتمحيص والم المطالعة وكدّ الذهن ؟ ذلك لان الريحاني لم يكتفِ بالتصدّي لهذه الحقيقة الكبرى بل انه تعدّاها الى غيرها،

---

١) الروائع: الجزء الثاني : الشعر الجاهلي، صفحة ٤

وابدى في طريقه اليها نظريات شتى انتقادها والتعليق عليها فرض واجب . والامانة الادبية تقضي بان لا ننقد المؤلف في نصف ما يقول ونطمس النصف الآخر عابرين عنه ساكتين.

نبتدئ « بقلوب تذوب » و« داء البكاء » ، متخلصين الى « الدموع » و« دموع الشاعر » و « ندب وانتداب » ، لما لامسنا فيها من المشابهة المعنوية واللفظية . وبعد ذلك ننتقل الى ما يبقى من المقالات في الكتاب . وعند الانتهاء من هذا العمل التحليلي المفصل نباشر عملًا آخر مجملًا نعرض فيه ما يبدو لنا صحيحاً عن الاديب وكيفية تفكيره وانشائه.

فالريحاني، في مقالتيه الاولين «قلوب تذوب» و«داء البكاء» ، ينسب الى ابناء بلاده ،والى ابناء الشرق العربي اجمع ، كثرة البكاء والاكثار من الدموع . فمن قوله : « في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلة بل القلوب المائعة الذائبة . قلوب تذوب كلما ناح الحمام ، قلوب تميع كلما اهتز الورد في الاكمام ، قلوب تسيل هياماً كلما تلألأت شمس الاحلام ، قلوب مائعة ذائبة على الدوام . . . » الى قوله : « انا والحق يقال اكثر بكاء واشد انتحاباً من جميع الشعوب . . . انه لمرض يفوق انتشاراً كل امراضنا . . . فتراه يفتك بالسياسيين ورؤساء الدين كما يفتك بالادباء . والتجار والفلاحين هو وباء الدموع وباء النحيب والنواح . . . »[1] نراه يتحامل على ابناء جلدته تحاملًا لا مبرر له ، فيعيب عليهم ما ليس بهم ، او ما هم عليه كغيرهم من الشعوب . وهب ان الحقيقة في جانب الاديب ، فهل يُلام الشرق العربي على عاطفة له رقيقة وعلى قلب له حساس ؟

ولا ادري في اية مناسبة رأى الريحاني الساسة عندنا ورؤساء الدين فينا يبكون وينتحبون حتى امكنه ان يطلق على جميعهم هذا الحكم المخطئ في عمومه وشموله ؟

هذا الذي يحمل قارئه وسامعه يخال اننا ، في هذه البلاد ، في مأتم مستديم .

---

١) انتم الشعراء ، ص ٤-٦

واننا نسبح الله بالبكاء والعويل، ونلعن الشيطان بالبكاء والعويل، ونتوصل الى مآربنا السياسية والادبية ، وغيرها من المآرب الحيوية ، بالنواح والبكاء والعويل . ويظن سامع هذا الكلام ، اذا ما كان ممن يركنون للريحاني ، اننا في وادي الدموع ، وان لغة التفاهم ما بيننا النواح والبكاء والعويل . هذا ما يظنه البعيد ان سمع الريحاني يتكلم . ولسنا في لبنان ولا في شرقنا العربي اجمع على شيء من ذلك .

واخاف على ذاك البعيد الذي يتخذ كتاب الريحاني هذا مرشداً له في تفتيشه عن لبنان ، وعن هذا الشرق الضاحك ، ان يسير في الكون الواسع هائماً على وجهه يفتش عن لبنان الموصوف فلا يراه ويمرُّ به ويخالط ساسته ورؤساء الدين فيه وتجاره وفلاحيه وادباءه ويعبر عنه ، غير شاعر هل مرَّ في لبنان ام لا، فيهيم ويهيم . . .

واعجب ما عجبت له في هذا المثال تلك العقلية التي لم اعرف بها بعد رجلاً اديباً يدعي العلم والفن والفلسفة وهو على شيء منها جميعها — على ما يقال — والتي تظن ان حاملي القلوب الحساسة والعيون الدامعة « هم اعجز في المحن والنكبات من فراخ القطا واجبن من صغار الارانب » .

فجبان هو مار بطرس اذاً ، وجبان هو نابليون . . . وجبان سعد زغلول لانهم بكوا . . . واراقوا دموعهم في مواقف عديدة . فمار بطرس مثلاً لم يكن الا إمام الباكين . وقد نقلت الينا الاسطورة ان الدمع اختط قناة على وجنتيه لكثرة تذرافه الدموع تكفيراً عن خطيئة جحوده السيد المسيح ، ولم تمنعه دموعه من جوب الارض من اقصاها الى اقصاها ومن نشر الدين المسيحي فيها ، ولم تحل هـذه الدموع بينه وبين الاقدام واقتحام الموت والقضاء على الصليب . . . ومن اطلع على رسالات نابليون بونابرت التي كان يبعث بها الى جوزفين اذ كان لم يزل بعد في اول حياته اللامعة العظيمة ، يرى انه كان يبكي بكاء مرّاً . على ان هذه الدموع لم تمنعه من ان يكتسح العالم . . . وكذلك القول عن سعد زغلول وكثيراً ما ذكر عن عاطفته الرقيقة حتى الجزع والبكاء في بعض المواقف . والتاريخ المصري يعلم هل كان زغلول رجل حزم

وعزم !!!

على ان خطأ الريحاني عائد، في نظري، الى الخلط بين موقفين اثنين كان من الواجب تمييز احدهما عن الآخر. خلط بين موقف الرجل السياسي او القائد او الزعيم رجلاً فحسب، وموقفه سياسياً او قائداً او زعيماً، فجره هذا الخلط طبعاً الى عدم التمييز بين دموع ودموع.

ويجرّنا هذا الى ان نعرض لثلاث مقالات انزلها المؤلف في الصفحات الاخيرة من كتابه وهي: «الدموع»؛ «دموع الشاعر»؛ «ندب وانتداب».

ففي المقالة الاولى يسأل الريحاني عمّا اذا كانت الدموع في البلاء مفيدة؟ وبعد ان يجدّد الدمع «علمياً» — كما يقول — يجيب بعدم فائدتها مكذباً اعتقاداً «يصعب اثباته «علمياً» وينزله الكثيرون من اهل الادب والعلم منزلة اليقين» وهو: «ان في البكاء راحة من كرب او حزن او مرض وفيه تنكشف الغموم».[1] هذا جواب يعطيه المؤلف بعد ان يدلي بلاحظات عجيبة غريبة يظنها تؤيد زعمه، منها بالحرف: «الولد يبكي حينما تصطدم ارادته اصطداماً شديداً بارادة امه او ابيه او اخيه الاكبر. والمرأة تبكي اذا اشتدّ عليها كيد الزمان او كيد زوجها، اما الرجل فهو على الاجمال اقل بكاء من المرأة». ويزيد: «فاذا كانت الدموع تفيد فلماذا تخص فائدتها بالاطفال قبل الاولاد وبالاولاد قبل النساء وبالنساء قبل الرجال. ويكاد يحرم الرجال خيرها.»[2]

وليس من العسير على كل قارئ لبيب ان يخطئ الريحاني في برهانه هذا الذي يبني عليه مقاله «الدموع».

وله برهان ثانٍ لاثبات ما قدم، وهو لا يقل عن الاول ضعفاً. اذ يقول «يرى الطفل القمر فيمد يده اليه يطلبه ثم يطلبه فتعريه سورة من البكاء لانه ابى ان يجيبه وبعد صراخه ودموعه يهدأ جأشه وينثني ان القمر عصاه.» ويزيد: «فهل افادت الطفل الدموع بعد ان حرق ملحها وجنتيه ومآقيه»؟[3].

١) انتم الشعراء، ص ٥٥
٢) انتم الشعراء، ص ٥٧، ٥٨، ٥٩

فلنفرض ان الدموع وسيلة كما يزعم الريحاني — وهذا خطأ بيّن لان الدموع نتيجة لا وسيلة — فاين يكون موقع كلامه من الحقيقة ؟

بكى الصبي ليتوصل الى القمر . فالغاية تكون القمر ، والمبتغي يكون الصبي ، وطريقة الوصول (اي الوسيلة) تكون البكاء . فشل الصبي في مسعاه فما هو سبب الفشل ؟

اتكون الطريقة ? — لا اذ ان الصبي لو اتخذ وسيلة غير البكاء لنيل طلبه لما كانت اجدته نفعاً . فهو لو اتخذ كرسياً واعتلاه لما كان ابلغه القمر ، ولو تسلق شجرة لما كانت ابلغته القمر ، ولو صعد الى اعلى سلّم طويل لما كان بلغ القمر ، وهو لو اشرف على الجبال الشامخات والبروج وناطحات السحاب لعجز عن نيل القمر .

فالنقص اذاً من جهة الصبي ? نعم اذ انه ليس في استطاعة الرجال التوصل الى القمر بمجرد قواهم البشرية . فانت ترى معي ، ايها القارئ ، ان الذنب في هذا المقام هو ذنب المبتغي لا ذنب الوسيلة (الدموع) .

هذا . ومن الثابت الاكيد ان البكاء نفع الصبي وانه قام بواجبه خير قيام . ولم نكن لنطلب منه في حياتنا اكثر مما كان لنا منه الان . . . اننا لا نرتجي من البكاء عندما نبكي ان ينيلنا القمر او يعيد الينا حبيبنا او نسيبنا ، ابانا او امنا او اخانا الراحلين . ولكن جلّ ما نرجو منه ان يسرّي عنا ويفرّج كربنا وغمنا ، وما كان بالمقصر يوماً .

نحن اذاً . . . لا نطلب من البكاء ان يبلغ بنا الى القمر ، والى المال الذي نرجوه ، والى الحبيب الذي يجفونا ، والى غيرها من الامال المنشودة . وانما نبكي لحرقة في قلوبنا ناتجة عن عدم مقدرتنا للبلوغ الى القمر . . . الى المال . . . الى الحبيب . . . الى آمالنا المنشودة . فالدموع اذاً ليست وسيلة ، كما يعتقد الريحاني ، وانما هي نتيجة ، فنبكي لان الشي قد فاتنا ولا نبكي لنتوصل الى الشي .

ولنعد الان الى النظريات التي يبديها المؤلف في سياق الموضوع ، والتي لا تزيد الموضوع الا غموضاً وابهاماً . ولنلتفت الى « الحقائق الراهنة » التي يلفت الريحاني نظر القارئ اليها بقوله : « اننا نلفت نظر القارئ الى هذه الحقائق

الراهنة ».[1]

الحقيقة الراهنـة الاولى : « ان البكاء في بعض الشعوب الشرقية اكثر منه في الشعوب الغربية . وانه في الشعوب اللاتينية اكثر منه في الشعوب الانكلوسكسونية . وان في الشعوب القاطنة الشمال مثل اهل اسوج وزوج يضعف فيهم (كذا!) الميل الى البكاء. ويكاد يزول . فهم قلما يبكون في الملمات ».

«واني فوق ذلك استرعي نظر القارئ الى هذه الحقائق الاخرى الثابتة.»[2]

الحقيقة الاخرى الثابتة: « الصغار اسهل دموعاً من الكبار ، والنساء اكثر بكاء من الرجال ، والرجال في الشعوب الهمجية والمتأخرة في التمدن هم اسرع الى ذرف الدموع والنحيب من الرجال المتمدنين. تنبئنا بذلك المنادب الافريقية وما لا يزال من اثرها في بعض البلدان » وقد زاد، عافاه الله : «وقل في جبل لبنان »

اما ما جاء في اولى حقائقه الراهنة فاشك في صحته ، لا لانني طفت البلدان وتعرفت الى العيون الشرقيـة والغربية والعيون اللاتينية والانكلوسكسونية وعيون الشعوب القاطنة الشمال مثل اهل اسوج وزوج ، لا. ولا لانني قرأت عن دموع هذه الشعوب المجلدات الضخمة والمطبوعات القيمة اذ ان اول مـا اقرأه في هـذا الصدد هو كلام الريحاني هذا . ولكنني اشك في صحة هذا الكلام لانه قدّمـه بقوله : « انني ألفت نظر القارئ الى هذه الحقائق الراهنة ».

اخاف ان لا يفهمني القرّاء . فالامر بسيط . انكم تذكرون ما جاء في المقـالتين الاولين « داء البكاء ، وقلوب تذوب » « من اننا اكثر بكاء واشدّ انتحاباً من جميع الشعوب » وان « السياسيين ورؤساء الدين والادباء والتجار والفلاحين يبكون عندنا كثيراً ».

---

١) انت الشعراء ، ص ٥٥
٢) انت الشعراء ، ص ٥٦-٥٧

فخوفي عظيم ان تكون حقائقه الراهنة هذه كالحقائق تلك ، حقائق ليست على شيء من الحقيقة.

وليس ما ضمّنه حقيقته الثانية الراهنة باوفر نصيباً عند النقّادة الرصين من مضمون الحقيقة الاولى ، اذ انه ما رأيك في هذه النظرية : ان البكاء القليل عند المرء دليل على رجاحة عقله ووفرة رقيه وتمدنه ، والبكاء الكثير دليل على قلة عقله وعلى همجيته وعدم تمدنه ؟

فان صحّ ما توهمه الريحاني من ان البكاء الكثير دليل على نقص في العقل وعدم الرقي والتمدن ، نتج ان اصحاب القلوب الحساسة والمدامع الغزيرة كاعاظم الشعراء هم اقل عقلاً من هذا الجوذي وذاك البوبجي ومن هذه وتلك وهذا وذاك من الذين سوّاهم عهرهم وفجورهم بالحيوانات ، حتى نضبت عواطفهم وجفّت مآقيهم والفناهم لا يبكون ولا ينتحبون.

كل هذا بسيط اذا ما قسناه الى ما يجب الريحاني ان يدخله باسم العلم في عقول العامة من الخطأ المبين.

لقد قال : « ان هذا الاعتقاد — اي ان الدموع تخفف من الحزن وتفرج الكرب والغم — الذي يتزله الكثيرون من اهل العلم والادب منزلة اليقين « يصعب اثباته علمياً »[1]. ذكر العلم ، ومشى تحت راية العلم ، وتوسم باسم العلم ليوهم سامعيه ان الحقيقة في جانبه ، وانه هو العالم والمشترع والمدقق والممحص . . . يجدّد الدمع علمياً ، وينكر كل فائدة للدموع علمياً ، ويكذبنا الخبر وحقيقة الواقع علمياً ؟

***

دموع الشاعر

لم يكتفِ الريحاني بمقاله عن الدموع بل اردفه بمقال آخر اسماه : « دموع الشاعر » يشتمل بما فاته في المقالات الاولى من النظريات الغير المنظورة.

« دموع الشاعر » كناية عن مقالة لا يعرف اولها من آخرها ، يبتدئها

---

١) انتم الشعراء ، ص ٥٥

الريحاني بتهمة زور يتهم بها شعراء القطر العربي ويحشوها بثرثرات ونكات مزعومة ليست على شيء من الفكاهة.

هي مزيج اخبار وفكر مختلفة لا يدري القارئ لماذا يعرضها المؤلف اذ انها لا تبرهن عن غاية ولا تحقق مقصداً ، فهي اشبه بحديث سيدات لهن بعض الثقافة ، وقد سمعن فيما مضى ان هناك ابا العلاء المعري وابن المعتز عند العرب وموسيه ولامرتين وهيجو وفينيه عند الافرنسيس ، فاخذن يتحدثن عنهم حديثاً يبعد البعد كله عن حديث الاديب العالم.

انه يستهل القطعة بقوله : « لا اظنك تجد من الدموع في شعر الامم الاوربية كلها مقدار نصف ما عندنا في الشعر العربي . ولا اظنني فيما اقول مبالغاً »[1]. اما انا فاقول ان اتخذنا عدداً معدوداً من جهابذة شعراء الافرنسيس فقط ، لا شعراء الامم الاوربية كلها كما يقول ، وقابلناه بعدد يوازيه من جهابذة شعرائنا ، وان تصفحنا مؤلفات هؤلاء واولئك ، نجد ، رغم ما قال الريحاني ، ان شعراء الافرنسيس العشرة مثلاً يبكون ويتألمون اضعاف اضعاف ما يبكي ويتألم شعراؤنا العشرة. واحب ان لا اكتفي بالتأكيد ، كما فعل الريحاني ، بل ارغب ان اجول وقرائي الكرام جولة في ليالي موسيه الشاعر الفرنسوي ، ليتحققوا بانفسهم ما في شعر هذا الشاعر النابغة من الدموع ... والبكاء ، ولكي يقولوا معي ان في شعر هذا الغربي من الدموع ما ليس يتفق لمائة شاعر شرقي عربي . وقد اخترنا موسيه خاصة لان الريحاني اكثر من ذكر اسمه ، على غير معرفة بعزة شعره . قال شاعر البكاء في قصيدته *La Nuit de Mai* والقول صادر عن ربة الشعر :

Poëte, prend ton luth ; c'est moi ton immortelle
Qui t'ai vu, cette nuit, triste et silencieux
Et qui, comme un oiseau que sa couvée appelle,
Pour pleurer avec toi descends du haut des cieux.

وتزيد :

Dis-moi, quel songe d'or nos chants vont-ils bercer ?
D'où vont venir les pleurs que nous allons verser ?

---

١) انتم الشعراء ، ص ٦٢

وقالت، وقد آن وقت انصرافها :

Le vent va m'emporter ; je vais quitter la terre ;
Une larme de toi ! Dieu m'écoute ; il est temps.

وموسيه هو القائل في *La Nuit de Décembre*

A l'âge où l'on croit à l'amour
J'étais seul dans ma chambre un jour,
Pleurant ma première misère.

واسمع الان قولًا يثبت انه كان لموسيه ايام بكاء :

Qui donc es-tu, qui donc es-tu, mon frère,
Qui n'apparais qu'au jour des pleurs ?

ويقول موسيه في رسالته الى لامرتين *Lettre à Lamartine* :

Poète, je t'écris pour te dire que j'aime,
Qu'un rayon du soleil est tombé jusqu'à moi
Et qu'en un jour de deuil et de douleur suprême,
Les pleurs que je versais m'ont fait penser à toi.

وهذا ما يثبت لنا ان لامرتين كان يبكي ايضاً، وان البكاء كان ميزة من ميزاته الشخصية، اذ ان لا الشعر ولا العاطفة يذكّران موسيه قرينه وانما هي دموعه... وقد جاء في هذه الرسالة قوله :

... Oui, de ce jour fatal, plein d'horreur et de charmes,
Je veux fidèlement te faire le récit ;
Ce ne sont pas des chants, ce ne sont que des larmes,
Et je ne te dirai que ce que Dieu m'a dit.

ولنسمع الان ما قالته ربة الشعر لصديقها موسيه اذ رأته يبكي وذلك في *La Nuit d'Août* وهذا مما يثبت انه كان كثير البكاء غزير الدموع :

Hélas ! toujours un homme, hélas ! toujours des larmes !...
Et vous ne savez pas que l'amour de la femme
Change et dissipe en pleurs les trésors de votre âme
Et que Dieu compte plus les larmes que le sang.

وتريد لائمةً الشاعر على بكائه الكثير، مشيرة الى شحوب خدّه :

De tes yeux insensés les larmes l'ont pâlie ;
Ainsi que ta beauté tu perdras ta vertu.

فيجيبها الشاعر :

J'aime et je veux sentir sur ma joue amaigrie
Ruisseler une source impossible à tarir.

فالشاعر يقرّ ان لا سبيل لايقاف دموعه ، فهي ستظل على انسجامها الى الابد وهاك موسيه يسرّ ربة الشعر سرّه :

Il est doux de pleurer, il est doux de sourire
Au souvenir des maux qu'on pourrait oublier.

وهاك ما قاله لمن آلمته وابكته :

... Et tu fis de ma paupière
Jaillir la source des pleurs !
Elle coule, sois-en sûre,
Et rien ne la tarira.
Elle sort d'une blessure
Qui jamais ne guérira.

والسمعه الان يعدّد منافع الدموع :

Les moissons, pour mûrir, ont besoin de rosée,
Pour vivre et pour sentir, l'homme a besoin des pleurs
Et ces plaisirs légers qui font aimer la vie
Si tu n'avais pleuré, quel cas en ferais-tu ?

وموسيه لا يشك قط في منافع الدموع ، وان فعل فلأن التي خدعته بكت ، وفي هذا المعنى قال :

Et si je doute des larmes
C'est que je t'ai vu pleurer.

ويزيد موسيه ان الله هو الذي اراد لنا البكاء ، وذلك في قصيدته
L'espoir en Dieu

S'il souffre, s'il pleure, s'il aime,
C'est son Dieu qui le veut ainsi.

وهو يفتش عما يبكيه . اليك ما قاله في *Souvenir*

J'espérais bien pleurer, mais je croyais souffrir
En osant te revoir, place à jamais sacrée,
O la plus chère tombe et la plus ignorée
Où dorme un souvenir.

Ah ! laissez-les couler, elles me sont bien chères
Ces larmes que soulève un cœur encore blessé
Ne les essuyez pas, laissez sur mes paupières
Ce voile du passé.

وعندما بلغ موسيه الثلاثين ربيعاً عاد بالذكرى الى حياته الماضية، فلم يجد باقية تبقى منها سوى الدموع، فقال في *Tristesse*

Dieu parle, il faut qu'on lui réponde !
Le seul bien qui me reste au monde
Est d'avoir quelquefois pleuré.

وماذا تريد ان نقول، بعد ذلك ايها القارئ، عندما يعود الريحاني ويردد ما صدر عنه في اول المقالة من ان: « الشعراء الكبار مثل ابي العلاء وهينه ودموسه قاسوا من آلام الحياة اشدّها وانواعها (كذا) لما كان في زمانهم من جهل وظلم ووهم وفساد ولكنهم لم يبكوا » فتأمل! ويزيد: « لا لم يذرفوا الدموع بل كانوا ثائرين متمردين، داعين للثورة والتمرد، داعين لجهاد الظالم والظالمين »[1].

لم يبكِ موسيه! هذا كل ما استنتجه الريحاني من شعره، هداه الله! ومع كل ذلك ... فالريحاني لم يستحي من ان يقول: « ان كل نقادة شعر محترم الرأي يرفض النظرية التي ترفع الادب الباكي او قطعة من الشعر الدميع الى ذروة عالية من الفن »[2].

فليالي موسيه هذه التي ذكرنا بعض الابيات منها هي، اذا ما صحَّ قول الريحاني، من الشعر المنحط، وهي « اذا ما نظر اليها نقادة شعر محترم الرأي » — مثله — لا ترفع الى ذروة عالية من الفن.

كل هـذا يستحثنا الى التصريح بان ليالي موسيه من يوم عرفها الناس الى يومنا هذا هي مضرب المثل عند الادباء، ومثال الشعر العالي الرائع، ولم اعرف نقادة محترم الرأي، او غير محترمه، شك يوماً بروعة هذا الشعر وجماله، ولم يفكر احد الى الان بالحط من شأنها، وانما الجميع يرون ويسجدون محيين الشعر

١) انتم الشعراء، ص ٧٤
٢) انتم الشعراء، ص ٦٧

الخالص في هذه الابيات مكرماً النبوغ الفريد في صاحبها.

وقبل ان ننتقل الى موضوع غير هذا أحب ان اذكر القراء بقصيدة للشاعر الافرنسي المعروف François Coppée يتألم فيها لا على شباب له قد مضى، ولا على ايام سروره الغابرة، ولا على اصدقائه المائتين واخوانه الغائبين، بل على دمع له يخاف ان ينضب ويجف في شيخوخته. وهو لم ينضب بعد... فكيف به لو جف فعلاً ونضب! في قصيدة اسماها الدموع *Les Larmes* وهو يستهلها بهذا المقطع:

J'aurai cinquante ans tout à l'heure
Je m'y résigne, Dieu merci!
Mais j'ai ce très grave souci,
Plus je vieillis et moins je pleure.

ويتبعها بقوله:

Je souffre pourtant aujourd'hui
Comme jadis et je m'honore
De sentir vivement encore
Toutes les misères d'autrui.

Oh! la bonne source attendrie
Qui me montait du cœur aux yeux.
Suis-je à ce point devenu vieux
Qu'elle soit près d'être tarie?

Pour mes amis dans la douleur
Pour moi-même, quoi! plus de larme
Qui tempère, console et charme,
Un instant, ma peine et la leur.

Hier encore, par ce froid si rude
Devant ce pauvre presque nu
J'ai donné, mais sans être ému
J'ai donné, mais par habitude.

Et ce triste veuf, l'autre soir,
— Sans que de mes yeux soit sortie
Une larme de sympathie —
M'a confié son désespoir.

Est-ce donc vrai ? le cœur se lasse
Comme le corps va se courbant ?
En moi seul toujours m'absorbant
J'irais, vieillard à tête basse.

Oh ! les cheveux blancs et les rides
Je les accepte, j'y consens,
Mais au moins, jusqu'en mes vieux ans
Que mes yeux ne soient pas arides !

Car l'homme n'est laid ni pervers
Qu'au regard sec de l'égoïsme
Et l'eau d'une larme est un prisme
Qui transfigure l'univers.

فالقصيدة هذه تنطق بما اقصر عن تعبيره انا.

قد يبكي شعراؤنا وينوحون ويندبون ، قد يذرفون باسراف دموعهم ويكثرون من تسكابها . ولكنني لم اسمع قط ان شاعراً شاخ وعاد في الذكرى الى حياته الماضية ولم يتألم الا على دموعه الناضبة . كانت خطيئة صاحب « الهوى والشباب » عظيمة عندما بكى آماله المنشودة ، وهواه ، وشبابه الضائع ، فأي خطيئة هي خطيئة Coppée اذاً في عين الريحاني لانه يتألم على مدامع له قد جفت . . .

وعلى اثر هذه المنتخبات نناقش رأياً عرضه الريحاني للبحث والمناقشة وهو «ان الترجمة تفضح السخيف من الشعر مهما عذبت او جزلت الفاظه وتثبت الجيد فيظل شعراً اذا ترجم لاية لغة من اللغات»[1] . وباختصار فهو يقول : ان الترجمة لا تفقد القطعة الفنية شيئاً من قيمتها الادبية . وهذا كلام مغلوط . قد لا تنقص الترجمة شيئاً من قيمة القطعة العلمية المترجمة ، وتنقص شيئاً قليلاً من قيمة القطعة الادبية النثرية ، اما انها لا تنقص شيئاً من قيمة الشعر المترجم فهذا غلط بيّن . وقد اثبت سليمان البستاني في مقدمة الالياذة شيئاً من ذلك في

١) انتم الشعراء ، صفحة ٥٢ حاشية ١

كلامه عن الترجمة والتعريب[1]. اما نحن فنقول :

ان ترجمة القطعة الادبية، شعرية كانت او نثرية، من لغة الى لغة اخرى تفقد القطعة المترجمة الكثير من حسناتها، وهذه الخسارة تكبر وتصغر حسب كيان اللغات المترجم منها واليها . فاذا كانت الترجمة من لغة مزجية الى لغة تحليلية او العكس، فالخسارة جسيمة اذ ان اللغة المزجية بمفرداتها وتعابيرها لا تعطي المراد كما تعطيه اللغة التحليلية او العكس . واذا كانت الترجمة من لغة مزجية او تحليلية الى لغة احدية، فالقطعة المترجمة خاسرة دون شك . اما اذا كانت الترجمة من تحليلية الى تحليلية او مزجية الى مزجية او احدية الى احدية فتصغر الخسارة ولكنها لا تضمحل . وقد تفدح الخسارة او تقل اذا كانت الترجمة قائمة بين لغات متنافرة الاصل او متشابهته، من لغة انكلوسكسونية او جرمانية مثلاً الى لاتينية فالخسارة فادحة طبعاً . وان قامت الترجمة بين لغات ذات اصل واحد كالافرنسية والايطالية فالخسارة كائنة ولكنها تقل . وهناك اسباب اخرى غير هذه الاسباب الجوهرية لا يدخل في موضوعنا اليوم التبسط فيها.

ندب وانتداب

على اثر « دموع الشاعر » تأتي مقالة « ندب وانتداب » التي تمت ببعض الصلة الى ما تقدم من المقالات المنتقدة، وقد حشاها باحاديث سياسية لا جدوى من ذكرها في هذا المقام، الا اننا نتوقف عند ما قاله من انه لا يشك في ان عقلية الافرنسي « في ما يجدُّ له ويعده من خطير الامور هي في المحن كعقلية الالماني والانكليزي. فهو لا يبكي . واذا اعتدي عليه او حرم عزيز (كذا!) لديه يشمر عن ذراعه ويقاتل ليظفر باملِه المنشود . اجل ان الفرنسي والانكليزي والالماني سواء . من هذا القبيل، اما نحن فنئن ونتأوه وننندب وننوح ثم ننام على ظهورنا مستسلمين مسترحمين :

حبيبي راح، يا من يرد لي حبيبي
حبيبتي راحت، يا من يردها لي

---

[1] اطلب مقدمة الالياذة العربية، ص٧٤ وما بعدها.

استقلال بلادي راح يا من يرد لبلادي استقلاله »[1] (كذا)

تُرى اذا اعتدى معتدٍ على اللبناني او حُرم عزيزاً لديه الا يُقاتل وينتقم حتى افظع الانتقام احياناً ؟

أوَ هل يعتقدنا الريحاني على ما يتصوَّر من الذلّ والخنوع ؟ اذاً فليتصفح الجرائد يرَ ما يصدّه عن رأيه ذاك فيذعن للحقيقة ، اللهم ان اعتقد بوجود حقيقة الا في عقله واحكامه . بل انه يرى من خلال جرائدنا ميلاً شديداً فينا الى اراقة الدم والانتقام يفسد عليه كل ما بناه في كتابه ، بل يعكس آياته من تطرّف الى تطرّف آخر.[2]

يبقى ان نقول كلمة في الوصايا التي يرفعها الى الشعراء : « عشر وصايا للشعراء » و « خمس عشرة وصية اخرى للشعراء » ، وفي حديثه مع « ربة الشعر» وما قاله فيما يخص «الشاعر والوطن» ، « والشاعر والفيلسوف» ، و«الالم الشخصي والقومي ».

اما وصاياه فقد تعمد الفكاهة في العشر الاولى منها كمثل قوله :

« انا هو القاموس الهك لا اله لك غيري.

« أكرم سيبويه ونفطويه والكسائي واخوانهم اجمعين.

« لا تحلف باسم ليلى بالباطل.

« لا تبكِ . . . »[3] وما اليها.

---

١) « انتم الشعراء » ص ٧٧ — ٧٨

٢) هذا عدد واحد من احدى الجرائد البيروتية طالته عرضاً ، يوم قرأتُ هذا الفصل للريحاني ، في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٣ ، ولا ازال ارى خلاصة اخباره معلقة على الصفحة ٧٧ من كتاب الريحاني بين يدي ، وفيها :

١ً خبر والد يذهب ضحية جمال ابنته .

٢ً حكاية اخ يصرع شقيقه من اجل نصف ليرة سورية .

٣ً امرأتان تتقاتلان فتتجارحان لاسباب تافهة .

فهل هذا مصداق للقول اننا نجود دائماً بالبكاء . نحن لا نطرئ هذه الطريقة في تحصيل الحقوق . انما نورد الواقع ، ولعله في اخبار الجرائد اليومية اقرب الى الحقيقة منه في خيال الريحاني !

٣) انتم الشعراء ، ص ٦

ونترك للقارئ امر الحكم في فكاهتها !

اما الخمس عشرة وصية الاخرى التي وردت في آخر الكتاب فهي جديّة حسنة على الاجمال لا عيب فيها غير انها قيلت الف مرة ومرة قبل الريحاني. والجديد منها — وهو القليل — سخيف تافه كمثل هذه :

« وقبل كل شيء وبعد كل شيء. كفكفوا دموعكم — كفكفوا دموعكم فالشمس لا تزال لكم ، والقمر لا يزال رفيقكم ، والربيع لا يخونكم »[1].

اما مناجاته لربة الشعر فهي من نوع ما يكتب ويقرأ للتسلية ، فليس فيها ما يجدر بالذكر.

الا ان حديث ربة الشعر للريحاني مشبوه به واعتقد ان اديبنا خاطب واحدة من وصائف ربة الشعر متعددة في الخدمة لا تفهم عن ربتها تمام الفهم ولا يمكنها افهام ما فهمته منها. فجاء حديثها للامين على نقص ظاهر بيّن.

الشاعر والوطن

ولننتقل الان الى القسم الاخير من الكتاب حيث وضع المؤلف المقالات الثلاث: «الشاعر والوطن» ، «الشاعر والفيلسوف» ، « الالم الشخصي والقومي».

فالشاعر والوطن ، رغم ما يوحيه هذا العنوان من المعاني والابحاث النافعة ، اشبه بصفحة من مذكرات اديب منها بمقالة يُراعى فيها البحث والتمحيص والانتقاد المتزن. وهي ، ان رجحت في عيون قارئيها ، تعتبر كمقدمة صغيرة لها جميع صفات المقدمات من المحاباة والقول المالق الجاري مع جري القلم دون تفكير ولا تنسيق.

اما ما تبع هذه المقالة « كالشاعر والفيلسوف » و «الالم الشخصي والقومي» ففيها بعض ما نترقعه من الريحاني. الا ان ما ادخله عليها من السياسة المحلية افسد غايتها وباتت حسناتها القليلة غرقى في بحر من السخافات.

... وعلى كل ان في عناوين هذه المقالات اكثر مما في مادتها ، فالعنوان منها في وادٍ وهي في وادٍ...

* * *

١) انتم الشعراء ، ص ٩٢

الانشاء

قد يكون انشاء الكتيّب من النوع الذي يُطلق عليه ارباب الادب والنقد اسم السهل البسيط ، وهو الذي يستعمله معظم الصحافيين في يومنا . على ان الريحاني يشوّه هذه البساطة احياناً بما يتعمده من السجع المضحك ، وبما يكثر فيه من الحشو وتكرار الكلمة الواحدة في مواقع عديدة ، كما يتراءى ذلك من النتف المذكورة في انتقادنا . . . وكثيراً ما نعثر باغلاط نحوية واملائية تدلّ على ان الريحاني يتساهل كثيراً وقواعد النحو واللغة . فان صحّ ان الانشاء هو الرجل ، فيجب على الريحاني ان يكون متساهلاً وديعاً . . .ولكننا نراه على جانب عظيم من القوة والشدة فهو لا يبكي ويطلب من مواطنيه ان لا يبكوا . . . فيا لاجتماع النقيضين ! ! !

ثم ان من يُمن النظر قليلاً في طريقة المؤلف ولهجته يتحقق انه من ارباب الاعلان ومحبي الطنطنة ، كأنه من اولئك التجار الذين يبذلون جهداً كبيراً في نشر الدعاية لبضاعتهم وعرضها على الناس على الوجه الامثل . فاذا رأيت مثلاً تحت هذا العنوان: «الشاعر والوطن » وهذا: « الالم الشخصي والقومي » وغيرهما ؟

والريحاني ثرثار في ادبه . خذ المقالة الطويلة من مقالاته واقرأها وتفهم ما حوته سطورها ثم عد واحصرها في مفكرة لك فهل تشغل فيها الخمسة الاسطر . وقد تنجلي لنا هذه المزية في وصاياه الـ ٢٠ التي تعود كلها الى وصيتين او ثلاث ، وفي المراجعات التي نلمسها في كل مقالة من مقالاته .

والريحاني كثير النظريات قليل الاثبات . لا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتابه من نظرية او اثنتين ، وقلما تجد في المؤلف اجمع برهاناً او حجة او استشهاداً للاثبات .

وان في ادب الريحاني ميزة خاصة هي : اجتناب كل ما هو صعب متعب : ان ايجاد البراهين لشيء صعب مؤلم ، فلا كانت البراهين ! ان الاستشهاد باقوال هذا الشاعر وذاك من شعرائنا الباكين المزعومين يتطلّب قراءة دواوين وقصائد عديدة وكل هذا متعب صعب ، فسلام على الاستشهادات والف سلام . وصعب ايضاً ان يتذكر ما قاله في ابتداء حديثه لكي لا يناقض نفسه فيما سيقول ، فيا

ما احيلى التناقض عند التعب ! ويظهر هذا التساهل التام باتم مظاهره في انشائه الذي سبق الكلام عنه . ورأى ان تعليل هفوات الشعراء ونقائصهم صعب متعب فاقلع عن تعليلها واكتفى بالذكر ، وهيهات ان يكفي الذكر .

واليك مظهراً جديداً من عقلية الريحاني : انه يسير بالوهم وينطلق فيه انطلاق غيره في الحقيقة . فمن قوله : « في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة ... » الى قوله : « اننا اكثر بكاء واشد انتحاباً من جميع الشعوب... » الى غيرهما من اقواله نراه يخبط في الوهم خبط عشواء.

ومن مجالي هذا المظهر الجديد الذي لمسناه في عقليته انه يتكلم عن اداب الافرنج وعن اداب الافرنسيس خاصة كعارف خبير ، وهو على ما يظهر اقل الناس علماً بها . ويثبت ذلك قوله : «لا اظنك تجد من الدموع في شعر الامم الاوربية كلها مقدار نصف ما عندنا في الشعر العربي ولا اظنني مبالغاً» . وقد اظهرنا العكس . وقوله : «الشعراء الكبار كالمعري وهينه ودهموسه قاسوا من الام الحياة وانواعها ولكنهم لم يبكوا . لا لم يذرفوا الدموع» وقد اثبتنا العكس كذلك .

اجل نحن الشعراء !

هذا ومما يزيد مصيبتنا « بانتم الشعراء » انه سبب لنا مؤلفاً آخر قام بتأليفه ثلاثة وسموه باسم «اجل نحن الشعراء !» وهو اسم معنوي ؟ دليل على ماهية الكتاب ، كما سترى مما سنذكره في هذا الصدد .

« اجل نحن الشعراء » كتيب لا يزيد حجماً عن « انتم الشعراء » الا سنتيمتراً واحداً في الطول . اما العرض فهو هو في المؤلفين . قد وقع في ١٣٠ صفحة منترة من اسفل ، كما في « انتم الشعراء » . طبع في مطبعة « خليفة اخوان » في بيروت ، على ورق صقيل لا يختلف البتة عن ورق « انتم الشعراء » وباحرف هي الاحرف نفسها التي طُبع بها كتاب الريحاني وقد غُلّف بورق يشابه بطبيعته غلاف « انتم الشعراء » .

اما ماهية هذا المؤلف الصغير من حيث الادب فهو معارضة — لها جميع صفات المعارضات — لكتاب الريحاني المذكور .

نعم ان « اجل نحن الشعراء » لمعارضة « انتم الشعراء » . عارضه بالطول والعرض ، والحرف ، والورق ، ونوع الطبع .

« واجل نحن الشعراء » يعارض « انتم الشعراء » باسمه ، وهذا واضح لا حاجة للتوقف عنده ، خاصة عندما نعلم ان « اجل » قد طبعت بالحرف الرفيع و « نحن الشعراء » بالحرف الغليظ العريض . وهو معـارضة « لانتم الشعراء » بترتيب مقالاته وبمحتوياته ، والبرهان واضح لمن يطالع الكتابين ، وان مطالعة سطحية . واننا مظهرون هذه المعارضة فيما يلي ، مردفون ببحث سريع عن اسلوب النقد المتبع في كتاب « المثلث الشعري » .

لقد جاء في فهرست « انتم الشعراء » ما ذكرناه آنفاً من عناوين المقالات . وها نحن نذكر الان ما جاء في فهرست « اجل نحن الشعراء » من العناوين : قارب تذوب — داء البكاء — عشر وصايا للشعراء والفلاسفة (و « الفلاسفة » زيادة من عنـديات المثلث) — ربة الشعر — الشاعر والوطن — الشاعر والفيلسوف — الالم الشخصي والقومي — الدموع — دموع الشاعر — ندب وانتداب .

ويرى القارئ ان لا فرق بين عناوين كتاب « المثلث » وعناوين كتاب الريحاني ، كما ان لا فرق في ترتيب هذه العناوين . اما مزيدات « المثلث » فهي القسم القليـل من الكتاب ، وهي الواردة تحت هذه العناوين : مقدمة نحن الشعراء — النـاقد — تحديد الادب — الادب الباكي لا بل الادب الحساس — نواحي الشعر الاربع — وهذه : نصائح للاستاذ الريحاني .

اما القسم الاول الذي ذكرناه قائلين انه معارضة « لانتم الشعراء » فقد جاء على وتيرة واحدة . ولهذا فاننا نخصّ له في نقدنا قسماً واحداً واما ما جاء تحت العنـاوين الجديدة — وهو القليل كما قلنا — فله ميزة تفرقه عن القسم الاول . وهذه الميزة هي انه لا يمكن عدّه معارضة « لانتم الشعراء » ، وهو قسم سنتناوله بالنقد على حدة مبتدئين به منتهين بالقسم الثاني .

يفتتح « المثلث » مقدمة الكتاب بكلمة تأوه على هبوط رجالات الادب العربي في الشرق من مكانتهم الرفيعة الى دركات « كانوا في غنى عنهـا »

ويخص بالذكر الريحاني . وقد ذكر محاولات الاستاذ ونيّاته في كتاب « انتم الشعراء » قائلاً : « انه تحرّى ان يذرّ على العيون الرماد » [١] « وتجريد نفسه من نزوات الجريح المهشم » . وقد اتهمه « المثلث » في سياق ذلك بالغش والخداع ، وزيّف عليه وطنيته قائلاً انها تدرّ عليه « موارد مادية فائضة » [٢] . وقد قال ان محور الكلام في كتاب الريحاني « النيل من شخصية في لبنان محترمة صاحب الاغنية المعروفة « الهوى والشباب » [٢] خاصة والحط من منزلة الشعراء والادباء عامة . . . وقد انذر « المثلث » الريحاني « بافول نجمه » [٢] .

ويذكر « المثلث » بهذه الاثناء برنامج اعماله مما سيطالعه الاديب في كتابه ، وما سيلمس فيه من الذود عن ادباء الشرق وشعرائه . وقد عاد « المثلث » وقال ان سكوته عن الريحاني وكتابه جريمة ، وزاد ان المطالع يتعثر في هذا الكتاب بكلام بذيء جارح واغلاط نحوية بيانية يضرب صفحاً عنها ، وهو يذكر قبل الانتهاء معايب « انتم الشعراء » . . .

صفات هذه المقدمة عدم الترتيب قبل كل شيء ، فالمؤلفون يعلنون برنامجهم وغايتهم من كتابهم في اثناء الحديث عن الريحاني ، وهكذا يتراءى لنا هذا الحديث مبتوراً . ثم هناك ملاحظات لا فائدة منها كالتنبؤ بافول نجم الريحاني . . .

وما ان ينجز « المثلث » مقدمته هذه الا وينطلق في بحث عن « الناقد » ذاكراً في الابتداء كلاماً لسنت بوف ـــ دون الاشارة طبعاً الى مصدره ـــ ومقطعاً « لصديق اديب في البرق » ـــ ولا اشارة هناك لعدد البرق المذكور ـــ جاء فيه تحديد للادب ، وكلام منقول عن « امرسون » في الادب ـــ دون الاشارة الى مصدره كذلك ـــ ويعلق عليه ما صحّ له من الاقوال والاحاديث .

وقد جاء على إثر ذلك مقال في « الادب الباكي » فوعدنا « المثلث » « بتحليل » [٤] هذا الادب وانطلق تاسياً وعوده ، عابثاً بحرمتها ، مقدماً عن

---

١) اجل نحن الشعراء ، ص ٣
٢) اجل نحن الشعراء ، ص ٣
٣) اجل نحن الشعراء ، ص ٤
٤) اجل نحن الشعراء ، ص ١٢

التحليل الذي يتطلّب تعباً وعناء وقوة عقلية . . . الى ايراد ابيات منها ما يعود الى مراثي الاخطل الصغير ومنها ما يعود الى شعر امين نخله من ذاك « الشعر الاخضر العابق بالافراح والنسمات والذي ملْ برديته الوان وشعور وحياة » [١] كما قال بادلًا تحليل « الشعر الباكي » بشواهد من « الشعر الضاحك » كأن لا فرق عنده يذكر بين التحليل والاستشهاد .

وما ان فرغ من كلامه في « الناقد » حتى انتقل الى كلام له في « نواحي الشعر الاربع » الحس ، الخيال المقيّد بالعقل ، قوة التصوير ، واخيرًا التعبير . فشحنها بتعروفات عامة منها الصالح ومنها السخيف وكان الاولى به ان يستبدل بها تحديدات موجزة تامة تفهم المطالع ماهية كل ناحية من نواحي الشعر المذكورة .

هــذا فضلًا عن انه فصل قوة التصوير عن الخيال وهي نتيجة من نتائج الخيال ؛ فالخيال الحاد ينتقل بصاحبه الى عوالم خفية حيث المحاسن والجمــال وحيث يعتقد المنتقل نفسه انه في عالم الحقيقة لقوّة خيــاله الذي يريه الاشياء الغائبة كما لو كانت موجودة يرمقهــا بعينيه . وما يثبت ان قوّة التصوير هي نتيجة من نتائج الخيــال ما نراه من ان تصوير المرء للاشياء او تصوّره لها يكون قوياً جليــاً عندما يكون خياله قوياً حادًا ؛ ففكتور هيجو مثلًا ان تصوّر شيئاً فهو يتصوّره بقوّة تامة . تأمل كيف تصوّر معركة وترلو ؟ واحيا ابطالها ؟ وكيف تصوّر الراقصة الاسبانيــة تتنقل من سطح الى سطح ومن آجرّ الى آجرّ ؟ ذاك لان هيجو كان حادّ الخيال واسعه .

ونحن نضرب صفحاً عما جاء في النصائح التي خصها « المثلّث » بالإمام الريحاني .

وقبــل الانتقال الى القسم الثاني من النقد ، اي الى القسم الذي يعارض فيه « المثلّث » كتاب « انتم الشعراء » ، يجب ان يعلم القارئ ان كل مــا انتقد الى الان ، اي القسم الذي يخرج عن المعــارضة ، جاء في ما لا يزيد عن العشرين صفحة وما يبقى من الـ ١٣٠ صفحة فمعارضة تامة .

فاجتناباً للملل واعفــاء للقراء من عبء ثقيل ، نقتصر في القسم المعارض

١) اجل نحن الشعراء ، ص ١٤

الذي يتشابه في جميع اقسامه ، على عرض اسلوب النقدة ونقده حيث يستلزم النقد .

ولا نتعرض لكل مقالة بمفردها مختصرين ملخصين كما صنعنا في نقد كتاب الريحاني لان « اجل نحن الشعراء » ، وخاصة في القسم الثاني ، لا فكر فيه يستدعي النقد ، وانما هو في مجمله فكاهات ونكات تتبرأ خفة الروح من اكثرها .

ونحن ان توقفنا عند هذا المؤلف الصغير فلأن اسلوب النقد الغث الذي وصفناه في مقال سبق نشره في المشرق [١] متجسم فيه وظاهر بكل صفاته ومميزاته .

فضلاً عن الشتائم والسباب التي ذكرنا شيئاً منها في مقالنا « اعاجيب النقد الحديث » ، وفضلاً عن الادعاء والغرور والاعلان التي افصحنا عنها ، نرى في « اجل نحن الشعراء » كيف ان نقدة اليوم يعرضون انتقاداتهم .

فهي تعرض جميعها على هذا النمط : انهم يذكرون مقطعاً من المقال المنتقد ويعارضونه بمقطع آخر شاحنينه بالتهكم المستهجن، او انهم يعلقون عليه ملاحظة تافهة . وهاك مثلاً على ذلك :

لقد جاء في كلام للريحاني صادر عن ربة الشعر [٢] : « ولكنهم في شرقك العربي مسخوا اسمي وشخصي فأسموني شيطاناً وحملوني دناً فارغاً طيب الرائحة ومصباحاً دخانه اكثر من نوره وقالوا للشعراء : اتبعوا شيطانكم فتبعوه الى دور الامراء والى المقابر مديح ورثاء ورثاء ومديح ... »

وكل ما يقوله النقاد تعليقاً على ذلك : « رويدك ايها الريحاني ، رويدك ايها القابض على زمام الحكم في الشريعتين الادبية والفلسفية رويدك ولا تنزل صواعق غضبك على الشعر والشعراء ! » [٣]

وهم ان قرأوا للريحاني مثل هذا المقطع : « ربة الشعر اعدلي فينا ، ربة

١) المشرق (٣١ [١٩٣٣] ٩٣٢)
٢) انتم الشعراء ، ص ١٣
٣) اجل نحن الشعراء ، ص ٣١

الشعر انصفينا . » وهذا : « اسمع وع ان عندكم الكل وتر من اوتار الوحي شاعراً يفوق جميع الشعراء . عندكم المتنبي في فخامة القول والحماسة والمعري في حرية الفكر والحكمة . . . اما الافرنج فانك لتجد كل هؤلاء في شاعر واحد كبير من شعرائهم . . . »[1] يعلقون عليه : « لماذا كل هذا الاضطهاد الاعمى يا ابن الفريكة ؟ وعلامَ هذه الثورة على الشعر والشعراء ؟ ألانهم ملأوا خزائن الادب بمؤلفاتهم الضخمة التي اخذت عنها فلسفتك وحكمتك وادبك ؟ »[2] .

يقولون ان هذا اضطهاداً — وهو في الواقع اضطهاد — ولكن ايظهرون للملأ ان الريحاني في قوله هذا اضطهد الشعراء ؟ ايقولون لماذا ؟ لا فتزعجهم نزعة الامام : التأكيد عندهم يغني عن الاثبات وهو حجة . . . وبرهان . . . فهم كالامام الريحاني انصاف آلهة . . . هم الحق او منبثقون من الحق .

وما جاء على غير هذا النمط في انتقاداتهم فهو على هذا :

« . . . يا فيلسوفنا ما كان اغنانا عن كتيبك « انتم الشعراء » وما كان اغناك عن هذه الناحية من النقد تتخذها عوناً لاظهار الحق الموهوم بحجج ضعيفة وبراهين سخيفة فتنقلب على مقامك الادبي المعروف انقلاباً محزناً مؤسفاً »[3] .

ونحن نقرأ « اجل نحن الشعراء » من ألفه الى يائه ولا نرى مقطعاً واحداً يظهر فيه اصحابه « حجج الريحاني الضعيفة » « وبراهينه السخيفة » على كونها كثيرة .

فيصبح ان هؤلاء النقدة يرون بعض ما يجب ان يرى في المقال او الكتاب المنتقد، ولا يعرفون كيف يظهرونه للادباء . ويخيال لي انهم ، ان رأوا السخافة والركاكة وضعف البراهين ، يعتقدون ان غيرهم رآها مثلهم فلا حاجة للاشارة اليها واظهارها .

ومن اعاجيب هذا النقد الحديث ان الناقد يخال منتقده كمبارز له . وكما ان المبارز يوجه طعناته الى صدر عدوه للتشفي والانتقام ليس غير ، فعلى الناقد اليوم ، ذي الاسلوب المستحدث ، ان يوجه كلامه للمنقود مباشرةً وقصده جل

١) انتم الشعراء ، ص ١٣–١٤
٢) اجل نحن الشعراء ، ص ٢٦ و٢٧
٣) اجل نحن الشعراء ص ٢٤

قصده اداء قلبه وجرحه بشهرته وسمعته. وانما ذاكرون مقطعاً من « اجل نحن الشعراء » للاستشهاد . ففي مقالهم « ربة الشعر » مثلاً نسمعهم يرددون بين الفترة والاخرى :

« رويدك ايها الريحاني ، رويدك ايها القابض على ...

« ألم تقع عينك يا استاذ الا على ...

« الم تعِ ذاكرتك الواسعة سوى ... يا استاذنا الكريم ... لقد اخطأت المرمى هذه المرّة ، يا سيدنا ... انت تريد ان تحرق الشاعر الذي ... تريد تقول ... يافيلسوفنا ! ما كان اغنانا عن ... يا سيد، انه لا يزال لك في قلوبنا ... لماذا كان هذا الاضطهاد الاعمى يا ابن الفريكة ؟ وعلامَ هذه الثورة على الشعر والشعراء ... لماذا ؟ ... التي المعول عن كتفك ... فاسمح لنا اذاً ان نقول لك ... بربك من اين تولد كل هذا ... انك قمت تدعو الى ... خذ لك هذه القنبلة ... »

وهنا تنفجر قنبلة « المثلّث الشعري » فاعوذ بالله !

ومـا ان تنفجر القنبلة ويسود الهدوء الا ويعيد « المثلّث » كرّاته الاولى قائلاً : « اجل لقد كان الاولى بك يا سيد عندنا ... فاسمع يا رعاك الله ... » ثم يصبح المنتقَد عليه « ذا وجهين ولسانين » ...[1]

***

هـذا ما يتقنه نقادنا من فنون النقد الادبي ، من الريحاني الى اصحاب « اجل نحن الشعراء » . ويجب الا ننسى ان الريحاني مبتدع هذا الاسلوب ، ومبتكر هذه الطريقة . وكأنّ الله اراد ان يعاقبه من حيث اخطأ فرماه بمن يغربله بغرباله ، فكان ضحية طريقته . ومن الظلم ان نطلب من جمهرة هؤلاء النقّاد فوق ذلـك ، فهو يخرج عن مقدورهم ، بل يخرج عن اسلوب « النقد الحديث » هنأهم به الله ! وحياهم ! وبيّأهم !

---

١) اجل نحن الشعراء ص ٢١ الى ٤٥ .

جرمانوس فرحات

العامل في خدمة النفوس

بقلم الاب توتل اليسوعي

توطئة

في السنة السابعة من « المشرق » نشر المرحوم الاب جرجس منش مقالًا ممتعاً عنوانه « المستطرفات في حياة السيد جرمانوس فرحات »(١) تكلم فيه عن أسرة المترجَم، ومولده في الشهباء في ٢٠ تشرين الثاني ١٦٧٠، ومجيئه الى لبنان، ودخوله الرهبانية سنة ١٦٩٤ ودروسه ورئاسته، واسفاره، وسيامته رئيس اساقفة حلب في ٢٩ تموز ١٧٢٥.

وافرد الكاتب فصلًا خاصاً للمؤلف ختمه بلائحة آثاره فاذا فيها ٣٧ كتاباً من المبتكرات، و٣٩ من المصحَّحات، و١٢ من المعرَّبات، و١٦ من المختصرات. ولعلّ هناك غيرها.

وانا، بمناسبة اعياد يوبيل المئة الثانية لوفاة المطران جرمانوس فرحات التي أقيمت في حلب في ٢٠ ايار ١٩٣٤ وتبارى فيها الخطباء والشعراء، رأينا ان ننظر في ناحية من نواحي مؤلفاته المتمثلة فيها فضائل العامل الرسولي وتعاليمه.

***

للعامل الرسولي في كرم الرب مزيّتان جوهريتان او مهمتان عظيمتان لا بدّ منهما ليحسن القيام بواجبه الالهي، وهو الوسيط بين الله والشعب. عليه اولًا بالصلوة ليكلم الله عن الشعب، وعليه ثانياً بالوعظ ليكلم الشعب عن الله. والدليل على ذلك قول الرسول: « انا نواظب على الصلاة وخدمة الكلمة » (اعمال ٦: ٤) فالعامل الرسولي، خادم الكلمة، اشبه بالملاك الذي رآه يعقوب

١) المشرق ٧ [١٩٠٤] ٤٦، ١٠٥، ٢١٠، ٣٥٤

بالحلم صاعــداً منحدراً على السلم السرية التي تربط الارض بالسماء ، وذلك بصلواته التي يستنزل بها النعم من السماء على الارض ، وبمواعظه التي يرفع بها القلوب من الارض الى السماء ويهدي المؤمنين طريق الخلاص.

ذكر صاحب « المستطرفات » ولعَ المطران جرمانوس بالصلاة ، وقد جُبل قلبه بالتقى منذ صباه ، ثم سافر من حلب الى لبنان ، فكان يقضي الساعات الطوال بمناجاة ربه ويرتقي بمناظر الجبال والمحاسن الطبيعية الى التأمل بصفات الله تعـالى ، فيتحدث عنها وعن تقديسه ويتغنى بها في قصائده الصادرة عن فؤاد مشغف بحب الباري .

من يستطيع الكشف عن اسرار النفس في منـاجاة ربها ومن اين لنا في كلامنا على صلاة فرحات ان نكشف عن اسرارها ؟

لدينا مـــا وضعه من المؤلفات الروحية ، فعليها نعوّل في معرفة شخصيته الروحية . ولدينا تعاليمه في الصلاة : فمنها نطلع على احوال نفسه وبها نهتدي الى تتبع تأثيره في غيره.

لمـــا دخل فرحات الدير في الجبل وجد كتباً روحية كثيرة منسوبة للآباء القديسين الشرقيين ، فاعمل في بعضها قلمه ملخصاً او مفسراً او مقتبساً منها ما رآه نافعاً لنفسه ولغيره . هي نسكيات باسيليوس ، وميامر الآباء القديسين ، والسلّم ، وبستان الرهبـان ، وغير ذلك مما يغذي به الرهبان نفوسهم . على ان فرحات اطلع ايضاً على كتب المؤلفين الغربيين وعنهم اخـذ لذاته ولرهبانيته. فظهر تأثير التعاليم الغربية في تثقيف فرحات الروحي بكونه استفاد من مطالعاته الشرقية والغربية مواد عديدة تمثلها ، ثم اقبل على الكتابة والكلام.

وقـــد اخترنا من مؤلفاته اربعة : اثنين مطبوعين ، وهما كتاب « الرياضة الروحيـــة » ، وكتاب « فصل الخطاب » في الوعظ ، واثنين لم يطبعا بعد ، وهما « رسوم الكمال » وتفسير المزمور « ارحمني يا الله » . فلمسنا فيها الى جنب تأثر فرحات بكتب الغرب تأثيره في الحركة الفكرية الدينية في الشرق

لا يفوتنـــا ان قيمة الابتكار ضعيفة في هذه المؤلفات . فكتاب الرياضة انمـا هو رؤوس اقلام اخذاً عن كتاب رياضات القديس اغناطيوس ، مؤسس

الرهبنة اليسوعية . وكتاب تفسير « ارحمني يا الله » معرّب عن الاب ايرونيموس الدومينيكي . وليس كتاب رسوم الكمال الا خلاصة مختصرة جداً لكتاب الكمال المسيحي لرودريكس اليسوعي . اما كتاب الوعظ فتأثير السلف فيه بيّن ، لان الموضوع شائع في عالم الاكليروس منذ القدم ، وقد سبقه كثير من الكتب اخذ عنها فرحات في تأليف كتاب فصل الخطاب.

على ان مزية الابتكار ليست مفقودة تماماً من تلك المؤلفات ، ونسبة المواد الى مؤلفها الاصيل لا تمحو فضل مترجمها وهو الذي اختار الكتاب دون سواه لتقديره اياه ، واعمل فيه رويته ، فادّى معانيه باسلوبه الشخصي والبسه ثوباً من عندياته ، وابرزه ملوناً بالوان مخيلته ، مطيباً بعطر شاعريته ، مهندماً بهندام الاسلوب التعليمي الذي الفه في درس وتدريس الصرف والنحو والادب.

فاصطبغت من ثم هذه المؤلفات ، وغيرها من مؤلفات فرحات ، بصبغة نالت من عبقريته واسلوبه النحوي ميزةً خاصة أقلّ ما يقال ثناء عليها انها عبّرت عن روحيات الدين المسيحي بلغة لم يألفها السلف وعلمتها الخلف . ومن صفاتها الوضوح ، وضبط المعاني باللفظ العربي الفصيح المأنوس يفهمه الكبير والصغير ، وذلك بتراكيب متينة تشبع العقل اذا ما ساغ فحوى الكلام . فما ان تقرأ صفحة من كتب فرحات الروحية حتى تتحقق فيها طعمة الجديد المستحدث ، كأنها خرجت من قلم احد الكتبة المجيدين محرّري المجلات التقوية في عصرنا ، عصر النهضة .

كتاب الرياضة الروحية

هو كتيّب طبعه لاول مرة الخوري بطرس حبيقه في المطبعة الشرقية في الحدث سنة ١٩٠٤ بقطع ١٦ صغير و٩٨ صفحة.

ليس من شأننا ان نعرّف القرّاء برياضة القديس اغناطيوس ، وحسبنا القول ان كلها موجودة في كتاب جرمانوس فرحات: باسابيعها او اقسامها الاربعة، وتعلقاتها وسائر ما صُدّرت به وذُيلت به مساعدةً للمرشد وللمتروض . وان

معالجة المواد في رياضة فرحات تُظهر عقلًا ثاقباً وقلباً مضطرماً بنار المحبة والغيرة.

قد كثرت في ايامنا كتب التأملات الروحية مع ازدهار المطابع ، وكثر والحمد لله ، عدد الوعاظ والمرشدين ، المقتدرين المنورين ، فلاحت من ثم على كتاب فرحات خطط الهرم وفات اوانه او كاد ، ومع ذلك ففيه الجدد والعتق التي يخرجها من كنزه الحكيم وهي حريّة بان تتناولها ايدي المؤمنين وعلى الاخص ايدي الاكليروس . وليس ظهور غيرها من المؤلفات الروحية لينسينا فضل واضعها منذ نيّف ومئتي سنة ، وقد كانت له الايادي البيضاء في تعميم ممارستها بين الرهبان وبواسطتهم بين الشعب.

يتبع المطران جرمانوس القديس اغناطيوس في اكثر خطواته . وربما ابتعد عنه في مواضع يعدها اختصاصيو الرياضة جوهرية بالنسبة لاهميتها في سياق الرياضة.

حدّد القديس اغناطيوس الرياضة واستعار التشبيه ، تعبيرًا عن فكرته فيها ، من حياة الجندي في السير ومحاربة العدو ، دالًا بذلك على ما يريده من المتروض وهو ان يتجند في خدمة الرب.

اما فرحات فيحدّد الرياضة باستعارات دالة على الهدوء والعزلة في حياة الانفراد فهي في تعبيره « بيت لحم طالب الكمال » . وبينا نرى الرياضة في نظر القديس اغناطيوس لا تحث المتروّض مباشرة وبادئ ذي بدء على الكمال ولكن على ازالة الموانع التي تحول دونه ودون معرفة ارادة الله وبلوغ الكمال، نرى فرحات يحث المتروّض حالًا على الجد في سبيل الكمال . كانه يعرب بذلك التسرع عما حدث في حياته الروحية ، اذ انه حال دخوله الرهبانية اتخذ الكمال هدفاً لجهوده ، وكان منذ زمان بعيد قد قطع مراحل المبتدئين التي نوّه بها القديس اغناطيوس ، او اجتازها طفرًا ولم يختبر ما اختبره مؤسس الرهبانية اليسوعية من المصاعب والعقبات في تحوله من حياة الجندية في العالم الى حياة التجند في خدمة النفوس.

متى الف فرحات الرياضة الروحية ؟

ان صيغتها الواضحة البنيان وموادّها الغزيرة تدل على عقل مختمر ومعرفة

بالروحيات لا يحصل عليها الا من قضوا السنين العديدة في الحياة النسكية ومارسوا الرياضة لا مرّة ولكن مرّات.

وان ما نعرفه عن البيئة الصالحة التي نشأ فيها فرحات في حلب، وعن حياة الاخويات فيها، يرجح في نظرنا كون فرحات تعرّف الى رياضة القديس اغناطيوس وهو شاب في اخوية الموارنة في بلدته. ليس بين يدينا تعليات على حياة الاخوية ايام شباب فرحات، ولكن نعرف، من مخطوط محفوظ في المكتبة الشرقية عنوانه «اعمال اخوية العزبان الارمن في حلب» وصفه الاب شيخو في مخطوطاته في عدد (٣٩)، ان الاخويات في ذلك العهد كانت ناجحة في كل الطوائف، وكان الشبان يعكفون على ممارسة الرياضات، ومن ثمّ كان بعضهم يترك حلب ويسافر الى لبنان للدخول في الرهبانية. فكان فرحات من هؤلاء الشبان فتروّض واتخذ الرياضة من بعد آلة للجد في سبيل الكمال، كما اعرب عن ذلك في اول كتابه.

جاء في تاريخ الرهبانية اللبنانية للاب بليبل (١: ٣٠) انه في سنة ١٦٩٩ دبّ الخلاف بين عمدة الرهبان المؤسسين. وذلك ان بعضهم كان يتردد على دير الآباء اليسوعيين في طرابلس، فيتشرب روحهم ويعود الى الدير في الجبل طالباً ان يتخذ الرهبان اللبنانيون غاية الرهبانية اليسوعية غايةً لهم، وذلك بان يقرنوا بين الاعمال الرسولية كالتبشير والتعليم وبين حياة النسك. وكان غيرهم يرفض هذا الطلب، فانقسموا رأياً. وملّ فرحات ذلك الخلاف وابتعد عن اخوته مدة زهاء خمس سنوات. ولم يخبرنا الراوي هل كان الاب جبرائيل فرحات ممن كانوا يريدون اتخاذ الرهبانية اليسوعية مثالاً لهم ام لا. لكننا لا نخطئ الظن في القول ان ميل فرحات الى حياة العزلة اقوى منه الى حياة الاحتكاك في العالم، وان يكن عند سنوح الفرصة قد خرج من الدير إما للتعليم، او للوعظ، او للتجول في سبيل مصالح الرهبانية. ولولا حبه العزلة والانفراد لما كان استطاع ان يسطر ما سطره، ويؤلف ما الفه من الكتب العديدة في حياة لم تتجاوز الاثنين والستين عاماً، ونسق الرياضة كما قلنا يؤيد هذا الزعم.

كتاب رسوم الكمال

لدينا منه نسخات ثلاث مخطوطة . ليس الكتاب طويلًا ، وقد يسمى ايضاً « مختصر الكمال » يُقرأ في اوله بعد البسملة المسيحية : « هذه رسالة مختصرة عدد فصولها عشرون ، وضعها جبرائيل فرحات الحلبي رئيس اللبنانيين العام وهي بمنزلة الايضاح لرسوم الكمال ، وسماها مختصر الكمال المسيحي » .

من المعروف ان كتاب رودريكس مطبوع بثلاثة مجلدات ضخمة وعنوانه كتاب الكمال المسيحي ، فـان يكن اقتبس عنه الاب جبرائيل معربه ، فالامر طبيعي ، وعناوين فصول الرسوم موجودة كلها في كتاب رودريكس : محبـة الله ، الكمال ، احوال المرشد ، فحص الضمير ، كشف الافكار ، التوبيخ الاخوي ، الاستعداد للتنـاول ، رصد العقل ، استحضار الله تعالى ، التقدمة اليومية ، الصلاة العقلية ، الرياضة ، ظروف الحدوث ، الصبر ، الادب والاحتشام ، اماتة الذات ، الاتضاع ، مطابقة الارادة ، حفظ الرسوم .

وللكتاب جزء ثانٍ وفيه بعد البسملة ما يلي :

« هذه رسوم عددها عشرون رسماً وضعها جبرائيل القس الحلبي رئيس الرهبان اللبنانيين العام بمنزلة قوانين تقتدي بها النساء المتعبدات وهن في العالم مزوجات وغير مزوجات » . واليك عناوين الفصول :

الطاعة ، الطهارة ، الفقر الاختياري ، اللبس ، السكنى ، المايدة ، العمل والسكوت ، الحضور الالهي ، الصلاة ، فحص الضمير ، الاعتراف ، تنـاول القربان المقدس ، المحبة ، الادب والاحتشام ، الصبر ، النسك ، اماتة الذات ، التواضع والوداعة ، المرض ، حفظ هذه الرسوم .

والكتاب مقسوم بنوداً بنوداً في كل فصل وفي كل جزء ، كما تقسم الكتب المدرسية لتسوغ مادتها ذاكرة التـلاميذ . وقد تظهر فيها فكرية فرحات واسلوبه وهو الاستاذ النحوي ومعلم البيـان . اليك في الفصل الرابع عشر من الجزء الاول : « في ظروف الحدوث » كيفية تعليمه استنباط المواد للتأمل ، نروي الفصل مثالًا ونصونه من الضياع بطبعه .

الفصل الرابع عشر

في ظروف الحدوث

قال داود النبي في المزمور المايه والثامن عشر
سبع مرات في النهار اسبحك على احكام عدلك

اعلم ان ظروف الحدوث سبعة وهي مَن وما واين والالة ولماذا ومتى وكيف.انه ليمكن لنا ان نوجه هـذه المرات السبع التي ذكرها داود النبي نحو هذه الظروف السبعه التي يظهر بها احكام الله وتدابيره حكاها لان بلفظة مَن يبان لنا فاعل حكمه وبلفظة ما يبان مفعول حكمه وبلفظة اين يبان مكان حكمه وبلفظة الالة المولد بماذا يبان واسطة حكمه وبلفظة لماذا يبان علة حكمه وبلفظة متى يبان زمان حكمه ولهذا اسميت هذه الكلمات ظروف الحدوث لانها حاوية كل ما يحدث في الكون من خير وشرور فضيله ورذيله

مثال ذلك في خير الله منا

من خلصنا ؟ – هو الله القادر على كل شيء غير المحتاج الى خلاصنا
ما الذي عمله ممنا ؟ – خلصنا من ابدية جهنم
اين وضعنا ؟ – في ابدية السما الكامله سعادتها
بماذا خلصنا ؟ – بتجسده واتضاعه
لماذا خلصنا ؟ – لنحبه ونخدمه ونعرف احسانه ممنا
متى خلصنا ؟ – حين كنا خطاه اشقيا اعدا الله
كيف خلصنا ؟ – بالامه وصلبه وموته المملو عارا

في شر الانسان

من هو فاعل الشر ضد الله ؟ – هو انسان تراب ضعيف حقير
ما الذي فعله هذا الانسان ؟ – عصى الله خالقه المحسن اليه دايما
اين فعل الشر ؟ – امام الله فاحص القلوب والكلى بغير خوف ولا حيا
بماذا فعل الشر ؟ – بارادته الموجه المنحرفه عن الطبيعه
لماذا فعل الشر ؟ – ليكرم ذاته ويحتقر خالقه ليحب نفسه ويبغض الله الذى احبه دايما وبدل نفسه عن خلاصه
متى فعل الشر ؟ – حين افاض عليه مواهبه وانعامه بواسطة الايمان الكاثوليكى الرومانى واعطاه اسباب الخلاص بيد المرشدين
كيف فعل الشر ؟ – خالف وصايا الله مخلصه وجدف على ربه قايلا مع فرعون المنافق م هو الرب حتى اطيع صوته فانني لا اعرفه

في الخطية

من هو فاعل الخطيه ؟ – هو الانسان الذى هو تراب ورماد بالنظر الى الملايكه
ما هي الخطيه ؟ – هى شر يضاد الله ويصادمه

اين وجود الخطيه ؟ — وجودها اولا في الانسان المخلوق على صورته ومثاله ووجودها ثانيا في العالم الباطل مقر الشر والزوال
بماذا توجد الخطيه ؟ — توجد بواسطة الجسد الشقي والعالم الباطل والشيطان العدو الغشاش
لماذا كانت الخطيه ؟ — لتتم هوانا وارادتنا الباطله
متى كانت الخطيه ؟ — كانت حين بعدنا عن الله بشهواتنا ونسينا عقابه وثوابه
كيف كانت الخطيه ؟ — كانت بفكرنا وقولنا وفعلنا بعزم ثابت ومعرفه كامله

في العالم

من هو الذي يعتبر العالم ؟ — يعتبره من يفضل لذات العالم على الله الذى هو ينبوع كل خير حقيقي
ما هو العالم ؟ — هو الباطل الذى يورث محبيه حقيقة الخسارة الابديه
اين يوجد العالم ؟ — في قلوب محبين اباطيله
بماذا يوجد العالم ؟ — بالانحراف عن الله الحق
لماذا يغشنا العالم ؟ — لاننا نصدق اباطيله ونكذب مواعيد الله الصادقه
متى قام العالم ضد الله ؟ — قام حين تحققت الفضيله وتكذبت الرذيله
كيف قام العالم ؟ — قام بانواع كثيره من الشرور

في الشيطان

من هو الشيطان ؟ — هو كوكب الصبح الذى سقط من السما الى جهنم معذبا فيها الى الابد مع جنوده
ما هي خطيته التي سقط من اجلها ؟ — هي عصيانه الهه لكبريايه بقوله اصعد على السحاب واكون شبيها بالعلي
اين يوجد الشيطان ؟ — في نفوس اعدا الله
بماذا يخدع الشيطان الانسان ؟ — بالشهوات الباطله
لماذا يخدعنا ؟ — لكي نهلك ولا نرث مقامه في السما
متى يقترب الشيطان الى الانسان ؟ — اذا راه بعد عن الله بالخطيه
كيف يتشبه الشيطان بملاك النور ؟ — عندما يرينا الخير شرا والشر خيرا

وقس على هذا الترتيب السباعي استعال كل فضيله ورذيله وكل زمان ومكان وشخص ولك ان تضع لفظة ما موضع لفظة من اذا تعدد المعنى عليك في مثل ما الاتضاع وما هو الشيطان ويجوز ذلك ان تختار من هذه السبع الذى تريده وتترك الباقي وفايدة هذه الظروف المذكوره هي انها تصير الات تساعدنا في انتقالات الفكر وقت الصلاه العقليه وتوسع علينا المعنى في الوعظ والخطاب وهذا اعظم فايده

ومما يجدر بالذكر ان مؤلف رسوم الكمال يدعو المرأة العابدة الى تناول القربان المقدس كل اسبوع مرّة ، او كل نصف شهر مرة (الرسم الثاني عشر) ومن المعلوم ان العادة التي سادت في العصر السابع عشر بتعليم جانسينوس وظات

متأصلة في امكنة عديدة ، الى عهد قريب منا ، كانت تمنع عن عامة المؤمنين تناول القربان المقدس الا في النادر . فكان من نتيجة نشر التعليم الكاثوليكي بواسطة المرسلين ، ولا سيا اليسوعيين ، ان ممارسة الاسرار المقدسة شاعت بين المؤمنين، وكان لجرمانوس فرحات عمله المبرور في الحصول على تلك النتيجة الصالحة .

تفسير المزمور « ارحمني يا الله »

تأليف الاب ايرونيموس من رهبان عبد الاحد

قد يكون مؤلف هذا الكتاب الاب ايرونيموس الدومينيكي البرتغالي ، من علماء القرن السادس عشر . لم يعرف الاب جرجس منش هذا الكتاب ولم يذكره في معربات فرحات . ونسخة كتابنا مخطوطة بيد المطران فرحات نفسه . ننقل منها صفحتين على سبيل الانموذج ، ونعرض الصفحة الاخيرة مصورة لتعريف القراء بخط فرحات ، وفيه شاهد

الاساقفة والمبشرين على مذابحك . العجول اذا كانوا كاملين
وكاملين فضائل ومستعدين ان يضحوا نفوسهم عن رعاياهم .
واما مذبحك يا يسوع الصالح فليس هو الا صليبك الذي صرت
فوقه تقدمة كريمة عنا . وليست العجول الا جسدنا الذي
نقدمه لك على مذبحك . اي على الصليب في منتهى العذاب
حتى الموت من اجل اسمك . فنرى جبينة البيعة وتنبسط
حدودها منتشرة في الاقطار . ويسمع صوت مجدك في اقاصي
الارض وتبتهج المسكونة كلها . ويفرح القديسون في المجد و
يسرون على مضاجعهم وينتظروننا في بلد الاحياء الحاصلين
الان فيها . فارحمني يا الله كعظيم رحمتك . واقبل قربان العدل
كتقدمة القداسة . وكحرمة للباة السكية . ومثل مجد
صليبك الذي استحق بواسطته ان اجوز هذا وادي
الشقاء ذلك الى الذي شئت لمحبتك
في خواصك الى ابد الابدين امين

تم هذا التامل بيد معربه جرمانوس الماروني في اسقف حلب
في اليوم التاسع من شهر اب من شهور سنة
١٧٣١

آخر على لغة فرحات بالروحيات.

نمرة المخطوط في المكتبة الشرقيـة ٤٤٥، ورقه صقيل رقيق، تجليده حديث بسيط بالقماش الاسود والكرتون، طوله ١٥ سنتيمترًا وعرضه ١٠، عدد صفحاته ٤٩، لكل صفحة ١٧ سطرًا، خطه نسخي متقن، حبره اسود الا في العناوين فانه احمر. والمخطوط ناقص في اوله صفحة ضاع بها جزء من الفهرست، ولكن مطالعة المواد في الكتاب تعوّض عمّا فقد من عناوينها باوله وهذه فصوله :

المقدمة في الاتضاع العميق والواجب علينا ان نتقدم بهِ الى رحمة الله العميقة.

١ – في مقدار رحمة الله وعمقها – ٢ في قوة فعل رأفة الله على الجنس البشري – ٣ في تفاقم المغفرة الالهية مع الندامة والمحبة – ٤ في الاتضاع الناشئ من قبل تأملنا بخطايانا – ٥ في ان الخطيئة ليست الا محبة الخلائق مضادة الخالق لكون نتيجتها المجاسرة على الله تعالى – ٦ في مقدار شر الخطيئة – ٧ في الحق الذي يحبه الله وفي الحكمة التي عرفتها الجهلاء وجهلتها الحكماء – ٨ في ان ابن الله كان لنا زوفًا مطهرًا – ٩ في الرجاء – ١٠ في التوسل الى رأفة الله – ١١ في نقاوة القلب وتجديد الروح بالمحبة – ١٢ في ان الصلاة والتضرع يحركان الله الى الشفقة علينا – ١٣ في حسن الطلب وفي نعمة الثبات – ١٤ في التعليم وفي قدرة الله – ١٥ في النجاة من الخطيئة – ١٦ في ان تسبحة الله من الودعاء تفوق فصاحة الحكماء – ١٧ في ان الذبيحة الروحية اعظم قدر من الذبيحة الجسدية – ١٨ في فضيلة القلب المنسحق – ١٩ في ان السايرين بالسيرة الحسنة قليلون جدًا – ٢٠ في مزية القرابين الروحية.

واليك فصل الكتاب الاخير وقد نسخه المطران قبل ان يموت باحد عشر شهر :

القسم العشرون في مزية القرابين الروحية

قال داود النبي :

حينئذ تسر بذبيحة العدل قربانًا ومحرقات

حينئذ يقربون على مذابحك العجول

عندما تكون اصلحت بمسرتك اورشليم. فتقبل حينئذ ذبيحة العدل وتحرقها بنار محبتك هكذا قبلت ذبيحة موسى وايليا. وقبولك ذبيحة العدل، هو ان تستحق النفوس المجتهدة في ان تحيي بنعمتك المقدسة. فا الذي تفيده تقدمة القرابين لكن اذا كنت لا تقبلها يا رب. كم ضحايا تقدمها لك كل يوم وهي لا ترضيك بل هي مكروهة امام عينيك. لانها ليست

بذبيحة العدل . ولهذا كانت غير مقبولة . ابن هو الان مجد الرسل . ابن شجاعة الشهداء . ابن اثمار المنوّرين . ابن بسالة الرهبان المقدسة . ابن فضائل المسيحيين الاولين . فهؤلاء كلهم تكون ذبائحهم مقبولة اذا زينتها بالفضائل بنعمتك . فمن ثم بنيت انت اسوار صهيون بمسرتك تسر حينئذ بذبيحة العدل . لان الشعب بهذا يبتدي في ان يعيش عيشاً صالحاً . ويحفظ وصاياك ويصنع العدل وتكون عليه بركتك . ولهذا تكون تقدمات الكهنة والشمامسة مقبولة عندك . لكونهم بها يرفضون الارضيات ويشتملون الكمال المسيحي بكل الاهتمام . وتكون مسحة بركتك على رؤوسهم فتسر حينئذ بمحرقات الرهبان الذين يباينون الكسل والتواني ويضطرمون بنار محبتك الالهية . حينئذ تقرب الاساقفة والمبشرون على مذابحك العجول اذا كانوا كاملين وعاملين فضائل ومستعدين ان يضحوا نفوسهم عن رعاياهم . واما مذبحك يا يسوع الصالح فليس هو الا صليبك الذي صرت فوقه تقدمة محرقة عنا . وليست العجول الا جسدنا الذي نقدمه لك على مذبحك . اي على الصليب في منقع العذاب حتى الموت من اجل اسمك . فتزهر حينئذ البيعة وتنبسط حدودها منتشرة في الآفاق . ويسمع صوت مجدك في اقاصي الارض وتبتهج المسكونة كلها . ويفرح القديسون في المجد ويسرون على مضاجعهم وينتظرونا في بلد الاحياء الحاصلين الان فيها . فارحمني يا الله كعظيم رحمتك واقبلني كقربان العدل وكتقدمة القداسة . وكمحرقة الحياة النسكية . وشل عجل صليبك الذي استحق بواسطته ان اجوز من هذا وادي الشقا الى ذلك المجد الذي هيئته لمحبينك وخواصك الى ابد الابدين امين

قد تمّ هذا التأمل بيد معربه جرمانوس الماروني اسقف حلب في اليوم التاسع من شهر آب من شهور سنة ١٧٣١

في الوعظ

لعل هذا الكتاب اكمل وانفع ما الفه المطران جرمانوس فرحات من كتبه الروحية . طبع اربع طبعات : الاولى في مالطة سنة ١٨٤٢ ، والثانية في طاميش سنة ١٨٧٧ ، والثالثة في بيروت سنة ١٨٨٢ ، والرابعة في بيروت ايضاً سنة ١٨٩٨ في مطبعتنا الكاثوليكية .

جاء في مقدمة احدى طبعاته : « قد تحرش لطبعه جماعة من البروتستانت دون ذكر محل طبعه والسنة التي طُبع فيها لغايات سقيمة ولم يخل كعادتهم من حذف وتحريف واخلال وزيادة وتصحيف » .

لم يفقد الكتاب عنفوانه بعد مضي نيّف ومئتي سنة على تأليفه وكله درر ونصائح ، وقد يعزّ وجوده في المبيع . فيا ليت طبعه يعاد ! وهو جدير بان

يطالعه رجال الاكليروس عامةً ووعاظهم خاصة.

نختار من هذا الكتاب فصلين نروي شيئاً منهما بحرفه او مختصراً، وفيهما تظهر روح المؤلف وصفاته الرسولية. هو العلامة باللغة العربية، واضع كتاب البحث وبلوغ الارب في علم الادب، وهو مصلح عبارة مواعظ يوحنا فم الذهب، اتى على ذكر محاسن الوعظ، فعدّ في مقدمتها البساطة قال:

ليس بضروري للوعظ ان تكون الفاظه مبنية على قواعد النحو والتصريف والمعاني والبيان ولا على تنسيق التراكيب وسبكها في قوالب مصنّمة فان هذه كلها قشور خارجة يلهي السامعين رونقها الظاهر عن استفهام لب المعاني المكنون فيها فتفقد اثر الوعظ التي هي تخليص الانفس.

وذكر سيرة الواعظ فاوصاه بالتواضع وقال ان الواعظ اذا احكم التواضع احكم معه جميع الفضائل. وقال في ادب الوعظ ان الادب يلزم الواعظ ضرورة لكون وظيفته تهذيب الناس وتأديبهم.

والوعظ نوعان علمي وعملي. فكما ان العلمي له مقدمة واقسام، هكذا الوعظ العملي مقدمة واقسام: فمقدمته الادب، واقسامه ان يكون الواعظ مؤدباً اولاً بحركاته فهو النور وهو الملح، ومن فضائله الرزانة والرصانة؛ ثانياً بكلامه فيتجنب الشتائم المخيفة والمزاح والمطارحة والاخبار المضحكة والاستهزاء والهزء ومدح الذات ومذمة الغير وثلبه واظهار نقائص القريب وانواع الديونة والفتنة والكذب والوشاية والظنون الردية والمخاصمة: ثالثاً بثيابه فتكون معتمة اللون طويلة مهيبة نظيفة متوسطة الحال بين الرفاهة والخشونة. والا فكيف يمكنك ياواعظ ان توبخ المرأة على اخماكها بحليها ومصوغها وديباجها الملوّن المذهب وقميصك من كتان رفيع مخرم الاطراف وكيف يمكنك ان تعزي الفقراء على خلقانهم وانت متوشح بالفراء والاثواب الرفيعة الثمينة؛ راغباً بالقناعة اي الا يكون شرهاً محباً لبطنه والا فيكون مغرماً بحب المال. (الفصل الثاني).

ولفرحات كلام في وجوب تجنب الواعظ كثرة التقرب الى الناس والفصل كله آية حكمة وفطنة يباري خير ما كتبه القديسون وغيرهم من رجال الفضل في ذلك الموضوع.

* * *

هذه الملاحظات والخواطر حررناها بمناسبة اعياد فرحات اليوبيلية، آملين ان يثمر الاحتفال في قلوب الشبيبة اثاره الصالحة، فينشأ في مصافها خلف للمطران جرمانوس فرحات يرفع لواء الاداب والعلم عالياً ويهدي بتعاليمه وامثاله قلوب المعاصرين الى الكمال الاعلى.

الملكيون المشارقة *

من قلم حبيب زيّات (اڤالون : فرنسة)

هم ناقلة من عمان وارض البلقاء ، رحلوا الى القدس ، ونزلوا منها في محلة عُرفت بهم ، ودُعيت محلة المشارقة لانهم من شرقي القدس[1]. وقد بحثنا طويلًا عن سبب هذا الانتقال وزمانه فيما اتصل بنا من الآثار العربية ، فلم نظفر بطائل ، الى ان وُفقنا للعثور على فصل جزيل الفائدة لمؤرخ الصليبيين غليوم الصوري المشهور . وهذا تعريب ما رواه بتاريخ سنة ١١١٥ ، قال في كلامه عن بيت المقدس والملك بودوين الاول :

« لما كان الملك عاقلًا متطلعاً الى كل ما يتعلق برتبته ، فكر يوماً ان مدينة اورشليم ليست آهلة باقوام يستطيعون ان يدافعوا عنها اذا دعتْ مصلحة النصرانية الى التغيب عنها . فكانت من ثم عرضة للخروج عن يده ، لخلوها ممن يحمي ابراجها واسوارها وابوابها . لاسيما والمسلمون يحومون دائماً حولها كلما بلغهم ان الملك بعيد عنها . فاشتد به القلق لذلك . واستشار بعض اصحابه كيف يفعل ليعتاض عن المسلمين الذين كانوا فيها قبلًا . وقُتلوا باجمعهم لما استولى عليها . وكانت قد بقيت منهم بقية اخرجهم عنها الصليبيون. لاعتقادهم ان من اقبح العار والرجس ان يقطن الارض المقدسة اقوام لا يؤمنون بالمسيح[2].

---

*) فصل من كتاب « الروم الملكية في الآثار الاسلامية »

١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي ، طبعة مصر ، ص ٢٤٨

٢) لا يستغرب مثل هذا الاعتقاد في مثل تلك الايام ونظائره شائعة في كل النِحَل والمِلَل . ومعلوم ان عمر بن الخطاب اجلى من بقي في ايامه في الحجاز من اليهود والنصارى الى

فلم يلبث احد منهم بالمدينة . وكانت النصارى فيها ايضاً قليلين جداً لا يكادون يملأون اكبر شوارعها وخصوصاً السوريون منهم لانهم منذ جاؤوا اليها تعمدهم اصحابها المسلمون بانواع الاذية والتضييق حتى كرهوا المقام فيها . وكانوا منذ أُخذت انطاكية يسترببون بهم ويتقلونهم لايسر علة بحجة انهم هم الذين خاطبوا الافرنج وراسلوهم في الحضور لقتال المسلمين .

« وبينا كان الملك مشتغل البال بهذا الهم بلغه ان في ما وراء نهر الاردن في البلاد العربية طوائف من النصارى قد اتخذهم الاتراك عبيداً وخولاً . فارسل اليهم بالعاجل . ووعدهم اذا اجبوا ان يستوطنوا القدس ان يعطيهم اكثر مما لهم هنالك . بحيث يعيشون اعزاء بين اخوانهم في الدين . فلما تسامعوا بهذه الوعود اقبلوا فرحين ومعهم نساؤهم واولادهم ومواشيهم وكل اموالهم على قدر ما استطاعوا . وحضر ايضاً من سائر البلاد الاسلامية اقوام من المسيحيين عندما بلغهم دعاء الملك ووعده باعطاء الارزاق . بحيث غصت بهم المدينة وشغلوا كل فراغ فيها . ووفى لهم الملك الاقطاعات والهبات . وكان اعدل ملك واشرفه في اشرف بلد . »[1]

وكان اكثر هؤلاء النازحين الى القدس من جهات عمان وحسبان وإربد والصلت وما جاورها من اعمال البلقاء ، وقد قدر خليل الظاهري جملة القرى المضافة اليها في زمانه بنيف وثلاثمائة قرية[2] . وكان يُطلق على ما كان منها شرقي الاردن اسم البلقاء . ولذلك عُرف القادمون منها بالمشارقة كما تقدم من لفظ القنطي . وكانوا جميعهم من الملكيين . وقد شهد غليوم الصوري ان بيت

الشام ، لما بلغه قول محمد في مرضه الذي مات فيه « لا يبقى دينان في ارض العرب » . وعند الشافعي ان الحجاز يتناول مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها . وفي مذهبه ان النصارى يجب ان يمنعوا ايضاً « ركوب بحر الحجاز ويمنعوا المقام في سواحله . وكذلك ان كانت في بحر الحجاز جزائر او جبال تُسكن مُنعوا سكناها لانها من ارض الحجاز » (كتاب اختلاف الفقهاء لابي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ليدن ، ص ٢٢٣–٢٢٥)

١) Guillaume de Tyr. Texte français, Paris 1879, t. I, p. 425-427

٢) زبدة كشف الممالك ، طبعة باريس ، ص٤٦

المقدس لم يكن فيه قبلاً سوى الارمن والروم فيما عدا اللاتين[1] . ولكنه لم ينقل لنا شيئاً من اخبار هؤلاء المشارقة . فلا ندري كيف كانت حياتهم بين الافرنج . وما كان تأثير هذا الجوار في اخلاقهم وعاداتهم ومآكلهم ومشاربهم ولغتهم وازيائهم . وغاية ما نعلمه من هذه الازياء التي قلد الصليبيون في بعضها اهل البلاد ان الاطباء من المشارقة الملكيين كانوا يلبسون جوخة مُلُوطة (marlota) زرقاء ، وهي شبه جبة فرنجية . وعلى رأسهم كوفية وتخفيفة صغيرة . قال ابن أُصيبعة وهو زيّ اطباء الفرنج[2] . قدم به الى دمشق الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب الملكي الشرقي وانكره عليه طبيب صلاح الدين اسعد بن المطران . ومما يجدر التحسر عليه ضياع كل كتاباتهم باسرها . فلم ينتهِ الينا منها صفحة واحدة من لغتهم العامية لنقف على مقدار ما داخلها من المصطلحات والعبارات الفرنجية .

ولا ريب ان هؤلاء الملكيين كانوا قد حافظوا على تقاليدهم الكاثوليكية ولاسيما بعد مخالطتهم للصليبيين وانقيادهم الى بطريرك لاتيني بعد وفاة بطريركهم سمعان الذي ذكره غليوم الصوري بالفضل والتقوى ، وروى انه كتب مع نخبة من اعيان ملته عدة رسائل في الاستغاثة بالبابا وملوك الافرنج لانقاذهم من الظلم الذي كانوا فيه[3] .

وقد اشتهر من هؤلاء الملكيين المشارقة افراد من افاضل الاطباء نظير موفق الدين يعقوب بن سقلاب ، وابنه سديد الدين ابي منصور ، نلخص ترجمتهما عن جمال الدين القفطي وابن ابي أُصيبعة بعد النقد والمعارضة .

الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب المشرقي الملكي

في كتاب اخبار العلماء للقفطي ، في المطبوع منه والمخطوط ، ان اسمه يعقوب بن صقلان بالنون . وكذا في تاريخ مختصر الدول لابن العبري . وقد

---

1) Guillaume de Tyr, *op. cit.* t. II, p. 199

2) عيون الانباء ٢ : ١٧٧

3) Guillaume de Tyr, *op. cit.* t. I, p. 22-24

نقل الترجمة باسرها عن القفطي ولم يصرّح بنسبتها اليه شأن اكثر النقلة في الاسلام. ومن وَهِم ايضاً بكتابة اسمه بالنون (Saklane) ري في كتابه الجوالي الفرنجية[1]. والصحيح سقلاب بالباء. كما في ابن أصيبعة، وهو معروف في الاسماء. ومنه احمد بن سقلاب في كتاب المكافأة (ص ٤٥) ومسجد ابن سقلاب في بَلرم من جزيرة صقلية في كتاب المسالك والممالك لابن حوقل. وهذا الاسم يشبه ان يكون تعريب Esculape اله الطب في خرافات اليونان، تُنعت به الاطباء. ولعل في تسمية والد يعقوب او جده دليلًا على انه كان طبيباً. وكثيرون من الاطباء في الشام كانوا يتلقون الطب كابرًا عن كابر. فيكون يعقوب قد نشأ من بيت طب وعلم واورث انه مثل هذه المزية.

وكان متقناً للسان الرومي خبيرًا بلغته ونقل معناه الى العربي[2]. ولا يبعد انه كان ايضاً لا يجهل اللاتينية او الفرنسية او على الاقل قد شدا شيئاً منها اذ كان قد درج وشب بين اهلها.

وقد نص القفطي على انه «كان مقدسياً شرقياً ملكياً» ولكنه اغفل سنة ميلاده. ومثله ابن اصيبعة. وفي كتاب ري المذكور آنفاً انها سنة ١١٦ اي ٥٥٧ للهجرة، ولا ندري اين وجدها. واختلفوا في سنة وفاته فجعلها القفطي ٦٢٦، وقلده فيها ابن العبري، وضبطها ابن اصيبعة في يوم عيد الفصح بدمشق في شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٥، اي في ٢٦ تموز سنة ١٢٢٨

وكان الاطباء في ذلك العصر لا يجتزئون بدرس طب جالينوس وابقراط، بل يشتغلون معاً بمطالعة كتب الحكمة اي الفلسفة والهندسة وعلم الحساب واحكام النجوم والعلم الطبيعي. ولذلك كانوا يعرفون بالحكماء. ولا يزال الى اليوم الطبيب في الديار الشرقية مشهورًا باسم الحكيم. وزعم ابن العبري ان يعقوب قرأ شيئاً من الحكمة على تادوري الفيلسوف الانطاكي. ولم يذكر في ترجمة تادوري انه دخل قط مدينة القدس واستوطنها التدريس والاقراء. وانما غرّه قول القفطي عن يعقوب «قرأ شيئاً من الحكمة والطب على رجل

1) E. Rey. *Les Colonies Franques en Syrie*, p. 180

2) عيون الانباء ٢ : ٢١٥

يعرف بالفيلسوف الانطاكي » وكان تادوري يعرف ايضاً بالحكيم الانطاكي . فاحب ابن العبري ان ينسب اليه ، وهو نظيره يعقوبي النحلة ، تلمذة يعقوب وهو ملكي ، لما بين الطائفتين من المناظرة[1]. فضرب صفحاً عن قول القفطي « كان هذا الفيلسوف قد شدا اشيا من علوم الاوائل بانطاكية وغيرها واستوطن القدس . وجعل داره بها شكل كنيسة . وتبتل للعبادة . واقرأ العلوم الى حدود سنة ثمانين وخمسمائة . وقرأ عليه يعقوب هذا شيئاً من اوائل هذه الصناعة[2] . والصحيح ما ذكره صاحب عيون الانبا. ان هذا الفيلسوف كان راهباً في دير السيق . وبالتالي رومياً ملكياً خبيراً بالعلوم حسن الفطرة والفطنة . وله احكام صحيحة وانذارات عجيبة . فلازمه يعقوب واخذ عنه . واجتمع ايضاً في القدس بالشيخ ابي منصور النصراني الطبيب واشتغل عليه . وباشر معه اعمال صناعة الطب ، وانتفع به . وكان هذا ابو منصور طبيباً مشهوراً عالماً حسن المعالجة والمداواة . خدم بصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب . وبقي سنين في خدمته[3] . ولعله كان ملكياً ايضاً مثل اكبر اطبائه اسعد بن المطران . ولم يشر ابن اصيبعة الى مولده ومنشإه . وكان الملك صلاح الدين مقرباً لبعض رجال الملكيين ويظهر فيما حكاه ري انه ادخل يعقوب ايضاً في خدمته ولم نجد لهذا القول ثبتاً فيما بين ايدينا من الآثار الاسلامية .

وزعم القفطي ان يعقوب « لم يكن عالماً . وانما كان حسن المعالجة بالتجربة البيمارستانية . ولعادة كانت له . » وهذا القول مردود بما شهد به ابن اصيبعة . وكان طبيباً عارفاً بصناعته ورجالها . وقد ادرك يعقوب وتلمذ له في المعسكر المعظمي في اوائل اشتغاله بالدرس . وقرأ عليه شيئاً من كلام ابقراط فهو من اخبر الناس به . قال : « فكنت ارى من حسن تأنيه في الشرح

١) مما يدل ايضاً على تعصب ابن العبري انه اغفل ترجمة سعيد بن بطريق ، بطريرك الملكيين في الاسكندرية ، مع اشتهاره بصناعة الطب .

٢) اخبار الحكماء ، طبعة مصر ، ص ٢٤٨

٣) عيون الانباء ٢ : ١٨٣ و٢١٥

وشدة استقصائه للمعاني باحسن عبارة واوجزها واتمها ما لا يجسر احد على مثل ذلك ولا يقدر عليه . ثم يذكر خلاصة ما ذكر له . وحاصل ما قاله . حتى لا يبقى في كلام بقراط موضع الا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة . ثم انه يورد نص ما قاله جالينوس في شرحه لذلك الفصل على التوالي الى آخر قوله . ولقد كنت اراجع شرح جالينوس في ذلك فأجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس باسره في ذلك المعنى . وربما بالفاظ كثيرة من الفاظ جالينوس . يوردها باعيانها . من غير ان يزيد فيها ولا ينقص . وهذا شيء تفرد به في زمانه . » وقال عنه قبل ذلك: « كان اعلم اهل زمانه بكتب جالينوس ومعرفتها والتحقيق لمعانيها والدراية لها . وكان من كثرة اجتهاده في صناعة الطب . وشدة حرصه ومواظبته على القراءة والمطالعة لكتب جالينوس .وجودة فطرته . وقوة ذكائه . ان جمهور كتب جالينوس واقواله فيها كانت مستحضرة له في خاطره . فكان مهما تكلم به في صناعة الطب على تفاريق اقسامها وتفنن مباحثها وكثرة جزئياتها انما ينقل ذلك عن جالينوس . ومهما سُئل عنه في صناعة الطب من المسائل والمواضع المستصعبة وغيرها لا يجيب بشيء من ذلك الا ان يقول قال جالينوس . ويورد فيه اشياء من نصوص كلام جالينوس . ويقول هذا ذكره جالينوس في كذا وكذا ورقة من المقالة الفلانية من كتاب جالينوس ويسمّيه . ويعني به النسخة التي عنده . وذلك لكثرة مطالعته اياها وانسه بها . »

وكان علم الطب وقتئذٍ محصوراً في مطالعة كتب جالينوس وابقراط ، والاحاطة بمضمونها ومشتملاتها . فاذا لم يكن مثل هذا الحفظ لها والاستظهار التام ومثل هذا التضلع منها والنبوغ النادر هو العلم كل العلم فلا ندري ما هو .

واما حسن معالجته فلم تكن نتيجة تجربته ايام تولّيه خدمة البيمارستان في القدس فقط ، او لسعادة له ، كما ادعى القفطي غضاً وانتقاصاً له . وانما كانت على الخصوص ثمرة اجتهاده وتأنيه في درس علة المريض ، واستقصائه في تحقيقها، واستطلاع اعراضها ، حتى لا تخفى عليه خافية منها . وكان كثير السكينة ، ثاقب العقل ، سديد النظر . وهو ما نبّه عليه ايضاً ابن اصيبعة في ترجمته قال:

« فاما معالجات الحكيم يعقوب فانها كانت في الغاية من الجودة والنجح . وذلك انه كان يتحقق معرفة المرض اولاً تحقيقاً لا مزيد عليه . ثم يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر . وكان شديد البحث واستقراء الاعراض بحيث انه كان اذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرَضاً عرَضاً . وما يشكوه مما يجده من مرضه حالاً حالاً . الى ان لا يترك عرَضاً يُستدل به على تحقيق المرض الا ويعتبره . فكانت معالجاته لا مزيد عليها في الجودة . وكان الملك المعظم يشكر منه هذه الحالة ويصفه ويقول لو لم يكن في الحكيم يعقوب الا شدة استقصائه في تحقيق الامراض حتى يعالجها على الصواب ولا يشتبه عليه شيء من امرها لكفاه »

ولا ندري ان طبيباً مدح بمثل هذه الصفات الكاملة والشروط التامة في زمانه . فلا شك انه كان قريع دهره . ولا يلتفت الى قول القفطي لجهله بمكانه .

ويظهر انه كان في الكرك قبل ان يفتحه الملك العادل سنة ١١٨٤ . لانه على اثر الفتح اتى الى دمشق ، وهو شاب في زي اطباء الفرنج ، وقصد احد اعيان الملكيين الدماشقة الطبيب اسعد بن المطران . وجعل يتردد عليه ويخدمه التماساً لمنفعته واسعافه . وكان النصارى حينئذ يحرصون اشد الحرص على التشبه بالمسلمين في الملابس والاسماء والكُنى والالقاب ، خشيةَ ان يُعرفوا فيستهنوا او يهانوا . ومع ان الاضافة في الالقاب « الى الدين » كانت مختصة بالمسلمين وكانت القاب اكابر النصارى لا تخرج عن الاضافة « الى الدولة »[1] للتمييز بين الفريقين ، لم يتوقف بعض اعيان المسيحيين عن محاكاة المسلمين والتلقب بالمضاف الى الدين مثل موفق الدين بن المطران ، وموفق الدين يعقوب بن القف ، ورشيد الدين بن موفق الدين يعقوب وغيرهم من الملكيين . ولذلك اتخذ يعقوب بن سقلاب لقب موفق الدين لنفسه وتلقب ولده فيما بعد بسديد الدين . ولما شاهد ابن المطران زيّ ابن سقلاب الفرنجي وهو مشرقي بالمعنيين انكره

١) ديون الانشاء ، خزانة باريس ٤٤٣٩ ، ص١٥٨

عليه وقال له فيما حكاه ابن اصيبعة: «هذا الزيّ الذي انت عليه ما يمشي لك به حال في الطب في هذه الدولة بين المسلمين. وانا المصلحة ان تغير زيك. وتلبس عادة الاطباء في بلادنا. ثم اخرج له جبة واسعة عتابية وبقيارًا مكملًا. وامره ان يلبسهما. ثم قال له ان ههنا اميرًا كبيرًا يقال له ميمون القصري. وهو مريض. وانا متردد اليه واداويه. فتعال معي حتى تكون تعالجه. فلما راح معه قال للامير. هذا طبيب فاضل. وانا اعتمد عليه في صناعة الطب واثق به. فيكون يلزمك ويباشر احوالك في كل وقت. ويقيم عندك الى ان تبرأ ان شاء الله تعالى. فامتثل قوله. وصار الحكيم يعقوب ملازماً له ليلًا ونهارًا الى ان تعافى. فاعطاه خمسمائة دينار. فلما قبضها حملها الى ابن المطران. وقال له يا مولانا هذا ما اعطاني. وقد احضرته الى مولانا. فقال له خذه. فانا ما قصدت الا نفعك. فاخذه.»[1] وكان ابن المطران عظيم المروءة، كثير الاهتمام باهل الصناعة الطبية، يقدمهم ويتوسط في ارزاقهم.

ويجب ان يكون يعقوب بن سقلاب فارق دمشق بعد ذلك وتوجه الى القدس. وتوصل فيها الى مباشرة البيمارستان الى ان ملك القدس الملك العظيم عيسى ابن السلطان الملك العادل الايوبي. فاختص به ونقله الى دمشق وجعله في صحبته. وانتفع بخدمته وآرائه الطبية. ولما طالت معرفته به حسُنَ اعتقاده فيه حتى همّ ان يوليه بعض المناصب في تدبير دولته لاعجابه بعقله واصالة رأيه. فامتنع يعقوب واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط. ثم ساءت صحته وعرض له نقرس برجليه كان يمنعه من الحركة والمشي. فكان المعظم يستصحبه معه في اسفاره حرصاً على خدمته ومشورته. ويبالغ في اكرامه واعتقاده بالعطاء الجمّ والاحسان الوافر. وقال له يوماً يا حكيم لِمَ لا تداوي رجليك. فقال له يا مولانا اذا سوّس الخشب لا تنفع في اصلاحه حيلة. وكان قد طعن في السن وضعفت قوته. ولما توفي المعظم، وملك بعده ولده الملك الناصر داود،

1) عيون الانباء ٢: ١٧٢

دخل اليه يعقوب ودعا له . واشار الى عجزه وشيخوخته . وذكره بسالف خدمته . وانشده متمثلًا بشعر ابن منقذ :

اتيتكم ، وجلابيب الصبا قُشُبُ ، فكيف ارحل عنكم ، وهي أسمالُ ،
لي حرمة الضيف ، والجار القديم ، ومن اتاكم ، وكهول الحي اطفالُ .

فرقّ له الملك الناصر . واحسن اليه كثيرًا . وامر ان يستمر عليه ما كان مقررًا له في ايام والده الملك المعظم دون ان يكلف خدمة .

وما لبث ان اجاب داعي ربه . ودفن بدمشق وله من العمر ٦٧ سنة . ويظهر انه لم يترك شيئاً من المقالات والمصنفات . او لعل ابن اصيبعة اغفل التنبيه عليها .

ولا يعرف له من الاولاد الا ابنه سديد الدين ابو منصور الآتي ذكره .

الطبيب سديد الدين ابو منصور
ابن الطبيب يعقوب بن سقلاب الملكي

انفرد ابن اصيبعة بترجمته باسطر وجيزة هي كل ما بلغنا عنه . فلا بد من الاجتزاء بها . قال :

هو الحكيم الاجل العالم من افاضل الاطباء . متميز في علم صناعة الطب وعملها . متقن لفصولها وجُملها . اشتغل على والده وعلى غيره بصناعة الطب وقرأ ايضاً بالكرك على الامام شمس الدين الخسروشاهي كثيرًا من العلوم الحكمية . وخدم الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى بن ابي بكر بن ايوب . واقام في صحبته بالكرك . وكان مكيناً عنده . معتمدًا عليه في صناعة الطب . ثم اتى الى دمشق وتوفي بها[1] .

١) عيون الانباء ٢: ٢١٦

اخبار

سفر المونسنيور فرنسيس پيكيت

الى بلاد ارمينية والعجم ١٦٨١–١٦٨٤

كتبها السيد اثناسيوس سفر العطار السرياني اسقف ماردين ٤
مرافق المسافر وترجمانه

نشرها الخوري اسحق ارملة السرياني

٢

ثم تقدمت وبستُ يده وقلت له بحياة راسك أعطنا الدستور حتى نروح لان التجار يستنون خارجاً . وناسنا في الكروان يبقون في همنا . فسار احد خدامه ليعطيني ثلاثة اغنام . وطلبت منه اناساً حتى يفوتونا السنور (الحدود) ويعبرونا في ارض العجم . لانه من هناك يفترق الكروان منا ويروح الى تبريز ونحن نروح الى ايروان . فاعطاني اثنين . ثم تودعنا منه واستكثرنا خيره . ولما طلعنا من عنده كانت الساعة الثالثة من الليل [٥٠] فنظرنا التجار واقفين ينتظرونا فركبنا خيلنا ورحنا الى الكروان . اما الاغنام فجابوها الينا . ولما نظرها المونسنيور قال ما هذا ؟ قلت الامير اعطاني اياها . قال انا لا اريدها أعطيها لرئيس الكروان . فرحته واعطيته اياها . اما الرجلان اللذان بعثهما الامير معي فباتا عندنا .

٨ً دخول المونسنيور پيكيت بلاد العجم وزيارته دير اچميازين ووصوله الى ارفانه

وثاني يوم قمنا من بكرة حملنا واخذنا درب ايروان . والكروان اخذ درب تبريز فرحنا . وثاني يوم دخلنا في ارض العجم . امـا الرجلان فطلبـا

الدستور حتى يرجعا . فامرني المونسنيور ان اعطيهما قرشين [٦٠] فاعطيتهما وثالث يوم وصلنا الى دير يسمى دير اجميازين وهو كرسي بطرك الارمن . فنزلنا هناك . وطلع مطارين الارمن واستقبلوا المونسنيور وانزلوه في احسن حجرة وقالوا له : كنا سمعنا عن مجيئك فارسلنا الصيادين من بكرة الى النهر ليصطادوا سمكاً على مجيئك . وبينما هم يتكلمون اذا بالصيادين قد اقبلوا حاملين السمك فرحين مسرورين. فألقوا السمك وتباركوا من المونسنيور. فبهت الحاضرون وتعجبوا من كثرة السمك [٦١] فقالوا لنا انا نصطاد طول عمرنا وما وجدنا صيداً كثيراً مثل اليوم . ثم ان المطارين عرضوا السمك على المونسنيور ليأخذ منها ما يريد لانها كانت من اجناس كثيرة . فاخذنا ما اعجب المونسنيور وأعطيناها الى طباخنا وبتنا تلك الليلة.

وثاني يوم بعثني المونسنيور الى ايروان حتى افتش عن بيت ننزل فيه وافتش ايضاً عن صاحبه الخواجا عازريا القاتوليقي . فركبت ورحت . وبعد ثلاث ساعات دخلتُ ايروان ونزلتُ في الكروان سراي. ثم فتشت عن عازريا فوجدته. ونمت تلك الليلة في الخان. وثاني يوم رجعت ومعي عازريا فوصلنا الى الدير[٦٢] وتلاقى عازريا مع المونسنيور . وبعد ما بقي المونسنيور في الدير ثلاثة ايام . وعمل له مطارين الارمن عزاً ووقاراً زائداً حملنا ورحلنا الى ايروان ونزّلنا الاحمال في كروان سراي . فالمونسنيور ومسيو كازمو والحكيم وانا والطباخ نزلنا في بيت عازريا ثم جاء المكارية حتى يأخذوا دراهمهم فمنعتهم وقلت لهم بدّي ادّعي معكم . لانا لما كنا في بلاد الترك اخذتم مني ثلاثين قرشاً زائداً عن حقكم . فاما تعطوني اياها واما اشتكي عليكم للشرع واخسركم . فخافوا . فلما سمع المونسنيور صاحني [٦٣] وقال لي . لماذا لم تترك المكارية يمضون ؟ فقلت له يا سيدي أما تعلم ما عملوا معنا لما كنا في بلاد الترك ؟ واخذوا منا دراهم زائدة ؟ قال نعم انا اعلم كل هذا ولكن اقول لك الاحسن ان تعفو عنهم وتغفر لهم . ثم امرني ان اصيحهم . فجأوا خائفين ووقفوا امامه ذليلين . فاعطى لكل واحد منهم قرشاً بخشيشاً . ثم باسوا يده وأمرهم بالمضي فمضوا مستحين متحيرين مما فعلوا . وبقيت انا متحيراً في هذا القلب.

ا.ا حاكم البلد الذي يسمّى الخان فكان خارجاً [٦٤] عن ايروان مسافة يومين . فلما سمع عن المونسنيور ارسل يدعوه . فقام المونسنيور واخذني واخذ الحكيم وعازريا والخادم ورحنا الى الاوردو[١] . فلما سمع كهية[٢] الخان ارسل ناسه وانزلونا في بيت رجل ارمني . وثاني يوم رحنا اليه وزرناه . فرحب بالمونسنيور واكرمه واجلسه على كرسي وجاب لنا قهوة . وثالث يوم رحنا عند الخان ولما نظر الى المونسنيور اجلسه واحضر له قهوة واكرمه وحكاه قدر ساعة . ثم اخذنا دستوراً ورجعنا . وبقينا في الاوردو خمسة ايام [٦٥] . وكان كل يوم يبعث لنا الخان من اطعمته صفرتين[٣] الواحدة وقت الغدا والاخرى وقت العشا .

٩ وصول المونسنيور يكيث الى نخجاون وزيارته الرعوية للقرى

وفي اليوم السادس رجعنا الى ايروان واستكرينا دواب . وفي اول آب بالحساب الشرقي خرجنا طالبين نقشوان . اما البادرية الكبوجيون فانفرقوا منا وراحوا الى تبريز . ونحن بعد خمسة ايام وصلنا الى نقشوان ونزلنا هناك . فبعث الخان استدعى المونسنيور . فرحنا اليه وتكلم معه مدة طويلة . ثم حملنا ورحلنا الى ضيعة ارمن قاتوليقيين تسمى ابرانير[٤] . ووصلنا ثالث ساعة من الليل .

[٦٦] اما اهل الضيعة فكانوا طلعوا بالزياح للقاء المونسنيور . ولما رأوا انه تعوّق رجعوا الى بيوتهم . ولما وصلنا نزلنا في الدير . وثاني يوم جاء ناس الضيعة تباركوا منه . ثم اعطوا كل واحد منا حجرة فنزلنا واسترحنا من التعب . وفي نصف آب كان عيد مريم العذراء . فاخذونا الى ضيعة قريبة تسمى كرنا فيها كنيسة على اسم العذراء . وحضر الينا اناس من جميع القرى . ولما قربنا من الضيعة خرج الرهبان والقسوس بالزياح وادخلوا المونسنيور الى الكنيسة وقدّس قداساً [٦٧] كبيراً . وفي هذه الكنيسة قبر مار برتلماوس الذي كرز[٥] على الارمن وجعلهم قاتوليقيين . وبعدما كمل القداس تبارك منه الجميع كباراً

١) مركز الجيش . ٢) رئيس . ٣) مائدتين .
٤) وتدعى ايضاً ابنار . ٥) بشر .

وصغاراً . واخذونا الى بيت واسع واحضروا الغداء . فقام المونسنيور عاجلاً الى قلّاية ليصلي . وبعد الصلاة رجعنا الى الضيعة .

وبعد شهرين[1] اخذونا الى بقية ضياع الارمن القاتوليقيين . ولما كنا نقرب من الضيعة كانوا يخرجون بالزياح حاملين سناجق الصليب ولابسين طقوسهم . وكانوا اذا قربوا منا ينزل المونسنيور عن فرسه وننزل كلنا وكان يبرك على الارض امام الصليب ونجثو نحن ايضاً [٦٨] معه . ثم يقوم ويلبس بدلة ويبدأ يمشي وهو مكشوف الراس الى حين نصل الى الضيعة . ثم يدخل الى الكنيسة فيدقون النواقيس ويجثو المونسنيور امام القربان ويبقى مقدار نصف ساعة . وبعد ذلك يجيء الناس ويتباركون منه . وكانوا ينزلونه في احسن الاماكن ويبدأون يفتقدونه بالهدايا من مأكول ومشروب . ولكنه لم يكن يقبل هدية من احد بل كنت انا اعمل المصرف من كيسه . اما الضيعة التي كنا نروح اليها وفيها ارمن فكان قسوسهم واعيانهم ياتون يزورون المونسنيور ويتباركون منه . [٦٩] واذا كانوا مسلمين فكانوا ياتون اليه ليزوروه ويهدوا له الهدايا . اما الارمن القاتوليقيون والهراطقة فكانوا يجيبون اليه المرضى ليبارك عليهم .

واول رواحنا كان الى قرية جاجوك[2] وقرية جهري[3] . فخرجوا امامنا بالزياح كالمذكور اعلاه كباراً وصغاراً . وفي هذه الضيعة كنيسة لطيفة جديدة . وفيها نحو مائة وخمسين بيتاً قاتوليقيين . اما الباقي فارمن ومسلمون . وبقينا فيها خمسة عشر يوماً او ازيد . ثم اعطى المونسنيور التورشم[4] للاولاد .

ومن هناك رحلنا قاصدين ضيعة شاهبونيس[5] . فخرجوا امامنا بالزياح مثلما ذكرنا . وفيها سبعون بيتاً او ازيد قاتوليقيين والباقي هم مسلمون . فبتنا هناك [٧٠] جمعة واعطى المونسنيور التورشم للاطفال .

---

١) اي في شهر تشرين الاول . ٢) جاهوك .

٣) جنري .

٤) التورشم ܬܘܪܫܡܐ لفظ سرياني يُراد به وسْمُ الكاهن للمولود بزيت الميرون المقدس ومنحه سر التثبيت

٥) شهبونيك .

ثم رحلنا الى ضيعة قراقوش[١] وهي صغيرة في الجبل فيها قدر عشرين بيتاً قاتوليقيين وعشرة بيوت ارمن . وكنيستهم صغيرة مهدومة . فاعطى المونسنيور التورشم للاطفال . وبعد ثلاثة ايام رجعنا قصدنا ضيعتنا ابرانيز ونزلنا كل واحد في حجرته .

وبعد كم يوم رحنا الى ضيعة قريبة من ضيعتنا بعيدة عنها ثلاثة اميال تُسمّى خوش كاشين[٢] فعبرنا على ضيعة مسلمين تُسمّى صلطاق[٣] ولنا فيها اربعة بيوت قاتوليقيين وكنيسة صغيرة . فقدّس المونسنيور هناك وتغدّينا . ورحنا الى خوش كاشين . فخرجوا امامنا بالزياح المذكور وانزلونا في الدير . [٧١] وفي هذه الضيعة سبعون بيتاً قاتوليقيين والباقي مسلمون . ورشم المونسنيور الاطفال . وبعد خمسة عشر يوماً عدنا الى ابرانيز .

وبعد كم يوم اخذونا الى ضيعة تُسمّى ابراكونيس[٤] وفيها مقدار خمسين بيتاً قاتوليقيين وعشرين بيتاً من الارمن وعشرين من المسلمين . وفي هذه الضيعة يجلس الملك اعني رئيس تلك الكورة وهو مسلم ولكنه معقول[٥] . فاخذنا الى بيته واضاف المونسنيور والبادرية واكرمه بالزيارة . ورشم المونسنيور اطفال تلك الضيعة .

١٠ استطراد في وصف مناقب المونسنيور بيكيت

وكان من عادة المونسنيور انه اذا نزل في حجرة [٧٢] ينزل مسيو كازمو بجانبه وانا في حجرة بجانبه . ثم نقوم من بكرة انا وكازمو وندخل عليه ويكون قد لبس ثيابه . فنأخذه الى الكنيسة ونخدم قداسه . وبعد ذلك يسمع قداساً او قداسين ثم نرجع به الى قلايته فان اراد يفطر بلقمة ويغلق عليه الباب ونتركه وحده في الحجرة يصلي . واذا اراد احد ان يزوره كان يجي . اولاً اليّ وكنت اروح اطلب منه الدستور . فاذا كان فرغ من صلاته كان يقول لي خلّه يجي . والا . فيقول اصبر قليلاً وارجع . فكنت اصبر

١) كراكوش . ٢) خوشاكونيس . ٣) صلطاغ . ٤) هيراكونيس . ٥) اديب .

وارجع بالشخص الزائر . فكان يتبارك منه ويكلّمه ويرجع[٧٣]مجبور الخاطر .

كذا كان يصنع المونسنيور مع الجميع قاتوليقيين كانوا ام هرطوقيين ام مسلمين . فكان يستقبلهم بالمحبة ويكلّمهم بالحشمة ويكرز عليهم بكلام مفيد لخلاص نفوسهم . وبعدما دُرْنا ضياع القاتوليقيين رجعنا الى ابرانير مكاننا .

اما قرى الارمن المراطقة القريبة او البعيدة منا فكانوا عندما يسمعون عن فضائل المونسنيور يقصدونه حتى يتباركوا منه . ولما كان نهار عيد جميع القديسين بعدما قدّس المونسنيور القداس الكبير جاء رئيس ضيعة [٧٤] شاهبونيس ليشتكي عنده قائلاً : انه قد جاء داروغا[١] من طرف حاكم تبريز يريد الخراج . وامسك فحبس اناساً وضربهم وهرب الباقي . فامرني المونسنيور ان اروح اليه واكلّمه . فركبتُ ورحت الى قرية شاهبونيس ودخلت على الداروغا وكلّمته . فارسل عاجلاً وفكّ المحبوسين . وبقيتُ هناك خمسة ايام الى ان جمعت خراجهم بالمعقول وسلّمته الى الداروغا . فتبقّى عليهم اربعون غرشاً . فكفلت انا فيها واعطاها المونسنيور ورجعت الى ابرانير .

ولما كان شهر كانون الثاني جاء آغا من جانب خان تبريز الى بلاد نقشوان . وكان رجل [٧٥] يُسمّى جعفر راح اشتكى الى الخان على نصارى قرى القاتوليقيين شكوى باطلة . فارسل الخان معه هذا الآغا . واول وصوله امسك بعض النصارى وضربهم وحبسهم . فجأوا اشتكوا الى المونسنيور فصاحني وقال لي : لاجل الله رُحْ الى نقشوان عند الخان وتكلّم مع هذا الاغا من جانبي وفكّ الناس المحبوسين . وكان ذلك اليوم شتاء عظيماً والثلج قد ربط الدروب . فركبتُ نصف النهار ورحتُ الى نقشوان ووصلتُ نصف الليل وانزلني الخان في بيت واحد ارمني . وثاني يوم رحت عند الخان فارسل كاهيته[٢] [٧٦] الى القاضي وصاحوا الآغا والمدّعي وعملوا جمعية . فقلتُ له نيابةً عن المونسنيور : ان سيدي الالجي[٣] يقول لكم ان تشرعوا بالحق وتنظروا من هو الظالم ومن المظلوم واذا لم تشرعوا بالحق فهو يشتكي للشاه على الظالمين وينتقم منهم ثم اني اول شي. فكيتُ المحبوسين كلّهم . وبعد ما عملوا الديوان[٤] فمن

١) مفتش ٢) أمينه ٣) السفير ٤) الاجتماع

خوفهم من المونسنيور حكموا بالحقّ وثبتوا الدعوى على المدعي . فأمسكه الآغا . وبعدما قضيتُ خمسة ايام في نقشوان رجعت ورجعتْ المحبوسين معي . فلمّا وصلت عند المونسنيور [٧٧] ابتدأ المحبوسون يدعون له لانهم بواسطته خلصوا. ثم حكيته كلّ ما جرى ففرح بي وباركني.

وفي هذا البلاد يصير برد شديد جدًّا لا يصير مثله في مكان حتى انه بعض اوقات يجلّد كاس الدم(١) . ومع هذا جميعه كان المونسنيور يروح كل يوم يقدّس في هذا البرد الشديد . وكان يتعوّق في القداس مثلما يتعوّق في الصيف . ويتعوّق بعد القداس نصف ساعة اخرى . وانا كنتُ اخدم قدّاسه واجفّ من البرد . لان مسيو كازمو كان يمرض بعض اوقات . وبعد خروجه من الكنيسة كنتُ آخذه الى حجرته واشلّحه الكسوة الاسقفيّة [٧٨] . واذا اراد كان يفطر بلقمة ثم يبدأ بالصلاة فاغلق الباب وارجع الى حجرتي . وكان اولاد الضيعة يريدون يرتشمون فاوصى المونسنيور البادرية ان يعلّموهم التعليم المسيحي بالتمام . وبعد ان امتحنهم رشمهم مثلما كان يعمل في باقي القرى .

وكان كل يوم يلبس الثياب الاسقفية ويجلس على كرسي في مكان واسع ويجمع اليه الاولاد المزمعين ان يرتشموا ويبدأ يسألهم بواسطة ترجمان . فالذين لم يتعلّموا كان يأمرهم ان يتعلّموا تماماً حتى يرشمهم . وهكذا كان يسأل واحداً واحداً مقدار ساعتين.

ولما كان اول احد من الصوم [٧٩] الكبير رسم قسوساً وشمامسة . وكان مسيو كازمو فاوّل وصولنا الى ضيعة ابرانير ابتدأ يتعلم الارمني . وكان في الصوم كل يوم بعد الغدا يجمع اولاد الضيعة في الكنيسة ويلبس قميصه ويلبس ايضاً المونسنيور طقمه ويجلس في كرسي الاسقفية . فيبدأ مسيو كازمو يكرز عليهم ويُعلّمهم تعليم المسيح مقدار ساعة ونصف . وهكذا كان يعمل طول الصوم الكبير . وفي خميس الفصح عمل المونسنيور الميرون . وغسل ايضاً ارجل ثلاثة عشر واحداً وأحسن اليهم وغدّاهم وخدمهم . وكان قد جاءه مكتوب من ملك [٨٠] فرنسا وجمله إلجي.

---

١) وقت القداس

وكان في هذه الضيعة رجلان عاطلان جدًّا يعملان الضرر لكثير من النصارى . فأمرني المونسنيور ورحت الى ضيعة اخرى وكتبتُ مكتوباً من فمه الى حاكم تبريز حتى يرسل ناساً يمسكون هذين الشقيين ويأخذوهما الى تبريز حتى اذا جاء المونسنيور الى تبريز يدّعي معهما . ثم بعث المكتوب مع ساع الى حاكم تبريز . وفي تلك السنة عيّدنا قبل الارمن باربع جمع (اسابيع) لان الارمن الكاثوليكيين عيّدوا على الحساب العتيق.

١١ - سفر المونسنيور بيكيت الى تبريز وتفقده قرى الارمن

ولما كانت الجمعة الثالثة بعد العيد استكرينا دوابّ الى تبريز [٨١] فجاء آغا من قبل حاكم تبريز ومعه خمسة انفار يُسمّى مهمندار[1] حتى يودّي المونسنيور الى تبريز بالاكرام مثل ايلجي . وأمسك ايضاً الاثنين الشقيّين وجعلهما في الزنجير حتى ياخذهما معه . وبينما نحن مهتمون في السفر جاء قسوس واعيان ضيعة اكوليس الارمن يدعون المونسنيور اليهم ليبارك ضيعتهم . فبعثنا الحكيم والاحمال الى ضيعة جولفة العتيقة وهي بعيدة نحو يوم عن ابرانير على جانب نهر الاراز . واخذ الآغا المسوكين[2] وراح الى تلك الضيعة ينتظرنا . ونحن اخذنا معنا حملين الواحد حوائج المطبخ [٨٢] والآخر حوائج القداس وقصدنا ضيعة اكوليس وبتنا في كوش كاشين . وهناك اشترينا فرساً مليحاً للمونسنيور وهو اعطاني فرسه . وثاني يوم رحلنا وعند المساء بتنا في دير ارمن فاكرمنا رئيس الدير . وثالث يوم بعثنا الاحمال الى ضيعة اكوليس ونحن رحنا الى ضيعة قريبة من مدينة اردوار تُسمّى كانتراغ[3] . ولنا فيها بيتان وكنيسة والباقي عجم مسلمون . ونزلنا في الدير . وكان صحبتنا البادري عازريا والبادري باولا وجاء الخواجا عازريا من ايروان الى ابرانير فجاء معنا . وثاني يوم كان نهار جمعة الآلام . فركب عشرون رجلًا وازيد من اكابر اكوليس واخذونا [٨٣] الى ضيعتهم . ولما ركبنا من كانتراغ امطرت علينا . ولما قربنا من اكوليس انقطع المطر .

---

١) محافظ ٢) المقبوض عليهما ٣) كانتصاك

ونظرنا اهل الضيعة الكبار والصغار طلعوا لملتقانا والكهنة والشامسة جميعهم لابسين طقوسهم حاملين سناجق الصليب المكرّم والاناجيل في يديهم والنواقيس تدقّ والمباخر تبخّر ويرتلون باطيب الالحان . ولما اقتربوا نزل المونسنيور عن فرسه ونزل بقيّة الركاب . ثم جثا على ركبتيه امام الصليب براس مكشوف وجثا جميعهم ايضاً . ثم صلى وقام فالبسوه بدلة عجيبة جدًّا . وارادوا ان يركب [٨٤] لان الضيعة كانت بعيدة فلم يركب بل كان ماشياً مكشوف الراس امام الصليب المكرّم . وانا وقسيس آخر كنا رافعين بدلته . ولمّا وصلنا الى الضيعة ضربوا النواقيس في كل الكنائس.

ثم اخذونا الى دير مار توما وفيه كتف مار توما الرسول . وهذا الدير هو كرسي اسقفهم . ولكن الاسقف لم يكن هناك . فانزلوا المونسنيور في حجرته وكل واحد منّا في حجرة. ثم جاء اكابر الارمن وتباركوا من المونسنيور كمن بطركهم . ويوم السبت ليلة عيد القيامة عند الارمن قدّس المونسنيور . ووقت المساء قدّس الارمن .وبعد [٨٥] القدّاس اخذونا الى بيت الاكل واجلسوا المونسنيور في كرسي اسقفهم وجلس الباقي كلٌ واحد حسب درجته . واحضروا مائدة فيها بيض وسمك وجبن ولبن سوى اللحم.لان الارمن تلك الليلة يفطرون بعد حضور القداس.وبعد العشاء انصرفنا كل واحد الى مكانه.

وثاني يوم جاؤوا دعوا المونسنيور الى الكنيسة الكبيرة التي بنوها جديداً واخذوه بالزياح المذكور اعلاه . والبسوه بدلة وألزموه ان يركب لاجل الطين فلم يركب بل كان ماشياً معهم ونحن كنا رافعين اذيال بدلته . وكان اكابر الارمن محيطين به من اطرافه [٨٦] حتى لا يزحمه الناس . لان شعب بقية الكنائس اجتمعوا كلهم في هذه الكنيسة.ولما وصلنا لم نقدر نجوز لكثرتهم . وبالجهد عملوا لنا طريقاً وادخلنا المونسنيور . وكانوا قد رتبوا له ترونو[١] مكان اسقفهم فأجلسوه هناك وابتدأ القسوس يتباركون منه . وبعدهم اراد الشعب ان يتبارك فمنعوهم لئلا يصير طولة . فاخذنا نلبّس المونسنيور ثم قدّس وقدّس ايضاً الارمن بعده قداساً كبيراً بالترتيل . وكانوا يعملون جيريمونيا[٢] للمونسنيور مثل

١) ترونو من الايطالية (trône) اي العرش ٢) حفاوة (cérémonie)

اسقفهم. وبعد انتهاء القداس اجلسوه في الترونو وبدأ يكرز عليهم بالايتالياني.
[٨٧] وكان البادري عازريا يفسّر لهم بالارمني حتى انهم اخذوا يبكون من حلاوة لفظه وكلامه. ثم جاؤوا فردًا فردًا فردًا يتباركون منه. أولًا الكهنة والشمامسة وبعدهم الرجال والنساء. وكانوا يجثون على ركبهم. ومنهم من كان يبوس يده ومنهم ركبته ومنهم ثيابه ومنهم رجليه. وهكذا كانوا يتباركون منه بايمانٍ زائد كمن المسيح. وكان هو جالسًا بثيابه الحبروية والتاج في راسه كمثل ملاك الله. وكنت انا الحقير حاملًا عكازته وواقفًا على جانب الشمال. وكان الكهنة والشمامسة حاملين [٨٨] الشموع ومحتاطين به حتى انتهينا نصف النهار. ثم خلع المونسنيور طقسه[١] واخذونا الى بيت واسع فرشوه بالطنافس واجلسوا المونسنيور على كرسي ووضعوا امامه طاولة. وجلس الباقي على عادة البلاد وجابوا العرق وملبّس السكر في اوانٍ فضية. ثم جابوا الغداء. وتغدّينا ورجعنا الى مكاننا ورافقنا القسوس والاعيان.

وثاني يوم اخذونا الى كنيسة اخرى تُسمّى كنيسة العذراء. فقدّس المونسنيور هناك واضافونا ورجعنا الى الدير. ثم اخذونا الى ديرٍ خارج الضيعة فاكرمنا الرئيس ورجعنا الى مكاننا.

[٨٩] وثالث يوم جاؤوا اخذونا الى ضيعة بعيدة عنا اربعة اميال تُسمّى اكوليس الصغيرة ام تشط. اما الدير الذي كنا فيه فأهدوا الى المونسنيور طنفسة عجمية وقدّا[٢] أطلس. وهو ايضًا عاوضهم. وجاء معنا بعض اكابرها وودّعونا. ولما وصلنا الى نصف الدرب خرجوا امامنا بالطبول والزمور. ولما قربنا الى الضيعة خرج الكهنة والشمامسة وباقي الشعب بالزياح فنزل المونسنيور وجثا امام الصليب. ثم البسوه بدلة جميلة والزموه ان يركب فلم يُرد بل بقي يمشي. وعند دخولنا الى الضيعة [٩٠] انزلونا في بيت اسقفهم داخل حوش الكنيسة. وثاني يوم قدّس المونسنيور قداسًا كبيرًا. وبعد القداس اجلسوه على كرسي وجاؤوا جميعهم تباركوا منه. ثم اضافونا احسن ضيافة. فتغدينا ثم حملنا قاصدين الرجوع. فجاؤوا يتوسلون الى المونسنيور ليبقى عندهم اقلها يكون ثلاثة

١) حلته الكهنوتية ٢) ثوبًا

ايام. فقال لهم ما اقدر اتعوّق ازيد لان اليوم ثمانية ايام منذ راحت احمالي الى جولفة[١] والمكارية والمهمندار ينتظروني هناك. فركبنا الى جولفة وركب معنا اكابر الارمن من الضيعتين اي اكوليس الكبيرة والصغيرة.

[٩١] ثم عدّينا على ضيعة ونند[٢] نصفها مسلمون ونصفها ارمن. وكل منهم يقطن منزلًا عن الآخر. وطلع جماعة الارمن امامنا وتعلقوا بالمونسنيور يطلبون منه باكين ان ينزل يبارك ضيعتهم وبيوتهم فلم يرد ان ينزل. فالحوا عليه وبدأوا يقبلون يديه ورجليه قائلين: كيف تروح تبارك ضياع اخوتنا الدولتلية[٣] ونحن بما اننا فقرا. تجوز علينا؟ فنزل المونسنيور وتوجه نحو البيت ولما اقتربنا بقي كل واحد يريد ان ياخذه اليه. واخيرًا واحد منهم كان له اخوان في بلاد الفرنج اخذنا الى بيته. [٩٢] ولما دخلنا الحوش جاءت امه وسقطت على ارجل المونسنيور تبكي وتسأله عن ولديها. فسلّى خاطرها وعزاها وباركها. فادخلته الى بيتها وجاء كل اهل البيت الصغار والكبار وتباركوا منه.

ثم بسطوا مكانًا داخل حوشهم واحضروا مائدة. وكان كل واحد من اهل الضيعة يجيب من المأكول والمشروب ويضعه في الصفرة[٤] ليبارك عليه المونسنيور. ثم اجلسوا المونسنيور وجلس كل واحد في مكان وشربوا وتوسلوا الى المونسنيور حتى شرب فنجانًا. وكان هناك كبير القسوس الذي يسمّونه وارتابيد جالسًا [٩٣] عن يمين المونسنيور وانا عن شماله. وفي الوسط غضارة كبيرة تسع عشر بوقالات[٥] شراب. فأخذها القسيس بيده ورفعها عن الارض وكان ذا بطن كبيرة وقال للجماعة كل من يحب المونسنيور يشرب من هذه قدر ما يريد. فلما نظر المونسنيور الغضارة في يده سألني قائلًا ماذا يريد ان يعمل هذا؟ فقلت له يريد يشرب في محبتك. فقال ان كان يحبني لا يشرب. وكان المونسنيور يظن انه يشربها كلها. ثم وضعها على فمه وشرب منها مقدار قدح واعطاها الى رفيقه الذي بجانبه فعمل كذلك قائلًا: في محبة المونسنيور. وهكذا عمل جميعهم حتى [٩٤] وصلت اليَّ فشربت مثلهم في محبة المونسنيور.

١) هي غير جولفة السابقة الذكر ٢) لا اثر لهذه القرية في يومنا
٣) الاغنياء ٤) الطبق ٥) اقداح

ثم طلب مني المونسنيور ان املأ له قليلاً من النبيذ الممزوج بفنجان فاخذه وشرب هو ايضاً في محبتهم فقاموا كلهم على ارجلهم وكشفوا رؤوسهم . وبعد ذلك قمنا من المائدة وقاموا جميعهم . واخذ كل واحد في يده لقمة خبز من تحت البركة حتى يؤدّوها(١) الى بيوتهم . ثم ركبنا وارتحلنا ومعنا اعيان الارمن حتى وصلنا الى الدير المذكور وبتنا هناك .

وثاني يوم قمنا وتودعنا من جماعة الارمن واستكثرنا خيرهم وتباركوا من المونسنيور ورحنا حتى وصلنا الى جولفة . فخرج الكهنة والشعب بالزَّياح [٩٥] كباقي القرى . وخرج ايضاً المهمندار مع ناسه . وفي الليلة الماضية كان قد جاء حراميّة(٢) الى الضيعة ليسرقوا من حوائجنا . فامسك المهمندار ثلاثة منهم وكانوا مسلمين وجعلهم في القيود . ولما نزلنا في الضيعة احضرهم امام المونسنيور فابتدأ يكرز عليهم وينصحهم حتى يتوبوا . ولما سمع حاكم نقشوان(٣) بعث اخذهم لانهم أمسكوا في ارضه . وثاني يوم ايضاً بقينا هناك الى ان قضينا اشغالنا . فجاءنا بادري كبوجي من جانب خان تفليس الكرجي ابن الشاه نوازخان يدعو المونسنيور حتى يروح الى تفليس ويسكن هناك . فامتنع عن الرواح ودخلنا احمالنا [٩٦] في الباركات(٤) التي كانت على نهر الارز(٥) وجزنا الى الجانب الآخر وتودعنا من الجماعة الذين كانوا برفقتنا من ابرانير . ورجع البادري الكبوجي عند الخان .

فجزنا النهر ورحنا الى ضيعة مسلمين فخرجوا لملتقانا وانزلوا المونسنيور واكرموه . وثاني يوم رحنا الى ضيعة اخرى ففعلوا كذلك . وكان المونسنيور يوصي المهمندار ان لا يظلم احداً ولا يأخذ شيئاً زائداً من احد . ورابع يوم وصلنا الى ضيعة مسلمين تُسمّى مرند ومنها مرحلة الى تبريز . ولما اقتربنا منها خرج اعيانها لملتقانا راكبين والطبول والزمور بين ايديهم واستقبلوا المونسنيور بفرح عظيم [٩٧] وانزلونا في احسن البيوت .

---

١) يأخذوها ٢) فاعلو الحرام واللصوص

٣) نخجفان ٤) السفن او القوارب

٥) هو النهر الفاصل ارمينية عن بلاد الفرس

اما المونسنيور فكانت عادته اذا وصلنا الى قرية يدخل هو ومسيو كازمو والبادري جاستنو البرتغالي الى حجرة ويقدّس المونسنيور . لاننا كنا نحتمل في الليل ونصل الى الضيعة قبل نصف النهار . وانا كنت اروح اقضي كل الاشغال التي نعتاز اليها واحضر الغداء للجماعة لاننا كنا خمسة عشر نفرًا سوى المهمندار . واول وصلنا الى هذه الضيعة كتب المونسنيور مكتوباً وبعثه مع الساعي الى البادري الكبوجي في تبريز يعلمه بوصولنا.

١٢ وصول المونسنيور بكيت الى تبريز

[٩٨] وثاني يوم حملنا من بكرة ورحلنا . وفي نصف الدرب لقينا البادري والمطران اسهاك مطران تبريز ومعها ازيد من عشرين ارمنياً . فنزلوا عن خيلهم وتباركوا من المونسنيور وركبوا ومشينا . ولما قربنا من تبريز لقينا مهمندار البلد مع بعض اعيان المسلمين ومعهم فرس مُسرجة مزيّنة حتى يسحبوها امامه اكراماً له وقد ارسلها اليه حاكم تبريز . فسلّموا على المونسنيور وادخلونا الى تبريز بعز عظيم . وكانوا قد هيّأوا لنا مكاناً وانزلونا في بيت رجل ارمني اسمه قازار . [٩٩] فلما كان الاحد عزمونا الى كنيسة الارمن فركبنا خيولنا واجتزنا الاسواق. وقبل وصولنا الى البيعة خرج المطران والقسوس والشامسة بالتقوس[1] حاملين سناجق الصليب والاناجيل والمباخر والصنوج والنواقيس تدق بين ايديهم والشعب يتبعهم والمسلمون واقفين في الازقة يتفرّجون . واول ما اقتربوا الينا نزل المونسنيور عن فرسه ونزلنا جميعاً فجثا على ركبتيه امام الصليب المكرَّم . ثم البسوه بدلة جميلة ومشينا حتى وصلنا الى الكنيسة والناس تزحمنا حتى يتباركوا من المونسنيور.

[١٠٠] ولما دخل الى الكنيسة أجلسوه على كرسي وجابوا لقن فضة وابريق فضة ملآناً ماء ورد . ثم تشتّل[2] المطران اسهاك وجثا على ركبتيه امام

---

١) بالزي الكهنوتي العتقي.
٢) تشمّل بالشملة تلفّع بها . والشملة كساء واسع يُشتمل به.

المونسنيور وغسل رجليه[١] . وتزاحم الناس واخذوا الماء الذي غسل رجليه مثل ماء مبارك وكانوا يمسحونه في وجوههم بايمان عظيم . ثم قدّس المونسنيور قداساً كبيراً وكرز بالايطالياني وكان عازريا يشرح لهم بالارمني فتغدّينا هناك . وكان اكابر الارمن جميعهم حاضرين . وبعد [١٠١] الغدا رجعنا الى بيتنا .

وثاني يوم ركبنا مع المونسنيور ومعنا مهمندار البلد امامنا ورحنا حتى نزور حاكم البلد مرزا ابرهيم . وكان قد حضر جماعته في السراي . فلما دخل المونسنيور نهض قائماً واستقبله بفرح وأجلسه في المكان الاشرف واجلس جماعتنا كل واحد في مكانه . ثم ابتدأ يحكي مع المونسنيور وانا كنت الترجمان باللسان التركي . ثم احضروا مائدة من جميع الخيرات فتغدينا ورجعنا الى بيتنا .

ويوم الاحد رحنا الى بيعة الكبوجيّين وقدّس المونسنيور . وكان المطران اسهاك حاضراً [١٠٢] واكابر الارمن . وكرز المونسنيور وبعد القداس تغدّى مع المطران اسهاك عند البادرية ورجع الى البيت . وكان كل يوم يقدّس في حجرته ويبطئ في صلاته .

١) هذه عادة قديمة اذ كان المضيف يغسل رجلي ضيفه (تكوين ١٨ : ٤ ، ولوقا ٧ : ٤٤)

(لها صلة)

شذرات

الاوضاع الصوفية لدى فلاسفة العرب

اتانا من حضرة الاديب عبدالستار سيت ، بينگالور (الهند) ، البحث التالي في بعض الاوضاع الصوفية لدى فلاسفة العرب . ومن الطبيعي ان « المشرق » لا يسلّم بما ينطوي تحت هذه الاوضاع من الاضاليل الحلولية ، وليست هي من معتقد الكاتب الفاضل ، بل من آراء الفلاسفة المكتوب عنهم . قال :

قد اختصّ العلماء المسلمون من الصوفية في القرون الخوالي بالفلسفة اليونانية وغيرها اختصاصاً تامًّا ، وقامت الوف من المصطلحات الجديدة مقام المصطلحات التي وضعها الفلاسفة في لغتهم . ومن الغريب انهم اختلفوا في ما اختاروه من حيث المعاني . فلا يقدر اشياعي من الرجال ان يفهموا الفاظهم العلمية محوّلين قياسهم الى الاصل عند المقابلة الا باعمال الفكرة كثيرًا جدًّا . ولا شك انهم جعلوا المصطلحات متعرّبة من اليونانية نظرًا الى عقائدهم الدينية ، وهذا يفسر لي الثقة التي كان الصوفية يتمتعون بها من بين علماء الشريعة الاسلامية الذين كانوا متمسكين بالقرآن والاحاديث النبوية ومعتصمين بنصّهما الظاهري منذ ظهور طرقهم المتعددة خلال القرون المتوالية الى اليوم . واني مع قلة علمي بمسائل الفلسفة والتصوف ، تجاسرت على ايراد بعض مصطلحاتهم ومعتقداتهم مع مقابلتها ببعض العقائد الفلسفية .

ذهب الصوفية الى آراء الفلاسفة وقالوا ان هناك اربعة موجودات: اولًا: الوجود الباطن ؛ وله مترادفات في لسانهم مثلًا : الوجود الاوّل ، ذات البحت ، الوجود الخاص ، مبدأ المبادئ ، اول الاوائل وغيرها ؛ وهذا الوجود مستقلّ بالموجودية بلا شرط شيء في حدّ ذاته . ثانياً : الوجود المنبسط ؛ وله مصطلحات لفظية اخرى ، مثلًا : طبيعة الكل ، هيولى العالم ، الوجود العام ، حقيقة الحقائق ، الحقيقة الكلية ، النفس الكلية ، الصادر الاول وغيرها ؛ ويقال انّ صور واشكال العالم كلها متواردة على الوجود المنبسط كتوارد

الحبب والامواج على الماء ، وتوارد الاشكال على الشمع . ذهب بعض الصوفية الى الرأي ان هذين الوجودين لا غيرية بينهما ، ولذلك سموهما بالوجود المطلق . ولكن الشيخ ابن العربي خالفهم وقال ان الوجود الباطن ، هو الوجود المطلق . ثالثاً : واجب الوجود ، وهذا الوجود مقيد بقيود الاوصاف الوجودية . رابعاً : ممكن الوجود ، وهذا الوجود مقيد بالقيود الامكانية ، ويقال له الصادر الثاني ايضاً .

يرى الفلاسفة ان الوجود الباطن ، هو الروح وان الوجود المنبسط ، هو المادة وهي ازلية قديمة ايضاً . كما وجه النبي موسى افكاره الى حل هذه المسألة في سفر التكوين في الفصل الاول . وقد اثبت القرآن هذا القول بالآية الآتي ذكرها :

« وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّموٰاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ ايامٍ وَكَانَ عرشُه على الماء » . (سورة هود : ٩) وانا اعتقد ان المراد بالماء هو المادة ، ويظهر من سياق الكلام انها قديمة ، ويقول سيمون (Simon) :

God is present in every intellectual act. Man can not conceive the *ego* and the *non-ego* otherwise than as causes, nor conceive these causes otherwise than in a substance ; and as that makes two causes and two substances...... etc. (1).

« ان الله موجودٌ في كل فعل عقلي . فلا يقدر الانسان ان يتصوّر « انا » و« لا انا » الا بمثابة علل . ولا ان يتصوّر هذه العلل الّا في جوهر ما ، وكَذَا هذا ينشأ عنه علّتان وجوهران الخ . . . »

وهناك امثلة اخرى تختلف فيها آراء الصوفية لسبب المصطلحات المختلفة عن المعنى الواحد . قد قال صاحب المكتوب المدني : « ان الثبوت منبعه اقتضاء الذات الالهية للعالم في عالم العقل قبل الوجود الخارجي ، وهو الذي يسميه الصوفية بالتنزّل العلمي » . وقال ايضاً : « ان الوجود منبعه الوجود المنبسط على هياكل الموجودات اياماً شئت تقل ، وهو صادر من الذات الالهية . » وقال

(1) Victor Cousin *by* Jules Simon. *Translated by* G. Masson ; pp. 42, London, 1888.

القيصري : « الصوفية لا يريدون بالعلم ارتسام صور الاشياء ولكنهم يريدون صدور الاشياء منه مرة واحدة في المرتبة العقلية قائمة بالواجب لا بنفسها .
ولنبيّن ذلك بمثال : اذا وضعت الخاتم على الشمعة انتقش فيها الحروف المكتوبة في الخاتم ، فالحروف الظاهرة في الشمعة انما كانت لعلة فاعلة وهو الخاتم وعلة قابلة هي الشمعة . » ولكن صاحب الانسان الكامل يقول « ان الارادة الالهية صادرة من غير علة ولا سبب بل محض اختيار » . اخذ الشيخ ابن العربي في مخالفته وقال ان « لا يجوز انه يسمّى الله تعالى مختاراً فانه لا يفعل شيئاً باختيار بل يفعله على حسب ما اقتضاه العالم من نفسه . » من هذه الآراء يظهر لي انهم اختلفوا في الفاظ الصدور ، الاقتضاء ، الارادة ، الاختيار ، العلة ، وغيرها للمعنى الاصلي . مع هذا كله ، انا استغرب اقوالهم المنطبقة على التأويلات الفلسفية بشأن الوجودات الاربعة وشذوذهم عن المنطق الصحيح .

والآن اذكر ما قاله القيصري في شرح القصيدة الفارضية عن النفس الكلية : « العقل الاول هو آدم الحقيقي والنفس الكلية هي حوّا الحقيقية والعقول والنفوس الناتجة منهما اولادهما ؛ آدم ابو البشر ، وحوّا صورة ما في العالم » .
اما العقل الاول فقد اتفق بعض الصوفية على ان المراد به انواع الارواح منها اهل الجبروت كالعقل الاول والملائكة ، ومنها اهل الملكوت كالنفس الكلية والنفوس المجردة والسماوية والعنصرية البسيطة والمركبة وغيرها . والذي يهدينا الى فهم هذا الشرح هو قول سيمون (Simon) الآتي ذكره :

After having described and explained humanity, Cousin describes and explains the species ; as he has written history of the man, so he writes that of the species. There he finds the same law and the same progress. Just as, in man, he has proceeded from psychology to ontology, so he begins the history of humanity by the history of thought, that is to say, the history of science. Divine science embraces the totality of the being, and is the totality of science ;...... human science...... is progressive instead of being perfect. (p. 45).

« ان كوزن ، بعد ان وصف وبسط الانسانية ، يصف ويبسط الانواع .
وكما انه كتب تاريخ الانسان كذلك يكتب تاريخ الانواع . وثمّت يجد

ناموساً واحداً ورقياً واحداً . وكما انه ، فيما يتأتى بالانسان ، تطرق من علم النفس الى علم الكائن ، هكذا يستهل تاريخ البشرية بتاريخ الفكر ، كما لو قلت تاريخ العلم . فان العلم الالهي يشمل كلية الكيان وهو كلية العلم . . . وانما العلم الانساني . . . هو في طريق التقدم لا في مقر الكمال . »

قال القيصري ايضاً في مقدمة شرح النصوص : « قد يقال للعقل الاول ام الكتاب لاحاطته بالاشياء اجمالا وللنفس الكلية الكتاب المبين بظهورها تفصيلا . »

فيؤخذ مما تقدم ان بعض الصوفية اتخذوا لفظي آدم وحواء مقام العلم الانساني بالعالم.

اما مسألة وحدة الوجود فقد اختلف الصوفية فيها من حيث الالفاظ . قال صاحب المكتوب المدني : « الصوفية حيث قالوا العالم عين الحق ما ارادوا نفي الوجودات الخاصة الحاصلة من تنزل الوجود الى مراتب شتى ، بل ارادوا افادة معنى التنزل والظهور . فكما ان المعقولي يقول : زيد وعمرو واحد ، يعني بهما التماثل في النوع ولا اتحاد من كل وجه ويقول ان الانسان والثعلب واحد يعني هما اشتركا في الحيوانية . فكذلك الصوفية يقولون العالم عين الحق وهم يعنون تعينات كلية في الوجود المنبسط » . قال الشيخ ابن العربي : « سبحان من اظهر الاشياء وهو عينها » . وقد ثبت عنده عين الوحدة مع الاعتبارات والاضافات . وقال مولانا عبد الرحمن الجامي بان الفرق بين الذات الالهية والصادر الاول اعتباري .

يسأل سيمون (Simon) نفسه بشأن هذه المسألة وسؤاله اوفى بالمرام :
What is pantheism, but belief in the Unity of substance, and of cause?

« ما هي الحلولية سوى الاعتقاد بوحدة الجوهر والعلة ؟ »

والخلاصة ان علاقة التصوف بالفلسفة لا تبعد عن الحقيقة الظاهرة ولو كانت المصطلحات مختلفة وغير منطبقة على المنطق الصحيح : ،

لا تماروا الناس فيما اعتقدوا   كل نفس بكتاب وسبيل (شوقي)

بنكالور (الهند)   عبد الستار سيت

تمثال فرحات في الشهباء

جرى في ٢٠ ايار المنصرم احتفال فخم في مدينة حلب كانت غايته تكريم ذكرى المطران جرمانوس فرحات، مَن يُدعى بحق اب النهضة العربية الحالية؛ وذلك بمناسبة مرور مائتي سنة على وفاته. فاقيم له تمثال جميل من البرونز يرى المطالع صورته الى جنب هذا الكلام.

افتتح النهار بحفلة دينية كبرى في الكاتدرائية المارونية القى فيها سيادة المطران اغناطيوس مبارك، رئيس اساقفة بيروت الماروني، عظة بليغة.

أما حفلة ازاحة الستار فكان ميعادها بعد الظهر. ولما دنت الساعة المعيَّنة احتشدت الجماهير في ساحة الكاتدرائية المارونية حيث كان التمثال منصوباً، يغطّيه العلَم السوري، وتحيط به الاعلام البابوية والسورية والفرنسية واللبنانية. وكان قد أُقيم في جانبيه منبران، واحد للرجال الرسميين والآخر للخطباء. فاعتلى الاول رئيس الجمهورية السورية، محمد علي بك العابد، وسيادة المطران عبد الله خوري ممثل غبطة البطريرك الماروني، ورئيس الوزارة السورية الشيخ تاج الدين الحسني، وجميع اساقفة الطوائف المسيحية، وعدد كبير من اعيان حلب ووفود لبنان. وتتابع على المنبر الثاني الخور اسقف اغناطيوس سعد، والاستاذ لويس زيادة، وسيادة المطران اغناطيوس مبارك، واحد مبتدئي الرهبانية الحلبية بالنيابة عن الاباتي جبرائيل العشقوتي، والاب شانتور اليسوعي، والمدير انطون عارج، والاستاذ اميل صعب، وموفد الحكومة اللبنانية شبلي بك ملّاط. ثم القى سيادة المطران ميخائيل اخرس، كلمة شكر، تكلم بعدها سيادة المطران عبد الله خوري، وختمت الخطب بابيات للخوري انطون عقل.

ثم انتقل المدعوون الى قاعة نادي الشبيبة الكاثوليكية حيث كانت لجنة الاحتفال اعدّت مأدبة فاخرة. وقد ارسل نيافة الكردينال باشلي، وزير خارجية الفاتيكان برقية هذا تعريبها: «رئيس الاساقفة الماروني ميخائيل اخرس — حلب بمناسبة ازاحة الستار عن تمثال المطران فرحات، فان الاب الاقدس مع تهانئه بهذا المشروع الشريف، يهدي اليكم بركته الرسولية الملتمسة.»

مطبوعات شرقية جديدة

Denis Saurat, Histoire des religions. In-8°, 413 pp. Paris, Denoël et Steele.

تاريخ الديانات

هو عنوان ضخم لا يتناسب ومواد الكتاب . وذلك اولاً لان المؤلف لا يستوعب موضوعه ، ومن المستحيل في زمننا الحاضر أن يقوم رجل فرد فيؤرخ ديانات العالم جميعها . وثانياً لان الكتاب لا مبرّر له ، على ما يظهر ، الا ان يعرض لنا رأي المؤلف في الله . لقد نشأ السيد سورات ، الاستاذ في جامعة لندن ، على المبادئ العقلية المحضة فكان من منكري الوحي . ولا يظهر انه دان بدين من الاديان . الا انه تحقق ، في اختبارات حياته ، ان فكرة الله لا تزال مستقرّة في النفوس ، وبدا له انها سوف لا تضمحلّ على رغم تقدم العلوم وارتقاء العقل ، فاخذ يسأل نفسه عمّا وراء هذا الاعتقاد . وهكذا تولد كتابه .

فلم يكن منه ، وقد شاء حلّ هذا المشكل ، الا ان تصفّح عدّة كتب عن الديانات المختلفة في العالم ، تصفحها سريعاً فلم يفهمها لانه لم يتعمق في درسها ، بل لم يتعمّق في درس اية ناحية منها . ولكن هذا لم يمنعه من اصدار حكمه على كل شيء ، فكان تارةً يسند هذا الحكم الى آراء ادلائه ، وطوراً الى رأيه الشخصي . فقاده الامر الى نتيجة مزدوجة ، مفادها ان الانسان بحاجة ١ً الى وجود الله ، و٢ً الى الاعتقاد بحياة بعد الموت . والمؤلف يرى ان النتيجة الاولى اشدّ رسوخاً من الثانية . هذا وقد قيّد متن كتابه كله بهذه النتيجة فكان من الطبيعي ان يُخطئ في عرض التاريخ . وكأنه لا يشعر بانه لا يحلّ شيئاً من المشكل او انه يجيب عن الصفر بالصفر . ولقد كان خيراً له لو احتفظ لنفسه بهذه الآراء ! وان من حقّنا ان نسأل : لمن يكتب المؤلف ؟ أَلزملائه من منكري الوحي الدائنين بالعقل المحض ؟ وهو لا يفيدهم شيئاً

جديدًا ! ام للمتقدين بوجود الله ؟ ومن منهم يتبع المؤلف في تلك الاخطاء الفادحة التي يكردها بسهولة غريبة ظانًا انه يأتي بالجديد المبتكر ! وهو لا يبرهن في ذلك الا عن جهله اصول العلم الذي يخوض فيه وعن تحيّزه الاعمى الى استغلال الاحكام السابقة . واذًا فهو ابعد من ان يقنع ارباب الديانات ، ولاسيما الكاثوليك الذين يظهر لديانتهم ميلًا لا بأس به .

على ان الكتاب يظهر بجملته مثالًا لذلك القلق الديني الصابغ عصرنا في بعض نواحيه : ان الاستاذ سورات يفتش عن الله ، واذ لا يجده فهو يكتفي بنتيجة سلبيّة تقوده الى الانكار المحض ، في المحيط الديني اولًا . ولكن هذا الانكار سوف لا يلبث ان يتصل بالمحيط العقلي ، حتى المادي نفسه . على ان كلّ هذا لا يبرّر قصد المؤلف بتأليف « تاريخ للاديان » . هذا وان المطالع المخلص ، اذا ما فرغ من قراءة الكتاب ، لا يتمالك ان يشفق على المؤلف فيسأل الله ان ينيره وجميع امثاله الحائرين المفتّشين عن الحقّ سبحانه . واننا نؤمل ان يكون مخلصاً في حيرته وتفتيشه ، وهذا شرط اساسي لكي ينير نفسه ذاك الذي يفتش عنه .

Fr. M. Braun O. P., Où en est le problème de Jésus ? In-12, 413 pp. Bruxelles, Editions de la Cité chrétienne, 1932. Prix : 24 fs. fr.

مشكل يسوع في حالته الحاضرة

هذا الكتاب مجموعة محاضرات القاها المؤلف ، سنة ١٩٣١ ، في معهد العلوم الفلسفية والدينية في بروكسل . وقد اجاب فيها عن السؤال الذي لا ينفك المسيح يلقيه جيلًا فجيلًا : « من تقول الناس ان ابن البشر هو ؟ » ... و« انتم من تقولون اني هو ؟ » فلخص اشهر النظريات والمذاهب في شخصية المسيح التي ظهرت منذ اوائل القرن العشرين . ثم اورد شهادة الاناجيل ليسوع ، وشهادة يسوع لنفسه . كل هذا باسلوب ، واضح ، سهل القراءة ، لذيذ .

ج . ل .

Petrus Voot S. J., **Mariae Vita**, ex opere sancti Canisii de Maria Virgine incomparabili et Dei Genitrice sacrosancta, brevius comprehensa ac mensibus festisque Mariae accommodata. In-8°, VIII+232 pp. Torino, Casa Editrice Marietti, 1934. Prix : L. 7,50.

يكفي عنوان هذا الكتاب للدلالة على ما قصده المؤلف اذ قام باعادة طبع كتاب معروف للقديس كانيزيوس ، بعد ان نظر فيه واظهره بمظهر يوافق العصر الحاضر . وفي الكتاب الفائدة الجلّى للكهنة الكاثوليكيين اذ يضع بين ايديهم نصًّا قيّمًا لا يزال على نفاسته الى اليوم فضلًا عن كونه من قلم احد القديسين .

Giuseppe Furlani, **Il poema della creazione (Enûm elìs)**, Traduzione, introduzione e note. (*Testi e documenti per la storia delle religioni*, 6) In-12, 126 pp. Bologna, Zanichelli, 1934.

ملحمة الخلق

لا يزال الاستاذ فورلاني يتابع جهوده في اطلاع مثقّفي الايطاليين على ديانة شعوب ما بين النهرين . وكان الايطاليون ، حتى المدة الاخيرة ، قد اهملوا نوعًا الاهتمام بتلك الشعوب (راجع ما تقدّم من وصفنا لكتب الاستاذ فورلاني في المشرق ٢٧ [١٩٢٩] ٧١٤ و٢٨ [١٩٣٠] ١٥٠ و٣٠ [١٩٣٢] ٣٩٢) وها انه يهدي الينا اليوم ترجمة كاملة للملحمة المشهورة باسم « انوما اليش » مأخوذًا من الكلمتين الاولين في الملحمة ؛ وهي تحتوي على تاريخ خلق الكون ، وغايتها الاولى تمجيد الاله مردوك ، كبير آلهة بابل على عهد الدولة الاولى وهي دولة حمورابي ، اي نحو السنة الالفين قبل المسيح . وكان من عادة البابليين القدماء ان يقرأوا هذه الملحمة في ٤ نيسان ، وهو اول يوم من السنة البابلية ، في سلسلة من الحفلات تؤدي الى القيام بكثير من الزيارات التقوية والاعياد المتنوّعة .

وقد قدّم على الترجمة توطئة موجزة ، ولكنها جامعة اشار فيها الى المشاكل الاساسية التي تختص بالملحمة المذكورة وبما يمكن فرضه لها من اصول قديمة وان

لم يكن لدينا اثر شومري لذلك ؛ وقد اشار كذلك الى الاصول الاشورية الكائنة بين يدينا اليوم ، من مقاطع واختلافات جمعت منذ نحو ثلاثين سنة ، كما اشار الى الابحاث التي نشرها في الموضوع لا الاشوريون فحسب بل علماء الكتاب المقدس وغيرهم ...

وقد صرف المؤلف اهتمامه ، في هذا المجلد ، عن كل مناقشة تختص بلغة النص الاشوري للملحمة وهو النص الوحيد المعروف لدينا . وقد اهتم خاصة بدرس الناحية التاريخية الدينية في ذاك الاثر .

والمؤلف مطلع اطلاعاً واسعاً على الكتب العديدة التي نشرت في الموضوع . اما ترجمته فسهلة سائغة تخالف ، في بعض نقاطها ، الترجمات المعروفة حتى اليوم وتبرهن عن حكم رصين متحفظ في الموضوعات التي لا تزال عرضة للمناقشة .

ولا نتمالك في الختام من ان نسأل : متى يكون لنا في اللغة العربية ترجمة لهذه الملحمة وما اليها من الآداب المسمارية ؟ متى يظهر في العالم العلمي اول عالم شرقي سوري يعلم الاشوريات ؟ س . ر .

Adolf Schulten, Geschichte von Numantia. In-8°, 170 pp. 11 plans et 13 fig. München, Piloty und Loehle, 1933. Prix, relié : 8 Mks.

تاريخ نومنسية

مؤلف هذا الكتاب اعلم علماء الالمان بتاريخ الجزيرة الاسبانية القديم . فقد اختص به منذ شبابه ، وواصل الحفريات في تلك الانحاء منذ السنة ١٩٠٥ حتى السنة ١٩١٢ . وها هو يهدي الينا اليوم مجلداً شائقاً جديداً بمكتبة بيلوتي، ضمنه ملخصاً تاريخياً لصفحة هي من اجل صفحات التاريخ الروماني في اسبانية .

ظهر في السنة ١٩٣١ المجلد الرابع من كتاب كبير للمؤلف عن نومنسية نفسها . الا ان ثمنه الغالي كان يحول بينه وبين الانتشار في محيط جمهور القراء، فضلاً عما اختص به من التدقيقات التي لا تهم غير الاختصاصيين . فكان لا بد ، والحالة هذه ، من وضع كتاب يبسط آراء المؤلف بسطاً علمياً سهلاً . وهو الكتاب الذي نصفه اليوم ، وقلما رأينا افضل منه تنسيقاً وجلاء ، فضلاً

عما اتصف به من سهولة الانشاء وجماله حتى بلغ وضوحاً لاتينياً تاماً .

نومنسية بلدة صغيرة في اعالي جبال قشتالة أسسها ، في العصر التاريخي ، فريق من السلتيين زحفوا على تلك البلاد بُعيد السنة ٧٠٠ ق . م . ثم لحق بهم حوالي السنة ٤٠٠ ق . م . قوم من الايبريين اتوا من الجنوب ومن افريقيـة . وظلّت نومنسية دون تاريخ يُذكر حتى القرن الثاني ق . م . فبدأت المعارك الاولى بينها وبين الجيوش الرومانية في السنوات ١٨١ - ١٧٩ ، ثم في ١٥٣ - ١٥١ ، وتتابعت تلك الحروب من السنة ١٤٣ الى السنة ١٣٤ بشدة وصبر . فاظهر فيها المقاومون شجاعة نادرة هالت رومية فارسلت اليهم القائد سيپيون الشهير فاناخ على البلدة وبنى حولها سورًا للحصار ، كما فعل بعده يوليوس قيصر محاصرًا الزية في بلاد غالية ، ولم يلبث سيپيون مضيّقاً على نومنسية حتى اخضعها في السنة ١٣٣ . على ان مقاومة النومنسيين ظلّت ، في التاريخ ، مثالًا للشجاعة الفائقة ولما يقوم به الشعب الحرّ من التضحيات في سبيل الدفاع عن حريته .

ولقد كان على الرومان ان يقوموا بعد ذلك بمثل هـذا الحصار اذ اناخوا على مسدة في الضفة الصخرية الغربية من البحر الميت وذلك سنة ٧٢ ق . م . وكان في تلك المدينة ٩٠٠ من اليهود قُتلوا جميعاً عن آخرهم في الدفاع عن بلدتهم .

واذا ذكرنا تلك التضحيات والمقاومات في سبيل الحرية فلا ننسى لبناننا العزيز ، على كون اللبنانيين كانوا اسعد حظّاً من اليهود . الا انهم لم يتخاذلوا في اوقوف في اوجه الفاتحين والغزاة . ولهذا ، فاننا نُعجب باهل نومنسية ونهتمّ بتاريخهم .

س . ر .

AL-ŠAQUNDI, Elogio del Islam espanol. Traducción española por EMILIO GARCIA GOMEZ. [*Publicaciones de las Escuelas de Estudios arabes de Madrid y Granada*, Serie B, num. 2]. In-8°, 123 pp., 1934, Prix : 4 pesetas.

رسالة في فضل الاندلس

اسم مؤلف هذه الرسالة ابو الوليد اسماعيل بن محمد ، توفي في اشبيلية سنة ٦٢٩ للهجرة (١٢٣١-١٢٣٢ م) . اما لقب الشكوندي المعروف به فنسبة الى

بلدة شكونده ، مسقط رأسه . وكان من امر هذه الرسالة ان حصل مناقشة يوماً بينه وبين احد ادباء مراكش في اي البلدين افضل فكتب الشكوندي في فضل الاندلس ذاكراً كل من حكم فيه من الخلفاء والملوك والامراء بادئاً بالامويين. ثم اشار الى الوزراء والقواد وسائر رجال الدولة ، والعلماء ، والادباء. وبين هؤلاء كثير لا نعرف لهم ذكراً في غير هذه الرسالة . وفيها كذلك عدد لا يُستهان به من المنتخبات الشعرية منشورة لاول مرة . وكلها تدور خاصة على وصف الخمرة والملذّات الشهوانية مما يدل على ان المثال الاعلى في تلك البيئة لم يكن على شيء من السموّ.

وقد خصّ الشكوندي القسم الثاني من رسالته بوصف اشهر مدن الاندلس كاشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومالقة الخ . . . ومما زاد الاثر قيمةً ان المترجم علق عليه حواشي مفيدة جديرة بعلمه وبجهود مدارس المستعربين في مدريد وغرناطة. ه. ل.

E. M. Antioniadi, L'astronomie égyptienne. In-8°, illustré de 50 fig. dans le texte et de 7 planches hors texte. Paris, Gauthier-Villars, 1934. Prix : 40 fr.

علم الفلك المصري

لم نكن نعرف ، حتى ظهور هذا الكتاب ، تاريخاً مفصّلاً لعلم الفلك المصري . وقد استعان المؤلف بمعرفته اللغة اليونانية على درس آراء الفلكيين اليونان ، فسرد نصوصهم وترجمها . ولا يعني هذا ان اليونان سبقوا المصريين في الفلكيات ، بل الامر بالضد . الا ان اليونان زادوا عليهم فحسنوا هذا العلم وفاقوا المصريين . والمؤلف يدرس علاقات الدين المصري القديم بالكواكب ثم يبحث في الآلهة الثنوية ولاسيما تلك المنتسبة الى المظاهر الفلكية ؛ ويبحث كذلك في البروج المصرية ، وفي الكهانة والكهّان ومعارفهم الفلكية ، واخيراً في الاهرام . ويزيد في قيمة الكتاب مظهره الحسن وصوره العديدة.

ج. ل.

EDOUARD KRAKOWSKI, Plotin et le paganisme religieux. [*Les maitres de la pensée religieuse*, n° 3]. In-12, 301 pp. orné de six héliogravures hors-texte. Paris, Editions Denoël et Steele, rue Amélie 19.

افلوطين والوثنية الدينية

كان افلوطين مصرياً يعيش في القرن الثالث للمسيح ، وهو انبغ الفلاسفة المنتمين الى المذهب الافلاطوني الحديث ، بل هو مؤسس هذا المذهب . هذا ما دفع مؤلف الكتاب الى ان يخص بافلوطين حلقة من سلسلة « اساتذة الفكرة الدينية » . على ان المعروف عن افلوطين نفسه ضئيل جداً ، اذا استثنينا مذهبه . وقد احسن المؤلف صنعاً بدرسه هذا المذهب منذ اصوله القديمة . وقد مهّد له بدروس سابقة عن الفيلسوف المذكور نشر منها بحثاً في فكرة افلوطين في الجمال والفنّ وتأثيرها ، وبعدُ بحثاً آخر في تأويله لمذهب افلوطين .

اما في الكتاب الحاضر فيفتّش عن اصول هذا المذهب في اسرار الوثنية القديمة ، وامكانية موافقتها للميول السامية في النفس البشرية ! ويعرض لوصف البيئة التي ظهر فيها المذهب ، تلك البيئة الاسكندرانية المشبعة بالنظرية المدرسية في الانتخاب الفلسفي . وذلك في فصل اول يظهر طويلاً لما فيه من تلخيص للتاريخ اليوناني والروماني في الاسكندرية ، ومن اشارة الى التأثيرات المتنوعة التي امكنها ان تعمل في هذا المذهب الفلسفي وهي التأثيرات اليهودية والنصرانية والافلاطونية الحديثة . ويرى المؤلف ان ابتكار افلوطين يقوم بكونه يحتلّ مركزاً وسطاً بين النصرانية والافلاطونية الحديثة ، وبكون مذهبه ، على استناده الى بعض المبادئ الافلاطونية العقلية الظاهر ، يميل خاصة الى نوع من التصوّف الغامض لا يمكنه ان يزدهر الا اذا لقّحه النَّفَس المسيحي .

وينهي المؤلف كتابه بنظرة على ثبات بعض المبادئ الافلاطونية الحديثة في مظاهر شتى منذ القرن الخامس حتى ايامنا . وهو ، في كل ذلك ، يظهر دقيق العمل ، سهل الاسلوب على الرغم من صعوبة الموادّ . ج.ل.

Charles Corm, La Montagne inspirée. Chansons de Geste [*Les Auteurs Libanais de langue française*]. In-8°, 96 pp. Beyrouth, édition de la Revue phénicienne, 1934.

جبل الالهام

حماسة اشعيا الملتهبة، ولواعج ارميا المذيبة، وقوارع حزقيال اللاذعة، وخيال سليمان الوثاب، وايمان داود الحيّ المخلص؛ كلّ ذلك الى دقة في التصوير جذّابة، وتفنن في ايقاع النبرات أخّاذ بالاسماع، واذا بنا نرقى صعدًا مشارف «جبل الالهام» فتنبسط امامنا فنيقية بترافتها الصاخبة، وسواحلها المخصبة، ومرتفعاتها الآهلة بارباب الفنّ والجمال. ثم تمتدّ رقعتها رويدًا رويدًا حتى تتجاوز المتوسط بل الاوقيانوس الفسيح، فيهيم جبابرتها على تلك البيداء المتاوجة حاملين مشعل الثقافة الى الامم قريبة وبعيدة... ويدور دولاب الدهر دورته، فيقضي ضجيج المادة على همس الروح الخفي، ويُعرض الاحفاد عن مفاخر الثقافة القومية فينصرفون الى عرض الحياة متكالبين، ويخنعون للعدوّ الطارئ متخاذلين، ويُهمَل تاريخ فنيقية المجيد فيتضاءل شيئًا فشيئًا في ظلال النسيان. واذا اراد الله بقوم شرًا انساهم تاريخهم، فقطع بينهم وبين ماضيهم، وتركهم في ظلمات السُبات يهجعون؛ حتى يُهيب بهم شاعر عالم يستنطق الطلول عن المجد التالد فيصبغها بروائع خياله، وينثر المراثي الدامية قطعًا من كبده، يقرّع العقول ويلذع الافئدة، يحرّك الذكريات ويثير العواطف، يُنمّي الحكمة في ادمغة الشيوخ ويبثّ الحماسة في صدور الشبان؛ واذا بالشعب يستعيد ذكر مفاخره، واذا بالحياة الجديدة تتململ في عروقه، واذا بلبنان يعرف فضل شاعره، واذا بشارل قُرم يتبوّأ عرشه السامي في جبل الالهام.

هذا شاعر عالم — والشعر والعلم اخوان، كما يقول — لخّص تاريخ لبنان في دماغه، وحصر شعور لبنان في فؤاده، فجمع تاريخنا الطويل المتفرّق في ذكرياته الحيّة، وضمّ نزعاتنا المتشعّبة في عاطفته الشاملة، فسما بنا الى ما فوق المادة، الى ذروة تنحلّ عنها قيود الزمان والمكان. وسواء أكانت صورته آريّة التصميم ام ساميّته، ما دامت الوانها مأخوذةً من جبين فجرنا، وقلب ربيعنا، وكبد سمائنا، ومعاطف جبالنا المتألقة اصباغًا شتى! وسواء أكانت

موسيقاه غربية القرار ام شرقيته ، ما دامت نغماتها موقّعة على حفيف اشجارنا ، وخرير مياهنا ، وأنّات البائسين فينا ، وهُتاف من لمسهم الشاعر بانامله السحرية فرأوا انفسهم سعداء ! وسواء أعبّر بالفرنسوية ام بغيرها ، مـا دام يترجم عن تلك اللغة اللبنانية التي اختنقت مفرداتها في حلوقنا منذ القدم فاعتدنا ان نترجم عنها بجميع اللغات دون استثناء !

فيا لها من تعزية لشيوخ لبنان في آصالهم الفاترة ! ويا لها من أغنية لعذارى لبنان في اصباحهن المشمشة ! ويا له من نشيد لشبان لبنان في انهرهم المتأججة عراكاً وكفاحاً !

اذا ادلهمّت سماء لبنان بالاضطرابات المتنوّعة ، فانتابت ابناءه الخطوب حتى كادوا ييأسون ، اذا طغا علينا التيّار الغريب حتى كاد يجرف ما تبقّى من طلولنا الماثلة ، اذا دفع بنا حبّ التقليد الاعمى حتى كاد يمحو شخصيّتنا ، رمينا بابصارنا نحو الافق ، فـاذا نورٌ لطيف يهدينا سواء السبيل ، اذا دليـل عطوف يقوّم خطانا ، اذا معلّم شفيق يذكّرنا مفاخر الماضي فينعش فينا الامل بالمستقبل ، اذا «جبل الإلهام» ! ف . ا . ب .

MARC-AURÈLE, Pensées pour moi-même, suivies du Manuel d'Epictète et du tableau de Cébès, traduction nouvelle de MARIO MEUNIER. [*Classiques Garnier*]. In-12, 299 p. Paris, Garnier Frères. Prix : 12 fr.

منتخبات من آثار مرقس اوريليوس ، وابيكتيت ، وسيبس

كتاب جزيل الفائدة ، جمع فيـه المترجم ، وهو من مشاهير علماء اللغة اليونانية ، افضل ما يُعرف للمفكرين الثلاثة من الآثار ، ورتّبها على طريقـة سهلة المنال بعد ان قدّم عليها بحثاً في حياة المفكر ، وعلّق عليها بعض الحواشي المفيدة ، ثم اردف اهمّها ، اي خواطر مرقس اوريليوس ، بفهرس حسب المواد . فكان له أثر جليل معنى ومبنى . ج . ل .

HUBERT PERNOT, Lexique grec moderne-français. IX + 528 pp. Paris, Garnier frères. Prix : 18 fr.

معجم يوناني حديث - فرنساوي

اتحفنا الاستاذ هوبر پرنو بمعجم يوناني حديث - فرنساوي اتى ثمرة جهوده في

درس الآثار اليونانية . وهذا المعجم موضوع لفائدة الفرنسويين المهتّين بدرس اليونانيّة الحديثة كلغة الجرائد والمحادثات ، ولفائدة اليونانيين كذلك المهتّين بدرس اللغة الفرنساوية . ولا يخفى ان كل هذه الدروس لا تتطلّب تعمّقاً كثيراً ، وهكذا يكون المعجم الحاضر كافياً على صغر حجمه وسهولة نقله ، وفيه كلمات اللغتين القديمة والحديثة. ي. ك.

W. Braune, Die Futûh al Gaib des 'Abd al Qâdir. [*Studien zur Geschichte u. Kultur des Islam-Orients*. Heft VIII]. In-8°, 160 p. Verlag von Walter de Gruyter u. C., 1933. Prix : Mk. 15.

فتوح الغيب لعبد القادر الجيلاني

مؤلف هذه الرسالة الصوفية من اشهر الاولياء ومن اكثرهم شعبيةً في العالم الاسلامي ، وهو مؤسس الطريقة القادرية الواسعة الانتشار . كان فارسي الاصل، كما يقول عن نفسه . الا ان مترجمي حياته من المسلمين رغبوا في ان يلحقوا نسبه بالنبي ، فزعموا ان امّه وضعته ، وهي في الستين من عمرها ، وتلك خاصة تنفرد بها نساء قريش ، على قولهم .

تُعمّ الرسالة الحاضرة الى ٧٨ مقالة لا يتجاوز بعضها الاسطر القليلة، وكلّها تدور حول الزهد والتقشّف ، وتنمّ لهجتها عن صوفية عميقة تقترب احياناً من لهجة نسّاك المسيحيين . اما من حيث العقيدة فهي سنيّة خالصة لاهوتياً وفلسفياً جديرة برجل حنبلي كعبد القادر ، فلا تطرّف فيها ولا ابتداع ، لا حلول ولا شطحات ، كما نرى في آثار الحلاج ومن اليه من الصوفيين . بيد ان عبد القادر يكثر من استعمال لفظة « الحق » بدلاً من « الله » فيتذكر المطالع هتاف الحلاج : « انا الحق ! » . ومن غرائب الرسالة ان المؤلف يعتقد بوجود الخيل في الجنة . اما الترجمة الالمانية فحسنة اجمالياً ، وقد توفّق المترجم الى تحسين النص العربي في بعض المقاطع . هـ. ل.

M.-S. Meissa, Le Message du Pardon d'Abou'l-'Ala de Maarra. Préface de W. Marçais. In-12, IV+204 pp. Paris, Geuthner, 1932.

رسالة الغفران للمعرّي

شاء صاحب الكتاب ان يُطلع متأدبي الغرب من المستشرقين وغيرهم على

ما في رسالة الغفران من قوة ابتكار، ووروح تهكم، وجرأة في الاحكام فعمد الى درسها وتحليلها، والى ترجمة بعض مقاطع منها، مقدماً على ذلك بحثاً اجمالياً في حياة المعرّي، وفي ما اثارته الرسالة من آراء ومقابلات بينها وبين ملحمة دانتي خاصةً. ولقد كان موفقاً على الغالب في هذين البحثين. ثم وصل الى الرسالة نفسها، ولا يخفى ما فيها من صعوبة في الانشاء، وغموض في المقاصد، وما تفرض على المطالع من صبر وجهد، وعلى المترجم من عناء قد لا يأتي بالثمر المقبول. ولهذا رأى الا يأخذ بترجمتها كلها، ففضّل ان يحللها قسماً قسماً، فيشرح الاقسام الصعبة، ويجتزئ بترجمة منتخبات رآها كافية للدلالة على شخصية المعرّي. ونحن اذا انتبهنا لصعوبة العمل، نرى بانه نجح في عمله نجاحاً مقبولاً. الا ان ما لا يمكننا السكوت عنه هو ذلك الاهمال الغريب في ضبط الاعلام وكتابتها بالافرنسية. فهناك اخطاء واوهام يخال قارئها ان المؤلف يجهل تماماً الحروف العربية، فيأسف للامر، ولاسيما ان مكتبة گوتنر لم تعوّدنا مثل هذا الاهمال في منشوراتها القيّمة. ف. ا. ب.

Islamica, Zeitschrift für die Erforschung der Sprachen der Geschichte und der Kulturen der islamischen Völker. VI Band, Heft 2, 1933.

مجلة الاسلاميات: الجزء الثاني من المجلد السادس

يرى المطالع في هذا الجزء بحثاً دقيقاً عن النقود الفارسية، ثم تتمة بحثين بُدئ بهما سابقاً وموضوعهما: النظام الاجتماعي بين البدو، والقراءة القرآنية. اما نظام البدو الاجتماعي فيهم خاصةً قرّاءنا الوطنيين لان الكاتب يدرس الحالة الاجتماعية بين بدو سورية وفلسطين. واما البحث في القراءة القرآنية فيصف عدة مخطوطات عن التجويد والوقف وما الى ذلك من ضروريات القراءة المذكورة. هـ. ل.

Joseph Schacht, Das konstantinopler Fragment des Kitab Ihtilâf al-Fuqahâ' des at-Tabari. [*Veröffentlichungen der « De Gœje-Stiftung.»*, n° X]. In-8°, XXIV+٢٧٤ pp. Leiden, Brill, 1933.

كتاب الجهاد وكتاب الجزية واحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء للطبري

ابو جعفر محمد بن جرير الطبري هو من ائمة الشرع والتاريخ في الاسلام.

ومؤلفه الشهير « تاريخ الرسل والملوك » لا يزال من المستندات الكبرى التي يلجأ اليها المستشرقون كافة في ابحاثهم عن التاريخ الاسلامي . والذي يزيد في قيمة ما كتبه هذا العالم الكبير هو ليس مقدرة الكاتب الشخصية وسعة معلوماته فحسب ، بل ايضاً كونه من المتقدمين الذين عاشوا في القرن الثالث للهجرة وجالوا في البلاد الشرقية درسوا فيها عادات الشعوب وتواريخها واقتبسوا ونقلوا علوم علمائها . والامر الذي يذكر عن ابي جعفر الطبري انه رفض كل الوظائف العليا التي عرضت عليه في الدولة ليكرس نفسه للعلم وتصنيف المؤلفات . ومنها ايضاً ما عدا تاريخ الرسل والملوك كتاب « اختلاف الفقهاء » الذي يحتوي على آراء الفقهاء الاقدمين مثل الاوزاعي والشافعي ومالك والثوري وابي حنيفة الخ . . . وهي مجموعة دقيقة جداً كما يعترف بذلك المستشرقون .

وقد عثر اخيراً المستشرق يوسف شخت في المكتبة السليمانية في استانبول على نسخة تتضمن قسماً من كتاب اختلاف الفقهاء ، وجد فيها بعض الاختلافات عن النسخ المعروفة لتاريخ اليوم . وقد عني بنشرها عناء كلياً وطبعها طبعاً جميلاً . وهي تحتوي على قسم مما يمكن ان نسميه «القانون الدولي» في الاسلام اعني به احكام الحرب والجهاد ومنها كيفية قتال اعداء الاسلام والمشركين والصلح معهم ، ومعاملة اهل الذمة ، واهل البلاد المفتوحة الخ . . . ولا نشك في ان هذا الكتاب الجديد سيأتي بفائدة كبيرة للمستشرقين جميعاً .

اميل تيان

Dr Mehemed Emin Efendi, **The Future of Palestine.** Authorized Translation from the German. 44 pp. Londres, Luzac, 1934. Prix : 2 shill.

مستقبل فلسطين

ينصح كاتب هذه الرسالة اليهود الصهيونيين وكل من يهتم بالمسألة اليهودية بان يقلعوا عن فكرتهم بانشاء « دولة يهودية » في فلسطين . وقد نشر رسالته سنة ١٩١٨ ، قبل ان يسير البلد على نظامه الحالي ، ولا يظهر انه اعاد النظر فيها قبل ترجمتها ، الا ما خص حاشية او حاشيتين . اما ما يذكره من الاعتبارات العامة فكله يدلّ على ان الرجل مخلص القول يتمنى حقاً خير جميع الاقليات

الدينية والسياسية بل خير البشرية جمعاء، ويدل كذلك على ان المؤلف عالم باستخراج العبر من حوادث التاريخ. ولكننا نعتقد انه لا يشعر الشعور الكافي بتأثير الروحيات في مجرى هذه الحوادث، ولهذا فهو لا يخرج من تشاؤم مؤلم بمصير الجماعات البشرية. ك. ب. هيوز

Jules Sion, La France méditerranéenne. In-16 avec 6 cartes. Paris, Librairie Armand Colin. Prix : 10 fr, 50.

فرنسة الساحلية على البحر المتوسط

مؤلف هذا الكتاب استاذ في جامعة مونبليه منذ خمس وعشرين سنة. وقد تهيأ لموضوعه الحالي الجامع بنشره عدة ابحاث عن جنوبي فرنسة، وبرحلاته الى الجزائر وايطالية واليونان. فنتج من كل ذلك قسمان مهمّان في الكتاب خصّ الاول منهما بدرس «الطبيعة» في السواحل وتكوينها ومناخها ونباتها وشروط الحياة فيها، وهو يقرن الدرس بالوصف الجميل. اما القسم الثاني فخصّه «بعمل الانسان»، فدرس تطوّر تلك المناطق الجنوبية التي كانت اولاً دويلات بحرية مستقلة قبل ان انضمت الى فرنسة فتمّمت وحدتها. وبعد ان اشار الى المجاري التجارية، والطرق، والمرافئ في العصور الماضية والحاضرة، وصل الى درس الزراعة والصناعة، والسكان، والقرى والمدن، فخصّ بذلك فصولاً قيّمة ختمها بصفحات نفيسة في روح العصبيّة المنطقية وامتداد النفوذ الفرنسوي في البحر المتوسط.

Dr Chukru Mehmed Sekban, La Question kurde. In-12, 41 pp. Paris. Les Presses Universitaires.

المشكلة الكردية

يقول الكاتب ان الاقليات سببت متاعب عديدة لحكوماتها منذ الحرب الكبرى. وعليه فانه ينصح اكراد تركية بالسكون، وبالرجوع الى تاريخهم فيجدون انهم كانوا دائماً على اتفاق تام مع الاتراك انسبائهم اذ ان الجميع من اصل طوراني. اما ما يحتج به بعضهم من اختلاف اللغة فيردّ عليه المؤلف بان اللغة الكردية لا يمكنها ان تكون لغة ثقافة، مستشهداً بالاختبار الذي أجري

في العراق حيث اخذ الاكراد باستعمال لغتهم في المدارس منذ اتفاق سليمانية اي منذ ثماني سنوات ، فاسفر الاختبار عن نتائج بحكم العدم ، لانه ليس في اللغة الكردية اثار مكتوبة تصلح للدرس والمطالعة.

بقي ان نعرف حكم الاكراد انفسهم في هذا الدفاع الشديد عن تركية وقد ختمه المؤلف بمدح شخصية الغازي مدحاً حماسياً عالياً خالياً من كل حكم سابق او عاطفة تحيز ، على ما يقول . واذاً فليس ، في نظره ، من وجود للمشكلة الكردية ، لا في تركية ولا في غيرها من بلاد الله . وهي طريقة سهلة حاسمة في ازالة المشاكل والصعوبات. ج . ل .

D^r Martin Voigt, **Kafiristan**. Versuch einer Landeskunde auf Grund einer Reise im Jahre 1928, mit 59 Abbild., einer orogr.-hydrographischen Skizze und einer Karte. Ferd. Hirt in Breslau, 1933 156 pp. Prix : M. 7,50

كافرستان

كافرستان ، او بلاد الكفرة ، منطقة من افغانستان يتصل شرقيها بحدود امبراطورية الهند . وهي منطقة لا تزال مجهولة في عصرنا ، الا في نظر بعض الاختصاصيين من الروس والانكليز . ولهذا فان قيمة الكتاب الحاضر تبدو كبيرة ، اذ ان المؤلف جمع فيه كل ما يتطلب درس البلاد درساً علمياً من معلومات ، وصور ، ورسوم ، وخرائط ، ومآخذ . وقد اهتم خاصة بدرس العنصر البشري ، ففتش عن اصل اولئك « الكفرة » وعن اي شعب اسيوي يتحدّرون ، وعن طريقة محافظتهم على صفاتهم الاصلية بفضل انقطاعهم وعزلتهم ، وعن ديانتهم واية ديانة تُشبه . ثم اشار الى عدم اختصاصهم بنظام سياسي اذ انهم يتبعون حكومة كابُل. ج . ل .

Alexandre Eck, Le Moyen-Age russe. In-8°, 574 pp. Paris. Maison du Livre français, 1933.

القرون الوسطى في روسية

مؤلف الكتاب روسيّ مهاجر نزل بلجيكة ، فدعته كلية الفلسفة والآداب في غاند الى اعتلاء احد منابرها ، فاقام تسع سنوات يدرّس الموضوع الذي

نشره اليوم . وعندما اتصفت جامعة غاند بالصفة الفلمنكية ، انتقل المؤلف الى جامعة بروسل الحرة فتابع فيها القاء دروسه.

ولا يخفى ما في هذا الموضوع من جدّة ، فـان تاريخ القرون الوسطى في روسية يجهله علماء الغرب جهلاً شاملاً ، ولا يعرفه الروسيون انفسهم معرفـة واضحة . ولهذا دُفع المؤلف الى عرض كتابه باللغة الفرنسوية ، فاستحق شكر المؤرخين جميعاً . واستند الى المصادر الروسية العـديدة ، فاتى درسه جـامعاً اطراف مظاهر المجتمع الروسي من القرن الثالث عشر الى السادس عشر ، وهي الحقبة التي تمثل القرون الوسطى في روسية . ولم يكن هذا التأخر ناتجاً ، كما قد يعتقد البعض ، من بطء في تطوّر المدنية الروسية ، فان روسية القديمة كانت تتطوّر تطوّرًا طبيعياً ، اذ فاجأتها الغزوات المغولية فحوّرت مجرى التمدّن ، وقطعت بين تلك البلاد والغرب مدة قرنين كاملين ، فدخلت روسية في عصرها الاوسط ، وهو هذا العصر الذي درسه المؤلف ، فاشار الى جهود الروسيين في العمل على تجديد حياتهم في تلك المنطقة الحرشاء الباردة الواقعة على ضفتي نهر ڤولگا الاعلى وعلى ضفتي نهر اوكا ، والى ما بذله الامراء ، ورجال الكنيسة ، والخدم ، والفلاحون والعبيد من التضحيات الجمة حتى انشأوا مدينـة موسكو ثم دويلتها الصغيرة ، ثم سلطانها الممتدّ . وكان انتخاب ميخائيل رومانوف سنة ١٦١٣ واعتلاؤه عرش موسكو . وقد ألحق المؤلف بكتابه نصوص بعض المعاهدات والاتفاقات القديمة ، وقدّم عليه خارطة للبلاد الروسية في القرون الوسطى.

ومما يجدر بالذكر عدة ملاحظات دقيقة اصلح بها المؤلف كثيراً من آراء المؤرخين واوهامهم التي كان يتناقلها الناس واثقين مطمئنين . من ذلـك ان تأثير السيادة المغولية لم يكن كله سيئاً . من الحق انهم اكتسحوا روسيـا ، ولاشوا تجارتها مع مناطق الجنوب . ولكنهم عندما استحكم سلطانهم تركوا البلاد وشأنها من حيث الحكم الذاتي فلم يتـدخلوا في الادارة ولم تكن وطأتهم ثقيلة على السكان ، انما اكتفوا بما كانوا يستفيـدونه من الاموال كالجزية ، ونفقات السفراء والموظفين ، وبعض الضرائب الخـاصة . فكانت روسية منطقة متعلقـة بالمغول ، لا مستعمرة لهم ، وقـد كان من نتائج تسلّط

الخان على تلك البلاد المقسمة ان حفظ فيها نوعاً ما روح الوحدة والطموح اليها.
ومما اصلحه المؤلف من الاوهام السابقة ما يتعلق بالنظام الزراعي، فيقول ان قسمة الاراضي المطردة لا ترقى الى القرون الوسطى . انما هي متأخرة عن ذلك وسببها ان الملك كان يرى فيها مصدراً للمال قبل كل شيء . وهكذا فلا تكون الملكية المشتركة ولا القسمة المتساوية المطردة من ميزات النظام العمراني الاصلي في روسية . ج. ل.

Adrien Dansette, Les Affaires de Panama. In-16, accompagné d'une carte. Paris, Librairie académique Perrin. Prix : 15 fr.

حوادث بناما

هو درس مجرد لحوادث بناما الشهيرة التي قادت الى ثلاثة مشاكل :
١ المشكل المالي : هل كان مشروع فردينان دليسبس العظيم مشروعاً مستنداً الى الغش والخداع ؟ هو ما يجيب عنه المؤلف بالاعتماد على الوثائق الاصلية .
٢ المشكل السياسي : كيف دُفعت السلطات العامة الى تقوية شركة بناما ، وما تبع ذلك من المناقشات في المجلس النيابي . ٣ المشكل القضائي : وفيه وصف الفضيحة المالية في محكمة الاستئناف ، والحكم على دليسبس وايفل ، ثم في محكمة التمييز وتبرئة المتهمين ما عدا وزيراً كان قد اقرّ بفعلته . وما تلا ذلك من مناظرات واحتجاجات جعلت من تلك الحوادث اعظم ازمة عامة اجتازتها حكومة الجمهورية الثالثة . يعرض المؤلف كل ذلك باسلوب سهل وانشاء واضح يولي الكتاب جاذبية قوية .

Guide de Rome, bref et pratique pour le pèlerin de l'année sainte (édition 1933), avec un grand plan topographique, édition 1929, à deux couleurs. Prix : 5 fr.

دليل رومة

يجمع هذا الدليل فوائد جمة لا غنى عنها لمن يزور رومة ، كالمعلومات المتنوعة عن القطر الكهربائية ، والسيارات ، والمتاحف ، والآثار من كنائس وغيرها ، وما في جوار رومة كذلك ، مع جدول عام باسماء الشوارع والساحات والمحلات المشهورة والاشارة الى موقعها في الخارطة الملحقة بالكتاب .

فيصل الاول

تأليف امين الريحاني

مطبعة صادر، بيروت، ١٩٣٤، ص ٢٢٥ قطع ٨

ان مؤلف كتاب ملوك العرب وتاريخ نجد (المشرق ٢٦ [١٩٢٨]: ٥٢٥): لجدير بان يكلمنا عن ملك العراق فيصل الاول.

تقرب اليه لا تقرب العامل والموظف الى سيده وسلطانه، ولكن تقرب «الاخ» الى اخيه. فاطلع على حياته ودرس اطوارها، وعاشره وسامره، وقد باح فيصل بكثير من اسراره الى صديقه الامين، وعلم ان الاستاذ قدير على خدمة المصلحة العربية لما له من النفوذ في بعض الدوائر الادبية. ومات فيصل فمات بموته امله بالعودة الى الشام.

في كتاب فيصل الاول نزعتان، كما في سائر كتب الريحاني: النزعة الاخبارية، والنزعة الاجتماعية او الفلسفية.

فالنزعة الاخبارية قيّمة بقيمة المواد التي استقاها المؤلف وهي مجموعة من اختباراته الشخصية ومطالعاته الواسعة، وقد جاب الشرق والغرب بلاداً وكتباً وحفظ لملك العراق الذكريات والنكت، ونشر عنه الوثائق، واستحق الثناء. اما نزعة الكتاب الاجتماعية او الفلسفية فملوّنة بلون نفسية الريحاني، مناصر المسألة العربية حتى هضم حقوق الاقليات. ولا يسعنا الا مخالفته فيما كتب على الاشوريين، ونحتجّ على ما اتهم به النصارى طرّاً في النصل على الرشيد وفيصل وابي نواس، ولم يفطن الى ان مخالفة بعض الشذاذ لوصايا الانجيل فيما يخص الاداب لا يقيم حجة لشريعة القرآن المتساهل في تعدد الزوجات على شريعة الانجيل القائل بوحدة المرأة والزواج وواجب الكفران بالذات. ف. ت.

سلسلة دروس الطبيعة: الجزء الاول

تأليف انيس هندية، استاذ الطبيعة والكيمياء في تجهيز حلب، مهندس كيماوي

الطبعة الاولى، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٣٣، ص ٩٩ ق ٨.

وضع هـذا الكتاب موافقاً لبرنامج التعلم في الصف الرابع واهم مواده

الثقالة وتوازن السوائل والغازات .وهو سهل الالفاظ صحيح العبارة فيه تمارين كثيرة وبحوث تذيل الفصول وترغب في قراءتهـا وهي مأخوذة من العلوم والمخترعات العصرية ، اختارها المؤلف « لانها تحبب الطبيعة للطالب وتثير فيه الشغف بالمطالعة » وفي نهاية الكتاب تمارين مهمة تهون البحث على الاستاذ وتكفيه عناء املائها على الطلاب .

نشكر للاستاذ هندية هديته ونتمنى لكتابه الرواج في المدارس خدمة لتعليم العلوم ليس باللغات الاوروبية فقط ولكن باللغة العربية ايضاً ف . ت

كفيل الانشاء

تأليف ادوار مرقص

الجزء الاول : ١٠٢ ص . ، مطبعة الترقي ، اللاذقية ١٩٣٣

الجزء الثاني : ١٤٢ ص . ، مطبعة كومين ، اللاذقية ١٩٣٣

اهدى الينا المؤلف هذا الكتاب المدرسي بجزئيه . وقد خصّ الجزء الاول بنمطي الانشاء الابتدائي والمتوسط . فعرّف الينا هذين النوعين من الانشاء وشروطهما وطرق التمرين عليهما ، والقى نظره على التسديد والاحتذاء البسيط . ثم انتقل الى الكلام على كتابة الرسائل وحلّ الشعر الى نثر . وخصّ الجزء الثاني بالانشاء العالي فحدّد لنا هذا الفن وتحدث الينا عن كيفية انشائه ، ثم انتقل الى الكلام على الرسائل التجارية والكتابات الرسمية ونحوها ، وحلّ الشعر الى نثر عالٍ الخ ... وذكر الخطابة وشروطها وآداب الخطيب .

نهج المؤلف في كتابه على الطريقة القديمة المعروفة من سؤالات وجوابات . ودعم مؤلفه بامثلة وتمارين على طبقات الانشاء المختلفة . وقد احسن في اختيار بعض آثار الخطباء والشعراء الجاهليين المشهورين ، وكبار المنشئين في العصر العباسي ، وجهابذة الادباء في عصر النهضة . كما انه احسن في اقتباس عدة فصول في الانشاء من الادباء الافرنج نقلها الى العربية مسنداً كل فصل الى مصدره ، لان اللغات يتغذّى بعضها ببعض ، وقد لا تستغني احداها عن الاقتباس ، لان الاقتباس عامل لاحيائها .

ولكنا كنا نود لو تحاشى المؤلف عن ذكر الرسائل التجارية والوثائق الرسمية في باب الانشاء العالي لان بين هذين النمطين من الانشاء تبايناً في التعبير واختلافاً في التفكير . فكان من المستحسن ان يفرد لهذا النوع من الانشاء مؤلفاً خاصاً يطلع عليه كل ذي رغبة فيه . كما اننا اخذنا على المؤلف بعض هنات لغوية يصلحها دون شك في طبعة جديدة نتمناها في مستقبل قريب .

م . ع .

الشعلة

بقلم احمد زكي ابو شادي

١٤٤ ص . متوسطة ، مطبعة التعاون ، مصر ، ١٩٣٣ — الثمن : ٥٠ مليماً

هي مجموعة شعرية جديدة للدكتور ابي شادي ، صدّرها ببحث دقيق في « فلسفة الشعر » وحظّه من التفكير والخيال والعاطفة وختمها ببحث في « الشعلة » نفسها للدكتور ابراهيم ناجي . اما قصائد هذه المجموعة ومقطّعاتها فتدور على العاطفة الوطنية المصرية في الغالب . وتستمدّ الهامها من احوال مصر في دور الانتقال ، « والنفوس جامحة ، والخواطر مضطربة ، والحريات معطّلة . » وهي ، وان تكن تهمّ ابناء مصر خاصة ، فقد تفيد مؤرخ الشعر العصري بما تدلّ عليه من اخلاق الشاعر ونزعاته وشخصيته لانها « تحمل اجزاء روحه وتؤلف صحائف نفسه » ، وعلى هذا فانا نقبلها شاكرين.

ف . ا . ب .

امير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ

جمع وترتيب محمد خورشيد

٢٨١ ص . متوسطة — مطبعة بيت المقدس ، ١٩٣٣ — الثمن : ٥٠ قرشاً سوريا

« هو خير ما قيل في امير الشعراء نظماً ونثراً في الاقطار العربية كلها » كما قال الجامع ، ولم يبالغ في قوله . فمن سيرة شوقي ، الى صفاته ، الى بعض الذكريات عنه ، الى دروس متنوّعة في شعره ومناحيه المختلفة ، يتنقّل المطالع فيستجمع صورة تكاد تكون تامة للشاعر الراحل . نقول : تكاد ، لان شدة التأثر لذاك المصاب لا تزال تكتنف كثيرًا من تلك الدروس فتحوّلها

الى مجال العواطف . فضلاً عن ان نزعات اصحابها المتعددة ، وثقافاتهم المتباينة، تجعلهم يشاهدون الشاعر ، كلٌ دارس من خلال نظريته في الشعر وفي الحياة بل في السياسة والاجتماع . على ان كل هذا نافع ، لا لدرس شوقي فحسب ، بل لدرس عقليات هؤلاء الادباء ، وهم اشهر من يستند اليهم الادب في عصرنا. ولذا فيكون شكرنا للجامع مزدوجاً . ف.١٠ب.

رحلة الاب ايرونيموس دنديني الى لبنان سنة ١٥٩٦

تعريب الخوري يوسف يزبك العمشيتي

١٤٤ ص. متوسطة – مطبعة العلم ، بيت شباب ، ١٩٣٣

اتى الاب دنديني اليسوعي لبنان موفداً من قبل الحبر الاعظم اكليمنضوس الثامن للفحص عن عقائد الطائفة المارونية ونظمها ، وابداء نظره في ما يراه حقيقاً بالاصلاح ؛ وكان من مهمته ايضاً ان ينظر في امر تلامذة المدرسة المارونية برومية . فقام بعمله خير قيام وترك هذه الرحلة الشائقة الجزيلة الفائدة لكونها اقدم واتم ما كتب سائح عن لبنان. وكان من فضل الخوري يوسف العمشيتي ان نقلها الى العربية ، وكان من فضل صاحب المجلة البطريركية ان نشرها تباعاً ثم على حدة ، فأدّيا خدمة جزيلة لتاريخنا في القرن السادس عشر . ف.١٠ب.

حياة القديسة لويز دي ماريلياك

٥١ ص. متوسطة – مطبعة المرسلين اللبنانيين (جونية) ١٩٣٢ – الثمن : ٥ غروش سورية

حياة الطوباوية كاترين لابوره

٣٠ ص. صغيرة – مطبعة المرسلين اللبنانيين (جونية) ١٩٣٣ – الثمن : غرشان سوريان

هما نبذتان مفيدتان لحضرة الاب يوسف علوان اللعازاري تختص الاولى بحياة مؤسسة راهبات المحبة المشهورات باعمال الرحمة والاحسان ، وقد اعلن الكرسي الرسولي قداستها مؤخراً. وتلخص الثانية حياة البارة كاترين لابوره رائية الايقونة العجائبية وهي من اللواتي طُوّبن مؤخراً كذلك . فكان من فضل حضرة المؤلف انه عرّف العالم العربي المسيحي بفضائل هاتين الراهبتين . فاستحق الشكر والاجر.